منشورات الاختلاف

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

خطوة في الجسد

رواية



خطوة في الجسد

حسين علام

روايـة

إلى والدي

و

إلى ميلود حكيم ووالدته

حقيقة

عن بن عربي في كتاب أيام الشّأن قوله:

واعلم أنّ الأيّام وإن كثرت فإن الأحكام الفعلية الذي هو الشأنُ يقلّلها إلى أن يردّها أسبوعا لا غير، وتتكرّر هذه الأيام في الشهور كما تكرّر الليل والنهار في الأيّام وكما تتكرّر الساعات في الليل والنهار، وكذلك الشهور في السنين، والسنون في الدهور والأعصار، فالله لم يزل يُجري في الأشياء على ما تُعطيها الحقائقُ وإن جوّز العقلُ خلافها فلقصوره.. فالحق سبحانه أبدًا يعطف بالأعجاز على الصدور، فالأمر دورِيٌ لا يزال في الروحانيّات والجسميّات ويحدُث بينهما الأشكالُ العجيبة الغريبة((والقَمَرَ قدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتىَّ عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيم))[1] فنهار يكرّ على ليل، وليلٌ على نهار، وفلكٌ يدور، وخلقٌ يدور، وكلامٌ يدور، وأسماءٌ تدور، ونعيمٌ يدور، وصيفٌ يدور، وشتاءٌ يدور، وخريفٌ يدور، وربيعٌ يدور، وسيارةٌ تدور، وكما بدأكم تعودون((ولَقَدْ عَلِمْتُمُ النَشْأَةَ الأولىَ))[2] فأعدادٌ تدور وحركاتٌ تكرّ فسبحان مدبّرها ومُديرها لا إله إلاّ هو العزيزُ الحكيم..))

[1] سورة يس، الآية:39

[2] سورة الواقعة، الآية:62

حكايةٌ من ثلج

"

– يا الجماعة..حكاية يوسف ولد المهدي الخرّاز مع بايه البجاوية، كلّها كذب في كذب..أنا أقول لكم..إنها خُرِّيفات العجائز..أنا عمري ما شفتهم..و لا التقيت بهم..هاذو زوج لا وجود لهما..أنا ولد تلمسان وأقول لكم: لا وجود لشخص اسمه يوسف ولا بنت اسمها بايه. إنهما مجرّد كلام في كلام .

– أنت صحيح ولد بْلاد لكنّك ساكن دائما في الحمّام..وِينْ تعرفهم..راك بدأت تْخلَّط..أسكتْ..هذه الحكاية منها..البنت حقيقية.. أنا رأيتها بعينيّ هاتين اللتين يأكلهما الدود..هيفَا مرفوعة المقام..صفتها صيفة الهْلال الضاوي..أنت سمعت عنها فقط أنا رأيتها..قدها يحيَّر من شافو..وشعرها..آه الشعر هبَّلْ مدينة بحالها..و الولد أنا أعرفه جيّدا..يوسف ولد عمّي المهدي الخرّاز..يسكن في العبّاد الفوقاني، كان معلما بالمدرسة التحتانية في سيدي يعقوب ولد عائلة..مربّي..خاطيه هاذيك التهمة .

– في هذه الأيام اللّي خاطيه متهوم يا الاخوان واللي خرّبها يعمل كُمّا يحب...

– قالوا أدخله أخوها إلى الكوميسارية وقال له.

" أنت يا الكلب..بن الكلب حاسب روحك مثقف وتعرف التاريخ..سأريك يا المثقف..أنا أتلهى بصَنّابَك[3].قلت لك أخطي أختي..ابتعد عنها خير لك.. بصح أنت

[3] كلمة نابية

تلعبها فاهم"..و قالوا سجنه سبعة أيّام وعذبه عذاب الكفار لسيّدنا بلال..ثم أعطاه رصاصة في المخ ودفنه في" الوريط"[4]..

– من قال لك أن هذا ما وقع..الذي أعرفه أنا..والذي قيل لي هو إنّه جاءت جماعة في اللّيل وأخذته..ما عرفوا وينْ..غاب..اختفى...

– ربّما اطلع للجبل..أصبح الطلوع ساهل هذه الأيّام..الكل يستطيع أن يطلع..راهم يرحبوا بيهم..يستغلوا الفرصة.. لأنّه عندما يجِيوَك للدار ويقلبوها سافيها على عافيها..و يخربوا لك في أختك وأمّك..و أنت تشوف..يدفعونك للجبل..وها هو قريب..مِشِ بعيد..على أمتار من العبّاد فقط..قريب جداً من المدينة...

– أشْ..أشْ..ياالجماعة..أشْ علينا.. هذه مشي هدرة[5].أخطونا من المشاكل..بلّعوا أفامكم..الحيطان عندها آذان..أش علينا..أشربوا وأسكتوا..هاك أنت هذا دورك. أشرب وبلّع فمّك.. .

كان بنعمر ينظر من بعيد إلى هذه الجماعة من السكارى ويستمع إلى هذا الكلام. لقد تنحّى جانبا عنهم منذ البداية. أراد أن يسمع بنفسه ذلك الكلام الذي يروى في كلّ مكان من المدينة المحروسة. كانت حكاية يوسف وبايه البجاوية منتشرة في كل مجلس، تجري على كلّ لسان كما تجري النّار في التبن أو في كومة من العوسج. يتداولها الناس في المقاهي والمحطّات والمساجد والساحات..في الدروب وعلى الأرصفة،حتى أن السكارى يتداولونها في خلواتهم..و غدت حديثهم الذي يستعينون به في الوصول إلى آخر السكر الذي يطلّون منه على سؤر أرواحهم الخائفة من القتل. وهم اليوم يتهامسون بها ويعدّونها حكايتهم الأثيرة. أمّا الذين يجرؤون على روايتها علنا فعليهم أن يتخفّوا عندما يشرعون في ذلك، ليس لأنها نذير شؤم بل لأنّه لا أحد يمكن أن

---

[4] وادي به شلال عظيم
[5] الكلام

يصدّق أن البجاوية امرأة حقيقية، لذا يتكتّمون عند البوح باسمها أيضا أمام الشرطة أو العسكر ويخفون معرفتهم بها، تماما كما يخفون قطع الكِيفْ [6] ويضعونها في علب الكبريت وفي تبطين السراويل والجاكتات أو يرمونها بين السجائر، تحت، في القاع.

لقد صارت هذه الحكاية ممنوعة عن الناس لأنها مرتبطة بـ (الدولة)، ولكنها كانت على كل لسان لهذا السبب بالضبط. لقد خرّبت عقول الناس كبارا وصغارا لأن كلّ راوٍ كان يضيف لها شيئا من عنده، فهي لذلك تتضخّم وتتورّم وتكبر حتى تغدو بحجم شجر البلاطان.

و أما الذين يكرهون يوسف ولد المهدي الخرّاز فكانوا يضيفون إليها الوقائع الكاذبة. وهاهي رائحة الشماتة تندّ من أفواه أولئك الذين قالوا عنه أنّه هو من قتل..إنهم يغالطون ويدلّسون.. هاهم يدّعون عليه..

قال بنعمر لنفسه:

" في هذا الزمن صار الخوف الطريقة الوحيدة للحياة وازدهر الكذب.لقد انطبع على الوجوه وتحوّل إلى دمغة نشاهدها على الجباه في كل مكان، فيبدو واضحا على السحنات والألبسة والحيطان.. إنه يُشمّ كالدخان الزنخ في الهواء..لقد أصبح في الماء خوف وفي الأرصفة خوف، وحتى في الشجر والحجر..إنه يندّ من كلّ شيء، ومن كل الكائنات..من الأحباب..من الأخ والأخت..من الأب والجار، من الشمس والمطر.. حتى من الثلج، ومن الغابة القريبة.أما الطيور في السماء وهي تطير عاليا، فوق.. فكانت تخشى أن تقف قليلا عندنا..كانت تتجنّبنا لأنّنا ما عدنا بشرا ".

وهاهو رعب أهل تلمسان المحروسة يزيد أكثر عندما اكتشفوا ذات صباح بارد من أيّام الشتاء الطويل لتلك السنة التي لا تشبه أيّة سنة أخرى، لأنّها كانت سنة كبيسة انضافت

[6] مخدرات

إليها أيّام أخرى دون حساب..في ذلك اليوم، لما كان الشتاء قائما لا يتزحزح، عند الصباح اكتشفوا وهم يخرجون إلى أعمالهم ،جثّة امرأة مفصولة الرأس عن الجسد..على بعد خطوات قليلة من دار الكوميسارية..ظلوا مذعورين يومها طوال النهار لما رأوا بركة الدماء السوداء التي تغرق فيها الفتاة. من الواضح أنها كانت بنت عائلة، بدا ذلك من لباسها، ومن سروالها الكلاسيك الأسود ومعطف الفلانير الثمين.

لم يكن شعرها الغزير متحرّرا من قبعة الصوف السوداء بل كان لا يزال ملموما فيها. اشتمّ فيه الممرّض الذي كان يعيد رتق الرأس إلى الجسد رائحة زيت الزيتون. لما كان يغرز الإبرة المعقوفة الغليظة في اللّحم الأبيض للرّقبة التي غسلها من الدم أولا ثم راح يخيط الجلد بالإبرة التي لم تكن لتنفذ إلاّ بجهد.

بدا وجه البنت مسبوكا، حاد التقاطيع وصار أكثر بياضا من ذي قبل وأقل رخاوة بعينين مفتوحتين تراقبان طيور الموتى السريعة. إنها تبدو مرتاحة في هذا الوضع أو مدهوشة مثل طفلة تتلقى هدية..

قال الممرّض الذي كان مسطولا لبنعمر

– بقي قرط واحد من الفضة في أذنها اليمنى لا بد أنها تصارعت معهم وتخبطت وهي تُذبح ..لأن شحمة الأذن اليسرى مشطورة إلى قسمين...

قال بنعمر:

– نعم....

وبكى.

في ذلك الزمان كان أهل تلمسان لا يزالون يخشون الاقتراب من موتاهم مثل كل النّاس، لأنّ أي رجل بدت منه أية عاطفة نحو أي مقتول كان ذلك تعني أن دوره سيحين بعده، فالقاعدة هي أن تنتمي أو تصمت..أن تكون معهم أو ضدّهم أو تسكت. وإذا ما

سكنتَ صمتك أو رنَّ صدى دم القتلى في عزلتك صوتا يؤنّبك.. يخضّك ويحثّك على الكلام..و أردت أن تنطق بها انكسرت عباراتك فيك وتشظّت متناثرة على الأرض كالزجاج لأنها تيبّست وعلاها الغبار.. ومن كان يتعاطف أو تدمع عيناه حتى من البصل في عزلته..أو تبدو منه أيّة علامة إدانة لهذا الوضع كان دوره يحين في الغد. فيبدؤون أولاً بدفع ثمن قهوتك عنك في أي مكان جلست إليه..في "بودغن".. أو في "القلعة"..في "قباصة".. وحتى في وسط البلاد. ولما تلتفت حولك لتسأل عن المتكرّم برفع غبن ثمنها عنك فإنك لن تجده..فتسأل النادل ليقول لك إنه كان هنا وخرج منذ قليل.

- تعرفه؟...
- عمري ما رأيته هنا...
- كِيفْ عاملْ ؟.
- لا أدري...لا أذكر...

وتتكرّر هذه اللعبة معك أيّاما وأيّاما..تدوم المطاردة مدة أسابيع وأسابيع وعندما يتخلّلك الخوف جيّدا..عندما تتخلّل للموت، تجد تحت باب بيتك رسالة تهديد مباشر لك بالقتل ومعها دعوة لكي تحضر نفسك في المرة القادمة..ثم بعد ذلك تجد عند عتبتك، ذات صباح من صباحات الله الكثيرة كفنًا وقارورة من العطر الرخيص ..

و فيما بعد، عندما تستوي لموتك جيدا وتنضج له وتبدأ رائحته تندّ منك، يشرع الأصدقاء في تجنّبك والجيران في الابتعاد عنك..ثم المعارف الآخرون..فتبقى وحدك في مواجهة ما لاتعرف في ما تعرف..تُعزل إلى مصيرك..و عندما تسأل عمّن قرّر هذا الأمر لك وعن سرّ هذا التواطؤ، لن تجد جوابا..فتبدأ بالبحث عن ذنبك هذا الذي اقترفته..تفتش في لحمك قطعة فقطعة عن خطاياك هذه التي جعلت الكلّ يؤمن بموتك فلا تعرف. وعندما تيأس ستخترع لنفسك كل الذنوب الموجودة..تلك التي اقترفتها والتي لم تقترفها حتى تجد وحدك المبرّر الكافي لقبول موتك هذا الذي قرّره الناس مكانك..وفي جهنّمك ستنضج

وحدك لموتك..و هنا..في هذا الأوان سيشرعون بالقرع على باب بيتك لتخرج فلا تجد أحدا..و تمضي الليالي والأيّام على هذا الحال..هكذا أيّاما من الهلع والأرق..

ثم...

في يوم من أيّام الله الكثيرة..يسمع الناس عويلا حادا يفلق اللّيل وصراخا عظيما يخترق الظلمة..تتناهى إليهم صرخة امرأة..أمٌّ أو زوجة أو أخت، وفيتسارعون باتجاه العويل...

ثم ...

– ذبحوا فلانا..الله يرحمه....

نظر بنعمر إلى الجماعة وهو يفكر في هذا كلّه.كيف لا يشغله هذا الوضع ؟.ألا يعيشه يوما بيوم في عمق روحه.كان مهووسا إلى درجة التبدّد بما يجري ويحاول أن يجد تفسيرا معقولا لكلّ هذه الفظائع التي ترتكب في حقّ الناس فلا يجد غير العبث.لم يكن هناك من تفسير أبدا. ولم يحاول الذهاب فيه إلى أبعد من حدّه لأنّ أيّ بحث الآن وأيّة نتائج ترتب عنه ستكون مليئة بالكذب والمغالطة.. فالأمور غير واضحة.

كان هؤلاء السكارى في بيت عمّي حسان الداودي يتلمضون هذه الحكاية ويمتصون ما تبقى فيها من الحياة.بل يتضاحكون في عته السكر ووقاحته من خوفهم من كل شيء..من أيّة حركة خارج البيت المغلّق الأبواب والنوافذ .كانوا يخشون من تسرّب رائحة "الرُّوج"[7] الرخيص حادة ممزوجة برائحة العرق. الخمرة لا تزال جديدة غير معتّقة، ابنة هذه السنة أو من بقاياها التي لا تصدّر إلى الخارج.و لا يزال مذاق الكبريت فيها، بحموضته اللاذعة التي ستذهب مع الاستمرار في الشرب والتقدّم في السكر.

التفّ بعضهم في جلاباتهم[8].. الوجوه متعبة والذقون غير حليقة. قرفصوا عند الكانون وتحلقوا حوله. راحوا يتهاترون ببعض الكلام الضروري حتى تمرّ "السكرة" على خير. إنهم

[7] نبيذ جزائري رخيص
[8] ج. جلابة: جبة من الصوف

حالات من الكرهة المتخمّرة، المتخثرة، التي تدوم ليالي وأسابيع ولا تنجلي وتتبدّد سوى بالخمر ..إنهم الكرهة ذاتها حامضة إذا ما نكشتها تندّ منها رائحة مقرفة.. زنخة.

قال بنعمر في نفسه:

" آهي سكرة ومولاها الله.. ربّي يسلّك هذه الليلة على خير..إني هنا منذ المساء مع هؤلاء أسمع مرة أخرى تلك الأكاذيب عن يوسف..ولا أدري إن كانوا يعلمون أنّي أنا وحدي من يعرف الحكاية على حقيقتها وأنيّ الوحيد الذي يحقّ له روايتها..لقد كلّفني صاحبها بذلك..و أنا أحتفظ بيومياته ورسائله عندي في هذه المحفظة التي أحمل معي أينما ذهبت..أنا وحده من يستطيع فكّ خط يده ..

..أنا بنعمر عبد الله بن خميس وحده من يعرف الحكاية كاملةً..أمّا هؤلاء السكارى الخائبين الخائفين من القتل. الذين لم يقلعوا عن الخمر على الرّغم من المناشير التي تعلّق على الحيطان المتآكلة من الرطوبة والملل. وعلى الرّغم من الجوع ومن التهديد والوعيد بإقامة الحدّ على من تسوّل له نفسه شربها لأنه سيجلد مائة جلدة على وجهة حتى لا يتعلم الحزن..عليه أن يتعلم إغلاق الفم.."مائة جلدة ! "قال بنعمر لنفسه "كأنما لم نكن نجلد كلّ يوم ألاف المرّات من الجوع والحقرة."

وقال أيضا :

"هؤلاء السكارى البلهاء بعيدون عن الحقيقة. إنهم في واد والحكاية في واد. وأنا الوحيد من يعرفها أيّها الناس..أنا من يحقّ له أن يرويها لأني أعرف من هي بايه وأعرف من هو يوسف..أعرف الحكاية الكاملة للمدينة القاتلة التي أسرتني وأهلكتني وعلّقتني كالخائن على أبوابها وتركتني أنتن..يتفرّج الرائحون والغادون على موتي..

هذه المدينة..آه منها..لقد خرّقت قلبي وحبست عنه الدماء..و حكايتها هي الأخرى حكاية وأنا من يعرفها فأنا وحده من يذوق عذابات البقاء فيها، مخلصا لها وشاهدا على

ما يجري..إنيّ أعرفها حجرا حجرا وحجلا حجلا وحارة حارة..أما هؤلاء السكارى فمساكين..قد يبولون في سراويلهم إن اكتشفوا أن أحدا شاهدهم وهم يتدبرون الخمر من عند "ضمَّانة" في درب اليهود الذي خرّبته الرطوبة.فيه تُساكن الخمرةُ الموت، إذ أن صانع شواهد القبور هنا قبالة حانوت ضمّانة..وجها لوجه..لقد ازدهرت تجارة الحجر هذه الأيام. العمال ملطّخون طوال اليوم بالاسمنت الأبيض و"بالغْرانِيطو". وغدت الأسماء عنده تسكن الحجر..تبيت كل ليلة فيها لتجف أمام عيون العابرين.. فكّر بنعمر أن الأسماء غادرت الشفاه والقلوب وصارت تسكن الحجر وصار كلّ واحد منّا ينظر إلى شاهدته، ويحب أن يتخيّل شكل موته عليها..وحدهم أهل القتلى وأصدقاؤهم يعرفون فيقفون فجأة مباغتين بالاكتشافأمام الحانوت..

وقال بنعمر في قرارته:

"إننا نخفي اليوم أسماءنا وننكرُها..ولا نمرّ من هناك إلاّ لكي نشرب نخب الذين ماتوا وكي نجرّب نسيان أسمائنا لفترة..."

ثم صاح فجأة، عندما تذكر يوسف وماجرى له:

– هاتوا لي يا ناس..أي كلب بن كلب يعرف هذه المدينة خير منّي..هاتوا لي واحد عضّته هذه الكلبة مثلما عضّتني .....

و بكى..ثم راح يشهق ويئن كمريض يئس من الشفاء، لكنّهم لا يزالون يجرّعونه الأعشاب المرّة ويقولون له لما يتقيؤها..

" اشرب..اشرب..ما يداوي المرض المرّ إلا الدواء اللي أمرّ منه.."

عندما صرخ بنعمر مرّة ثانية التفتت إليه الجماعة وقالت:

– بشويّة عليك أخّاي..شربتَ خمسة.. بزّاف..حبّس ...

و قال أحدهم:

– ها قد بدأت الأمور تنفلت...

وقال آخر لصاحب البيت متبرّما:

– آشْ هذا السيّد اللّي جئت به اليوم يا حسان..أمَا يقدر يشرب ويقعد ساكت.علاش به هذا الشيء ؟.ما كان من قال له حاجة..كي شفناه ساكت خلّيناه.

قال حسان الداودي الذي كان جالسا يشرب صامتا هو أيضا طوال القعدة:

– لا بد أنكم ما عرفتوا هذا الرجل.. هذا هو بنعمر، صديق يوسف ولد المهدي الخرّاز اللي قلت لكم عليه..هذا هو اللي يعرف الأسرار كلها..و هو وحده من يعرف الحكاية الحقيقية...حكاية يوسف وبايه البجاوية.

سكت الجميع دفعة واحدة ونظروا إليه كأنما يكتشفونه لأول مرّة. أوّلهم حميدو الواسيني الممرض الذي أمضى عمره كلّه في المستوصفات خارج المدينة.كان ينتقل من قرية إلى قرية في أحواز تلمسان. الرجل نحيل إلى درجة المرض، بشعره الأكرت وهيئته الوسخة. حميدو لا يحب الكلام.. يداري ولا يحب أن يواجه أحدا، لا يمكنه النظر إلى الناس مباشرة. عيناه فارغتان، لا تنظران إلى شيء وهو يتكلم معك كأنما يتحدّث إلى نفسه. إنه يتخذ دوما وهو يقف معك شكل الذي سيغادرك على الفور كأنما يريد أن ينسحب هاربا ويتركك.

كان حميدو يأخذ البيض أو زيت الزيتون وأحيانا بعض العسل أجرة على عمله من العجائز، خاصة عندما يتفضل وينتقل إلى بيوت المريضات غير القادرات على الخروج إلى المستوصف.لم تكن المستوصفات بالنسبة له إلا مراكز عبور فمرة هنا ومرة هناك يسترزق ممن يؤدي لهم خدمة يعدّها فضلا من عنده.

عندما يخرج إلى أحد المرضى يأخذ عدّته معه ويلوّح بها أمام الناس ليشعرهم بخطورة منصبه..الضمّادات وزجاجات الكحول الطبي الأزرق بأنابيبها المعقوفة والصندوقة الفولاذية الغامضة..كلّ هذه الأشياء تمنحه مقاما يشعر في قرارته أنه فقده يوم أذعن لوالده وترك الجامعة وتزوّج فلاحة في قرية "عوشبة".. حميدو لا يحب أسمه اليوم لأنه يراه لا يتناسب مع سنّه الذي تجاوز الأربعين ومع شعره الأشيب ومع وجهه الذي تخدّد وجفّ وبدا ساكنا

لا ترف فيه عضلة لكنه يحب الشرب منذ أيّام العز، لما كان الفلاحون ينظرون إلى الممرض على أنه وجه من وجوه الحكومة. يحترمونه ويهابونه ويقيمون له ألف حساب، إذ لا زواج ولا طلاق كان يتمّان دونما رأيه. ولا وليمة تقام دون دعوته..لا شيء يجري في القرية لا يكون له به علم. أما اليوم فقد كبر الأولاد الصغار الذين كان يلقّحهم في المواسم ضدّ البوحمرون والكساح وكان يختنهم في الأصياف في قصاع الكسكسي الكبيرة الملئى بالتراب ليسيل الدم عليه وتدفن تلك اللحمة المقطوعة فيه ثم توارى بعيدا عن العيون الحاسدة.

لقد غادرته تلك الأصياف وكبر الأولاد وصاروا يتزوّجون وبدأ يشعر أنّه كبر ويتقدّم به العمر إلى الهاوية. لذا كان يشرب كي يغلقها ولكنها لم تكن لتنغلق لأنّه أضاع عشرين عاما خارج المدينة التي يحبّها..وهاهو يعود منذ فترة إليها ويجتهد كلّ أسبوع في أن يلجأ إلى بيت حسان الداودي خلف الفرن القديم "بالعبّاد" لكي يسكر مع صديقه سليمان ولد الفقيه المدرّس بالابتدائي، هذا الذي يتهرّب من أبيه منذ مدّة لأنّه حرّم عليه الدار. كان قد طرده من البيت وهدّده بالتبرّؤ منه نهائيا،ككلّ مرّة، إن لم ينقطع عن الخمر. وكان هذا المدرّس قد عدل عن رغبته في السفر وتزوّج إحدى قريباته وبقي إلى جانب والده يلازمه في كلّ الصلوات بالمسجد..يؤذن أحيانا ويعلم القرآن للأطفال أحيانا ويسكر أحيانا أخرى..كلّما واتته الفرصة. وهو يجلس عند عتبة باب بيتهم كلّما تعتعه الشراب ويلتقط عودا من الشارع وينخرط في تحفيظ أطفال يتوهّمهم بين يديه..

"أيّا..أسكتوا..يا الشياطين..بلّع فمك أنت..اقرأ أنت..أياّ..الألف ما تنقُطشي والبا نقطة من التحت والتا زوج من الفوق أيّا..أقرؤوا ما تحبسوش..راني جاي ..."

وكان أبوه يطرده من الدار ويسبّه أمام الملأ ويتبرّأ منه ويقول:

– هذا مش ولدي هذه ليست زريعتي..ما نعرف من أين جاء..هذه ما هي تربيتي...

لكنّه يعود إلى دارهم بعد أيّام ليبكي بين يدي الفقيه ويطلب منه المغفرة فيقبّل رأسه وهو معرض عنه لا يريد أن يرى وجهه وكان سليمان يبعث إليه بالجاه..

– قولوا له والله ما نزيد نعاودها....

ويأتيه الناس الكبار في الحي فيستحي الفقيه منهم ويقبل الجاه ويرده إلى البيت ويقول: في خاطر أبنائه الصغار وفي خاطر زوجته ولكن بشرط ما يزيد يعاودها.. لكنّه كان يعاودها في كلّ مرّة..عندما تضيق به نفسه وتصبح الحياة ظلمة في وجهه كما كان يقول .

يحب سليمان النساء كثيرا..يعرفهن واحدة واحدة. ومن لم ير وجهها فإنه يكتفي بالقوام. ومن سمع عنها فقط يشرع في تخيّلها عبر وجوه أبنائها إن هي متزوّجة أما إذا كانت عزباء يقول فأنظر إلى وجوه إخوتها وأروح أستحضرها كاملة عبر لعب الخيال الذي اجتهدت لسنوات في إتقانه. قال إن أباه حرمه من الزواج من جارته حسيبة التي طالما راقبها منذ طفولتها حتى تحوّلت بقدرة قادر إلى امرأة قاسية النظرة،حادة المزاج تجاهه لذا صار من طبعه أن يحملق في النساء مفتوح العينين مبهورا ..كل واحدة هي له..و صار خبيرا بهن من بعيد ..يحسن وصفهن ويعرفهن جميعا بل صار مهووسا بكل التفاصيل لا يغيب عنه شيء من الزيادة أو النقصان..فهذه نقصت شويّة وهذه زادت شويّة..و هذه شبعانة وهذه خاصها..وهذه خمرية والأخرى بيضاء وهذه زعرة ... طويلة..عريضة..قصيرة أكثر مما ينبغي وهذه غنية وتلك فقير وهذه جادة وهذه عَود..

كان كلّما رأى امرأة وقف لا يعرف ماذا يفعل..يموت في مكانه..ينتصب واقفا كأنّما يلتقي بهذا المخلوق لأول مرّة في حياته..إنّه واحد ممن لا يصدّقون حكاية يوسف والبجاوية هذه لأنّه لم ير البنت ولم يَزِنْ شيئا منها على طريقته.

ثم هاهو الجيلالي الرونكو يجلس وحده متكئا على الحائط قرب الكانون.مسندا ظهره إلى دفء الفرن رافعا وجهه، ينظر إلى السقف. وهو جالسا على بنك من الخشب. يلبس "البلومارساي" تحت الجلابة ويلتف حول نفسه صامتا.

يعمل الرونكو كيّاسا في الحمّام. ولا يعرف حرفة أخرى غير قراءة الجرائد بنهم. فهو يمضى كلّ الأوقات المتاحة له خارج الماء والرطوبة في قراءتها، فان لم يكن نصف عار أو متلفعا بفوطة فهو في مقهى الصهريج الكبير يقرأ. تعلم فك الخط في الجامع بالعبّاد وهو يشتغل بالحمام منذ سنين..قضى معظم حياته هناك. منذ خلق وهو فيه بجسمه القوي ووجهه البربري التقاسيم، الضخم الملامح، الحاد السبك العريض الصدغين، بعينين صغيرتين نشطتين. يبدو متلصّصا دائما وهو يجلس وحيدا بالمقهى يرمق الشجر مرّة والنساء مرّات ومرّات.

كان الرونكو يعرف عن الناس أشياء مذهلة. لو أنه تكلّم في أسرار الحمام لفضحهم جميعا. يعرف مثلا جميع اللواطيين من الشباب والشيوخ أصحاب الحرفة. يعرفهم ويتجنبهم هذه السنوات الأخيرة، لكنهم لا يزالون يطاردونه على الرغم من كبر سنه. صار يتعب هذه الأيّام. هدّته الرطوبة وجعلت حركته ثقيلة. وهو يشتكي من المفاصل دوما.لم يعد شابا كما كان .لم يعد فحلا. الأيام والحمام قضيا عليه.

عندما كان الجيلالي يكيّس أحدهم دون مقابل فذلك يعني أن هناك مقابلا في الغرف المظلمة التي يلفها البخار ولا تظهر فيها ملامح أجساد المستحمين جيدا. هناك أين تزدهر الظلمة والوساوس. لهذا يعرف الكيّاس الرجل من الشماتة ويفرّق بينهما. كل الأخبار عنده، هو المطلع على الأسرار، على الأجساد العارية، وعلى الخفايا..يتذكر بشكل عجيب أسماء وطبائع جميع من مرّوا تحت يديه..يستطيع أن يصفهم واحدا واحدا، منذ طفولتهم إلى كهولتهم. يعرفهم جيّدا حقّا، فقد شهد كيف تحوّل بعضهم إلى إطارات مهمّة في الدولة. وكيف تحول بعضهم إلى شرطة وآخرون إلى عسكر. وكيف تحزّب آخرون وأضحوا خطباء وأطلقوا لحاهم وراحوا يفتون في الناس وقصوا شواربهم وتدلت كروشهم ولبسوا القمصان والسراويل القصيرة وراحت تندّ منهم روائح غريبة، شاهد قواريرها الصغيرة

المذهبة المكتوبة بالعربية والفارسية تباع في أطراف "القيسارية" وعند الجامع الكبير في "دربة سيدي محمد الغماري" المؤدية إلى البلاص من فوق وإلى "الجوطية" من تحت.

إنّه الحمّام..يجمع كلّ الأصناف والأعمار وجميع أنواع البشر من الفقراء والأغنياء..من اللّصوص والإطارات..من الحكومة إلى اولائك الذين هم ضدّ الحكومة..الكلّ كان يدخل الحمّام ويتخرّج على يدي الجيلالي الرونكو. هو وحده من كان يعرف خباياهم وخبايا آبائهم وأجدادهم فلا أحد يتطاول عليه أو يجرؤ أن يرفع صوته في حضوره ممن يعرفهم حتى ولو كان حكومة. بل كانوا يمرّون به وهو جلس وحده في مكانه المعتاد، يتلمس الورق الناشف للجرائد، يستمتع بخشخشته الحبيبة، بعضهم يحيّيه وبعضهم يغمغم ويمرّ مسرعا. وكان الرونكو لا يرد السلام على أحد..لكنهم لا ينقطعون عن تحيته كلما رأوه..لا أحد يكلمه خارج الحمام لأنه لن يرد. ولأنّه لن يتحمّل نظرته الشهوانية إليه ولن يستطيع توقيف افتراسه له بعينيه. لم يكن أحد يعرف شكل صوته خارج الماء أبدا. بعيدا عن الرطوبة والحرارة والعرق.هو وحده من يميز الأصوات في الحمام ويعرف النيّات من خلال الوضعيات واللمسات داخل الغرف المظلمة لمملكته الرطبة.فهو هناك طوال النهار في الماء..يتوالد ويتكاثر حتى أنه يمكن أن تجده في جميع الحمامات صورة واحدة تتكرّر، لا تنقطع سلالته ولا تتبدل.

قالت الجماعة:

– آ سيدي الحمد لله اللّي عرفناك..يا السّي بنعمر. خبّرنا يرحم الوالدين بحقيقة ما جرى..تخلطت علينا الأمور منذ سنوات ..و ما فهمنا أي شيء...

قال بنعمر:

– كيف أقول الذي لا ينقال؟...

نطق سليمان وألحّ.

- احك برْك..يا صاحبي اللّيل طويل والغاز مقطوع من زمان. شهور وحنا بالحطب..احك لكي يحيى هذا الكانون كُمَّا زمان..حتى ينبعث من الموت هذا العام...الناس كلها رجعت لكوانينها بعدما أغلقتها بالإسمنت والآجر لسنوات.. لقد اختفت قارورات الغاز الحديدية لأنها صارت تستعمل قنابل..تُملأ بالمسامير الغليظة وتُفجرعلى الخلق...نرجوك يا السّي بنعمر أن تحكي لنا الحقيقة عن يوسف هذا..سمعنا بزّاف وما فهمنا شيء.

قال بنعمر بحدّة:

- أنتم قوم نجاسة وهذه الحكاية طاهرة..عفّوني منكم...

نظروا إليه وراحوا يتذمّرون..ثم سكتوا.عرفوا أنه وصل إلى حدّ من السكر لا يمكن فيه الحديث معه. هذا الرجل الضخم بجثته القويّ بيديه الغليظتين المشعرتين ووجهه الحاد التقاسيم المتغضن من الخمر والغضب لا يمكن قهره بسهولة وإجباره بأية وسيلة على التحدث عندما لا يريد..شعر الرونكو بذلك وهو ينظر في عينيه..قال لنفسه: "هذا الرجل لن يتضعضع حتى لو شرب نهرا كاملا من الروج"..

سكتوا جميعا وتركوه لشأنه لأنهم لا يريدون أن تتحوّل هذه القعدة المسروقة في غفلة من الموت إلى شجار يفضحهم هم الذين يتستّرون عن هذه الخطيئة..عن هذه السكرة في هذا الزمن الذي تطير فيه الأرواح..عادوا إلى نارهم وأكملوا الشرب.

دخل حسان الداودي في تلك اللحظات فهبّت ريح باردة وخربشت عيدان شجر التوت الميتة وجذوع البرقوق اليابسة التي اجتثت من بساتين "الحرْطون" .

حزّت الشطبات الباب بأصوات مكتومة ودخل حسان ووضع الحطب. وقف عند العتبة ثم نفض جلاّبته فتساقط منها شيء ما شبيه بالقطن على البلاط ثم سال. ونفض حذاءه بقوّة فذاب ذلك الشيء.. لمع بريقه فجأة وسرعان ما مات.

التفت إليهم جميعا وقال:

– يا الجماعة الحكاية ثلجت...و ما بقى خروج حتى الصباح....

قال حميدو الواسيني بعدما تيقن أنه لا يمكنهم الخروج في ذلك الوقت:

– ها قد بدأ الثلج يهطل..يا السّي بنعمر ..و ها قد حوصرنا ونحن لا نستطيع الآن العودة إلى بيوتنا في هذا الوقت المتأخّر من الليل. لا يمكن أن نتحرّك من هنا سكارى هكذا لأن الموت ينتظرنا بالخارج، في الطرقات الخالية الآن وفي الدروب المظلمة التي كسرت أضواؤها. وحدها كائنات الليل بقيت تجوس في الناس قتلا وتخويفا..أما كائنات النهار فمنسحبة إلى مشاغل الخبزة اللعينة.

هانحن هنا..فارغين من أي معنى.. ما معنا من الحكايات كمل وما عندنا ما نقول أمام النار. إننا نكل إليك القعدة.. نعطيك تفويضا بأرواحنا، تصرّف فيها كما تريد..أنت منّا وعلينا.. والدليل هو أنك هنا تسكر معنا. قال حسان إنك تعرف كل شيء عن يوسف هذا..و حضرت حكايته التي لا يمكن أن نصدّقها..من ذا يصدّق شيئا هذه الأيام..فنحن لا نصدّق أنفسنا عندما نستيقظ في الصباح..لا نعرف إن كنا أحياء حقا أو ميّتين..يقول الإمام لنا دائما أن أرواحنا تصعد إلى الملكوت الأعلى عندما ننام، تحوم حول المدينة وتجول في السماوات، تغادر أجسادنا..ونحن نبقى وحدنا على الأرض جثثا تقلبها الملائكة يمنة ويسرة..و نحن لا ندري.. تماما كما يقلبنا حكّامنا يمنة ويسرة منذ الاستقلال ونحن لا ندري..و لما أفقنا اليوم عند الصباح وجدنا الملائكة التي لا تخطيء قد صنعت لنا من أجداثنا كارثة لا نفهمها..نحن لا نصدّق أحدا اليوم فكيف تريدنا أن نصدّق أن بجاوية جاءت إلى تلمسان وجرى من أجلها كل ما الذي جرى....

قال بنعمر:

– أما أنا فأكره المنافقين الذين لا يستطيعون قول الحق..و أكره ما يقولون عن يوسف وبايه. ها هي مذاكراته عندي وهاهي رسائله. إنها الدليل على بعض الحقيقة. وليس عليها كلها لأن الحقيقة تولد دائما ناقصة، مثل طفل يولد ناقصا. إنها منقوصة دائما من شيء

ما ولا يمكنها أن تولد كاملة إلا في أذهان أصحابها الذين ابتدعوها..إني أسمع هذه الأيام أقاويل كثيرة عن يوسف فجئت ببعض ما بقي منه لكم. عمي حسان طلب مني أن أحضر معكم الليلة حتى أسمع بنفسي ما يحكى عن صديقي الذي اختفى من المدينة ولم يسمع عنه الناس أيّ خبر.

أنتم تتساءلون أين هو اليوم. أنا من يعرف. هذه الرسائل دليلي إلى مكانه. إني أحتفظ بها عندي ولن أسلمها لأيّ أحد مهما كان. لكن واجبات الصداقة – وأنا أول من يكره الواجبات – دفعتني إليكم..إلى هذا المكان..في هذا الليل..

لكن مهلا، انتظروا.. أعلمكم أني رجل متقلّب المزاج. ما على بالي حتى بواحد.. يمكنني في هذه اللحظة أن أترككم وأعود إلى بوذْغن في هذا الوقت وفي هذا الثلج. إذا ما نفحت لي..لست مثلكم أستتر وأخاف..لا يهمني شيء..ما عاد يهمّني شيء..اسألوا عمّي حسان..ما عاد هناك شيء أخاف عليه..ما عندي ما نخسر..

قالوا:

– ها قد عدنا إلى سيرة الخوف...

وسكتوا. ثم يئسوا منه.

قال حسان وفي صوته عمق وهدوء:

– يا بنعمر يا وليدي. ما تحشَمني أمامهم..هم أصدقائي أيضا..احك على خاطري..احك فالليل طويل..و قل ما بدا لك إننا نستمع لك..هيا الله يرضى عليك..

قال بنعمر:

– لن أحك. أنا لست مدّاحا في السوق..و لا أعلم كيف يحكي الناس.. بل سأقرأ عليكم ما هو مكتوب بخط يوسف فقط..لا أريد أن أروي ما يتجاوزني.. ما يحيرني..لا أملك الطاقة على التذكر..إني لا أجرأ حتى على ذلك.. أريدكم أن تسمعوا أنفسكم ما كتبه..وسأفتح هذه المحفظة وأقرأ لكم منها أية ورقة أصادفها..هذا هو شَرطي. لن أرتّب

كلمة واحدة. رتِّبوا الأحداث بأنفسكم كما تريدون..هذا هو الشرط وإلاّ خرجت وتركتكم..

قالوا عندما يئسوا منه:

– هات برك..هات..هذا الليل طويل.

البَلارِج[9]

أخذ بنعمر المحفظة الجلدية القديمة واخرج منها بعض الأوراق والرسائل. وبكل تأن وخشوع راح يرتّبها وقد اتخذ وجهه شكلا غريبا فيه جدية وهدوء الذي يريد أن يعلن أن شيئا فظيعا سيحدث. أخذ يتأنى في لمسها ويحاذر مثلما يحاذر رجل وهو يفتح أزرار قميص امرأة.. بالسكينة واللهفة ذاتهما وضعها على فخذيه..ثم أخذ أول ورقة وجدها. وقال:

– سأبدأ..سأقرأ لكم كيفما اتفق فلا تقاطعوني إذن...

ثم قال :

يقول يوسف ولد المهدي الخرّاز:

إنّي أتكوم هنا ، في فراشي منذ الساعات الأولى للفجر .أتغطى" بالبورابح" الصوفي الأبيض.. رائحة خيط النسيج جديدة لا تزال فيه ، والصوف لا يزال براقا، فأمّي ندفته وبعثت به إلى النسّاج قبل أن تموت. كانت تجتهد منذ صغرنا في أن تصنع لكل واحد منا

9 اللقلق بالدارجة

أغطيته الشتائية الخاصة. فهي تعرف أن هذه المدينة باردة. وتقول عنها : إنها الهالكة ..المهلكة. تلمسان اليوم صارت سوسنة للخوف التي تعرّش في القلب. وهذا الحنبل تحتي، على السرير الخشبي فوق المطرح لا يكفي.أشعر بالعزلة.وحيد ومعزول في

ظلماء كونية والوجود كله على شكل مغارة هائلة لا شمس تزورها منذ آماد. أعمدتها عالية تشدّها والصواعد والنوازل بحجم عمارات عظيمة تخرج من الأرض وتنزل من السماء. الظلمة حالكة في هذا الكون الخيمة بأحجار ومفاوز مقفرة. لا سماء إذن..هناك أصوات فقط في الغسق الأبدي الذي لا ينبلج، تتردّد في مفازة الروح.. أصداء لأناس يتخفّون بين الشعاب.. يصطلون عند النار التي تتقد بين أيديهم..تلوح من بعيد..نارُهم نورهم..فيتحلّقون حولها.. الأيدي والأرجل تحت عباءاتهم البيضاء التي تعبث بها الريح.. التي تحثوا عليهم رمال الصحراء الضاربة في السواد خلفهم.

وحدهم يتغنون في الشعاب..يردّدون لفظة واحدة..غريبة غير واضحة. يكرّرونها منذ أزمان سحيقة.ولا يفترون..يدوزنونها ويهتزون لها..

القوم في خلوة..في الامتداد الصعب للظلام الكاسح البعيد الغور.

و أنا المقرور هنا. ململمٌ في البورابح..يتسرّب إلي البرد من أصابع الرجلين ويصعد إلى الساق والركب ثم ينتشر في اللحم والعظم.

((..مبرودٌ أنا يا بابه..أين أنت يا نار هذا القلب فالمدينة صحراء من الألم وأنا مفازة كونية حالكة)).

لا بد أن الثلج في الخارج ينث بلا صوت في الهزيع الأخير من الليل.

((الثلج يتساقط على ما بقي فينا من الرماد...))

بعد قليل سأسمع آذان الفجر من الجامع القريب. وعليّ أن أبقى في مكاني لأن أبي سيقوم إلى كانونه حيث ترك البارحة دلو الماء الحديدي حتى يجده دافئا عند الصباح

كعادته. سيجرجر شيخوخته كما يجر الحصان الهرم عربة. ويسحب خطواته إلى بيت الماء. بعد أن يكون قد نكش النار وأضاف إليها بعض أعواد التوت، فتلتمع الجذوة ليولد يوم آخر حاملا معه كل الاحتمالات.

لن يناديني..أعرف..يعلم أني مستيقظ. ولن ينادي يحيى أخي ليرافقه إلى الجامع، لأنه يعلم أنه لم ينم إلاّ منذ قليل. ولم تهدأ سورة جنونه إلا بعد أن أعياه الصياح والصراخ والقفز هنا وهناك طوال النهار في المدينة المحروسة. كان من عادته أن ينادينا واحدا واحدا في الصغر كي نرافقه لنصلي الفجر معه بجامع سيدي بومدين. لكنه اليوم يتوضأ وحده وسيذهب إلى المسجد وحده.

أسمع الآن قرقرة "القْبيبة"[10] بين يديه وأسمع همهمته وأدعيته وصوت طش الماء على الذراعين الذين ارتخت عضلاتهما. لقد تحول هذا الرجل إلى لقلق..صار طائرا صموتا وخفض رأسه وازداد بياضا مع العمر هذا البلارج العجوز.

هاهو يلبس جلاّبتة ثم ينفضها. يتقدم إلى الباب..يحوقل ويفتحه لتهبّ منه الريح الباردة.لم أذهب معه إلى الجامع منذ زمن. منذ بدأت أصمت أنا أيضا. منذ بدأت أنسحب من انشغالاته. أي من ذلك اليوم الذي يئس فيه منيّ ..و يئست فيه من نفسي.

لست أدري ما الذي انكسر بيننا ولن ينجبر أبدا. لن يعاد سبكه أبدا..هناك كلام تيبّس بيننا في الحلق وعلاه الغبار ثم هاهو يهوي في بئر منسية فينا..لقد هوى في الداخل وغاب دون رجعة..إلى الأبد. إن ما انهدم تحتنا كان هاوية لم تردم جيدا منذ ولدت..و زادت اتساعا يوم ماتت أمي فجأة. كان قبلها بأسابيع قد صفعها أمامي دون خجل لسبب ما لست أعلمه. وكانت تبكي وقد انفكّت عصّابة رأسها ونفر منها شعرها منفوشا مصبوغا بالحناء.

---

[10] طاس للوضوء

لم أر في حياتي مثل تلك الدموع. نظرات مبلّلة لامرأة عجوز تبكي..كان هذا مؤلما وفضيعا ومقرفا..أعلم أنه كان يمارس حقّه في التسلط على زوجته. كل الشرائع تقول ذلك. كان يفعل ما يحلو له..و كنت أفعل ما يحلو لي ولم يكن يقبل.

بعدها بأسابيع ماتت أمي. ربّما قهرا أو صدفة من المرض الذي لازمها..لا أعلم. لكن موتها مرّ بيننا في صمت.. غمغمات وهمس. قليل من الكلمات الضرورية فقط من كائنين يعرفان بعضيهما جيدا. الكلمات التي تكفي للعيش يوما واحدا لا أكثر.

كان أبي ينظر إليّ بعينين صغيرتين فيهما أسئلة كثيرة.لم يدرك لماذا يقع هذا الانقلاب كله. وكنت لا أجرؤ على الإفصاح له عن كل ما كان يدور في ذهني، لأن البوح سيكون فضيعا ولن يفهمه..لن يستطيع أن يتحمّله...أو على الأقل سيجعل الدمامل تنفجر ويسيل قيحها الأصفر النتن الرائحة بلزوجته الخانقة ودمه الملوّث.

كان علينا إذن أن نحافظ على تلك القروح وأن لا نضغط عليها أكثر، أن لا نحكّها، أن نراعيها بالصمت على الرغم من تهيجها الدائم وعل الرغم من أنها تحك جلودنا لسنوات طويلة.كنا نحافظ عليها ونعتني بها كما ترعى امرأة طفل الخطيئة وتربيه وتعدّه للحرب أو الانتقام.

كان أبي يدرك أني رجل مختلف عنه منذ أن كنا بالقرية. عندما كان يعمل بالمزارع الحكومية قبل أن يعود إلى مهنة أبيه وأجداده في تلمسان. الخرّازة وصناعة البَلاغي.كان يعرف أني مسْتخوَل. وكان يخشى ذلك. يحيي وحده من يشبهه. أما أمينة وأنا فكنا نميل إلى أخوالنا في كل شيء.كنت بعيدا عنه دائما وكنت أعدّ أن هذا الذي يجرى بيني وبينه محض جنون..ذلك الصمت المديد الثقيل كان جنونا محضا تقول أمي:

- أنتما مخبولان. سنوات من السكات..الأب لا يكلّم ابنه..و الابن راكب راسه..هذا هو الهبال بعينه...

وعندما لا أردّ عليها وأسكت..كانت تنسحب كعادتها إلى صلواتها ومشاغلها البيتية..في ذلك الزمن كنت أقول

((هذا جنون قديمٌ يا أمّي منذ أن كانت هذه البلاد وكانت هذه المدينة إلى أن تنخرب يوما في زلزال أو حصار آخر يجوع فيه الناس فيأكلون أوراق الشجر ولحم القطط..و بعد أن يفرغوا من كل شيء سيلتهِم الأبُ ابنه ويتلذّذ بلحمه النيئ الدامي المرتجف الذي لا يزال حيا ودافئا برائحته الدسمة..وإن لم يكن ذلك فالأكيد أنه لابد أن يغدر أحدهما بالآخر كما في كل زمان....))

كنت أقول ذلك لنفسي وأحتفظ لها به لأن هؤلاء الآباء لن يستطيعوا فهم شيء مما يجري ولأنّ الأمهات أرهف من أن يسمعن هذا الكلام.

قالت بايه:

- هذه الحكاية قديمة..حكاية الأب وابنه مكرورة..معروفة وبديهية أحيانا..منذ أمازيغ "بني يَفْرَن" مرورا "بكُسيلة" إلى "أبي حمو موسى الزياني" ..إلى ثورتنا المباركة...

قلت:

- هي إذن في الجينات الوراثية.فمنذ أن خُلقت هذه البلاد وكان هؤلاء العبّاد والأب يلتهم ابنه بكل الأسماء وكل القوانين والشرائع..مرّة باسم الدّين ومرّة باسم التاريخ والشرعية الثورية..و حتى باسم الأسبقية في الوجود..عندما أوجد قبلك من حقّي أن ألغيك..لقد سبقتك وما عليك سوى أن تطيع وتسكت..من حقّي أن آكلك نيئا..وإن تململت أو رفضتَ لحِقتك اللّعنة..لحقتك دعوة الشّر..

تحدق بايه الآن فيّ مليا وهي تسوّي خصلات شعرها الذي يعود ليسقط على وجهها.

– حكايتك مع أبيك يا يوسف سجن.. وسينطبق عليك هذا السجن وستتعفّن فيه إن لم تتخلّص من هذه الأوهام...

– أيّة أوهام .قلتُ. هل الدّم الذي يزبد في البلاد وهم ؟.. إن كل الذي يجري أمامك اليوم..سببه الأب ..أنت تعرفين ذلك.

قالت بحدّة:

– وما دخلي أنا إن كان الأب صانعا لهذا الخراب كلّه.أنا هي أنا..و لا أسمح لأي أحد أن يصنعني كما يريد...

وسكتت..أدارت وجهها نحو النافذة القريبة.كانت تنفعل كلما انخرطتُ معها في مثل هذه المواضيع. إنها تعرف أننا إذا ما توغلنا أكثر في الحديث فإننا سندخل منطقة زلقة وعرة فيها الأحراش والأحكام الجاهزة. وتعرف أن الكلام مهما كان مهمّا فانه سيصبح جارحا عندما يتعرى أكثر. لذا تحاذر في أن لا تتكلم فيه عن نفسها. لا تريد أن تقول رأيها لأنها ستقول أفكارا ليست لها.لقد اعترفت لي بهذه المشكلة منذ التقينا أول مرة.كانت تقول إنها تريد أن تكون هي.و إنها لست صدى لأي أحد وكنتُ لا أزال لا أفهم ما الذي تقصده. ما الذي تريد..كانت لا تحب أن تتكلم في مكان الآخرين ولا تريد أن تستعير أفكارهم.. تقول إن المرأة الحقيقية فيها ليست هذه التي تقف أمامي إنّما هي أخرى جاءت من بعيد ولا تعلم إلى أين هي ذاهبة. وكنت أقول إنه لمن الصعب أن تقطع كل هذه المسافات وأن تنجو، إلى اليوم على الأقل، من كلّ الكوارث، لتجد أنك لا تعرف ماذا تريد.قالت: إن المرأة الحقيقية التي تكمن فيها والتي تحدس بها فقط ولا تعرفها لن تظهر. فهي لا تريد أن تقول ما تعلمته في الجامعة من أحكام.تقول إننا لم نتعلم سوى القدرة المرعبة على إصدار الأحكام ضد الذين يختلفون عنّا على الرغم أننا لم نحاول في يوم من الأيام الدخول معهم في علاقة إنسانية خالية من التموقع في الصوابية القاتلة. هذا ما يعذّبها.. وعندما لم تجد إلى اليوم حلاّ لهذه المعضلة فإنها قد قرّرت أن تصنع مصيرها بيدها.وأن تتعلم وحدها

كيف تتعرّف إلى البشر والأشياء حتى ولو كلّفها ذلك حياتها. كانت تقول أريد أن أدرك الأشياء بنفسي، أن أعرفها وحدي. لذا كانت فكرتها هذه عن الخلاص الفردي.. عن أناها الوحيدة المتعالية ملجأها الوحيد عندما تتعقّد المسائل وتصبح دامية وقابلة للانفجار. سكتت..و سكتّ أنا أيضا.وقلتُ :

((فلتغيِّر الموضوع يا يوسف ولا داعي لنبش القبور والأضرحة التي تنام فيك. اجلسْ هنا قبالتها وهنأ بهذا الحضور الرائع لجسدها القويّ المكين..))

كانت بايه بكنزة الصوف التي تصل إلى رقبتها في تناغم مع بياض بشرتها. وكان الصدر بوفرة عطاياه ينضغط بلدانة وانبعاج متربعا على عرش ذراعيها. لا خواتيم في اليدين والأظافر مقصوصة بعناية. التسريحة بسيطة عادية. ووجهها شفاف،و خال من أي ماكياج. لا تضع في أذنيها سوى قرطين بسيطين من الفضة.

عيناها غائبتان الآن. تنظران إلى أبعد من مداهما. ساهمتان في الغبش الذي تركته أنفاسها على زجاج النافذة

((ماذا تستشرفين يا امرأة الرؤى المستحيلة)) .قلتُ في نفسي

((وماذا تخبئين في روحك القلقة؟ هل أنا جزء حقيقيّ من هواجسك؟ أم أنك العابرة التي لن تترك لي غير المواجع ؟

لا أدري لماذا تصرّ بايه على إخفاء بهاء أنوثتها عنّي بهذا الشكل؟. ربما تريد أن تكون فحلة.. علّموك أن تكوني فحلة. علّموك أن لا تكوني أنثى بجميع هواجسها وخطاياها. علّموك كبح عنفوان الجسد الناهض بشراسته اللدنة الناهشة لكل ما يقف في طريقها. الشراسة المتجاسرة على أعراف المدن البليدة.

علموك كما علمونا جميعا، أن تكوني قاسية وأن تشيري بيديك قائلة دعني من هذا..إنّه مني..لكني أتعذب فيه..وها أنت في النهاية رزينة وحادة مثل سكين. قاطعة. ها أنت تُخفين عنّي ما فيك من البهاء..))

نظرت إليّ وصرّت شفتيها ثم أطرقت.وكانت كلما رفعت وجهها انهمر شعرها شلالا من الظلمة أو غابة من العطر. أشم فيه رائحة المواسم التي لم تحن بعد. وعبق الأصياف التي ضاعت في هدير هذا السخف الذي نعيش.

أشعر دائما أني سأفقدها إذا ما واصلتُ بهذا المزاج، هذه الجالسة قبالتي، الحاضرة بين يدي..الغائبة عني. الذاهبة ، الذاهلة ، هذه التي لا تريد أن تشركني في جميع مشاغلها ولا تحبذ أن أطل في الجهة الثانية منها.

قلت:

((ما جدوى هذا الحب إن لم تكوني كلك لي..لا أحب منك هذا الجزء..هذا الطرف..هذه الصورة المليئة بالغبش..هذا الانبهار أمام ما يذهب وينهار فينا. لا أريد هذا..بل كُوني لي كاملة..**فلقد أصبحتُ عبدك يا فضية القوام..ها قد أصبح قلبي ملتفا بغدائرك..يا سروية القدّ وفضية الصدر إنك تحملين عهدا أكيدا على رأسك وليس لي سواك أيتها الجميلة الطلعة.فكفّي عن الكلام بهذه الكيفية..إنني في لحظةٍ أتخلى عن كل شيء وألقي برأسي في أي معترك.لقد تحملت كل شيء من أجلك**...))

و أضفت:

((**إني أفضّل أن أكون معك في النار على أن أكون بدونك في الجنة**...[11]))

حضرني هذا الكلام فقلته لها وبيّنت لها مصدره وحكيت لها حكاية الشيخ صنعان. لكنّها ظلت صامتة..ساهمة...هادئة البال..في عمقها نوع من البرم..و من الحيرة الجديدة التي لم تدرك بعد أسرارها.كأنما لا تريد أن تستجيب لهذا النداء الذي يبقى بالنسبة لها غريبا عن طريقتها في إدراك العلاقات بين البشر.

---

[11] منطق الطير لفريد الدين العطار

سكتّ مرة أخرى. كنت أريد أن أنسى ما كان يبعدني عنها من يوم إلى يوم. وكانت تجتهد هي الأخرى في أن تفكر في موضوع آخر. حاولتُ الابتسام لشيء غامض خطر لي ونظرتُ من النافذة عندما كان الضبابُ من الجهة الثانية يلفّ كل شيء. شعرت لحظتها أنّي لا زلت لم أصل بعدُ إليها، لا زلت بعيدا وحيدا هناك وسطه والرؤية مستحيلةٌ في المرآة الداخلية لأن الغبش كان فيّ أنا.أعلم.كان فيّ.. الآن فقط أصبحتُ أدركه ذلك جيّدا.

كانت ندف الثلج تهطل في الشارع منذ الفجر، فقد غمر المدينة ضباب رصاصي منذ ساعاته الأولى وسكنت كل الأصوات. وتسرّب إلى المضاجع ذلك الهدوء الدافئ الذي يسبق النهارات البيضاء عادة.لم تكن هناك من سماء منذ أيّام وكان المطر..ثم ها الثلج أخيرا.

أصبحت الطرقات بليلة بالماء، المنزلق الذائب، وغابت الأرصفة وأُثقلت أشجار العمر بأكوام من البياض وصارت تَرمي الرؤوس والأكتاف بالكتل البيضاء. لهذا راح مشيُنا باردا جدّا أقول، فيه انزلاق وتردّد وخوف من السقوط. أُغلقت الحوانيت لأن الخروج قلّ وتوقفت السيارات وغدت المدينة ساكنة كالحقل. جميع الملامح انطفأت ولا يمكنك أن تمرّ عبر المحلات لترى وجهك لترى إن كنت لا تزال حيا..لا يمكنك التأكد من شيء لأن الضباب الذي تخلّل الانهمار الذي يزداد كثافة كلّما أمعنت فيه لتكشف السر. إنك تشعر بوحدتك تكبر وبعزلتك قصيّةً في غابة الصور والكوابيس.و ها أنت تريد من لقائك بها أن يلملمك في كلّ مرة، تريد منه أن يجمعك ويرممك لكن العبارات تخونك دائما..

قالت:

– مدينتُكم في الثلج خالية تماما..ربّما يفضل الناس البقاء في منازلهم بدلا من الخروج إلى المطاعم والمقاهي مع أن هذه الأجواء نادرة. لا تحدث في السنة كثيرا ويجب استغلالها والتمتّع بها...

ثم استدركت:

– لاحظت أن النساء هنا نادرات..قليلات في الشوارع..هذه مدينة أم لا ؟ أم أني مخطئة .

– قليلات صحيح في الشوارع..لكنّهن كثيرات في القيسارية[12]..حيث محلات الذهب والألبسة..مجتمع منافق..

سكتت بايه مرة أخرى. التفتت إلى النافذة. مدت يدها على الزجاج ومسحته وراحت تنظر إلى الشارع. فعرفت أني فشلت مرّة أخرى في النزول إلى حضورها..فهي لا تحب أن أتحدث بهذه الطريقة..أعلم..لكن ماذا أفعل هذا أنا.

قلت:

((يجب أن تتكلَّم في حضورها البهيّ الغامر هذا عن كل شيء ما عدا عن المراثي وهموم الوطن التي تنام فيك. أنت موبوء بما يجري صحيح، ولا يمكنك أن تتحدث عن شيء آخر. ولكن هي لا ذنب لها في كل ذلك إنّها تريد أن تنسى..لكني يا بايه لا زلتُ أحمل معي الهجرات السحيقة نحو الموت. إنها تسكن دمي..ولا زلت أفتح الأبواب التي كان عليها أن تبقى موصدة حتى لا تنطلق منها الأشباح..عليك أن لا تنسى قلتُ لنفسي أنك منذ التقيتَها وأنت تحاول بعث الكائن الميّت فيك من قبره لكي يتخلّص من فكرة أنه كائن جزائري مليء بالعثرات والهزائم. عليك أن تجتهد في نسيان أبيك عندما تكون معها. .))

قلت:

((سأحاول أن أرتاد تلك الحدائق المنسية التي تهب من شذا عرفها وحده..مع أن الحدائق تضيع فجأة. وأشرع ككل مرّة في رثاء المورسكيين الأوائل.أجدادي الذين كان

[12] سوق الذهب والكسوة النسائية في تلمسان

قطاع الطرق يتعرّضون لهم عندما هاجّروا من بلادهم.. أتذكر هؤلاء الحيارى الذين شُرّدوا وأُبيدوا عند سواحل الإخوة وقد اختلطت دماؤهم بمياه البحر..البحر مالح أيتها الأحبة والدّم مالح والوطن راح..ضاع..و لا أحد عند السواحل سوى النبال والرماح.))

كنت أتذكر أيضا القراصنة الأسبان الذين يبقرون بطونهم ويستخرجون أحشاءهم بحثا عن الزمرد والياقوت الذي يظنّون أنهم ابتلعوه..أتذكرهم وهم منهكون من هذا وذاك..يبحثون عن صورة الوطن في بعض المدن. لكن الإخوة كانوا يتلقونهم بالرماح في الصدور ليفتشوا في دمهم عن الثروة وكانت أيديهم تمتد إلى الصدور الأندلسية الناهضة، الوارفة البضة لتجتثّ النهد من أصله والنحر من فرعه فيشرُّ الدم عندما تُنتزع القلادة والنهد والجيد معا.

هاهم في الشعاب هائمون..جثثهم في الريح مرمية، لا يزال ملح البحر في عرفها ولا تزال عيونهم زرق من النظر إلى السماء البعيدة..يحملون شمس غرناطة في الأصص وشوقهم لا يزال مفتولا بالمجبود وفي الأغنيات وأواني النحاس و"القلفطانات"[13] الزرابي والبلاغي وعرائش العنب..ما كان في الجيوب يوم ذاك غير بعض بذور السوسان وما كان في الشفاه يوم ذاك سوى ترانيم ودندنات ..

(..جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس...لم يكن وصلك إلا حلما أو..)

كنت أقول لنفسي دوما إنه كان عليّ أن أتخلّص من هذا كلّه وأنساه. وعلي أن أخضل صدري بعبق نسرينها الذي جيء به من تلك الحدائق الصغيرة للغياب الكبير، مخبّأة في المعاطف والجيوب وما عليّ سوى أن أتنشّق عبير الأصص المعلقة في شرفات يديها حتى أصل.كان هذا وحده يكفي لكي أصل. قلتُ

[13] لباس تقليدي مطرز بخيوط الذهب

((عليك أن تنسى صليل السيوف يا دِينك. وأن تصمّ أذنيك عن هزيم المجانيق فوق أسوار المدينة المحاصرة...))

لكني لا أستطيع..

((عليك أن تهنأ إذن ببايه وحدها خارج كلّ هذه السياقات إذا ما أردتَ أن تبقى لك ..

هذا ما كنت أقوله لنفسي..لكن هيهات أن أهنأ بها وهي المنفلتة دائما. الشاردة في الأقاصي. الغائبة عن نفسها. تشهد الآن سقوط الثلج. منشغلة عنّي بالمدينة التي تكتشفها منذ شهور فقط.))

قالت فجأة بغضب :

- أنت مسكون بالتاريخ..تتنشَّق أبخرته وأدخنته وحدك..و هذه المدينة تلبسك كلعنة..و ما أبوك إلاّ حجتك الكاذبة..قميصك الملطّخ....

قالت هذا ثم عادت إلى الثلج.كانت قد لجأت إليه وصدّتني عنها وهاهي تستل خناجرها. قلتُ

((ألا تكفي كاهنة واحدة..يا بايه..لقد سال الدّم طويلا ولم نفترق. ألسنا في حاجة اليوم إلى تلك الهدأة التي تعقب العواصف والرعود والرّيح العاتية..أما يكفي هذا كلّه؟..أسكتي..أسكتي قليلا وفكّري معي في شيء آخر بدلاً من أن نكون اثنان في مواجهة السيل الجارف الذي يوشك أن يأخذ العالم بما فيه..و لأبقَ وحدي شاهدا وشهيدا..فلأبق مهزوما وحدي..مندحرا مثل صخرة في هاوية..

ساعديني يا بايه..خلصيني من لوثتي ومن لغتي..من كوني هكذا غير قادر على الحياة..و على الفرح.كوني لي الطائر الذي حط في يدي ثم نام..انسحبي من لغتك..من عشيرتك..من جينيالوجياك..حتى أنسحب من جينيالوجياي.إن كلانا من أبناء هذه

اللّحظة التي أنتجتنا..نحن لسنا أبناء أحد..نحن أبناء أنفسنا..منّا ولدنا اليوم فخلصيني من الأجداث التي تسكُنني...))

قالت:

- ماذا تريد؟.

قلت:

- أريد أن أتعرى من نفسي على يديك.

لا أعلم إن كنت قد قلت لها هذا الكلام أم أنني كنت أهذي به وحدي..أظنني لم أكن املك اللسان لأقول شيئا..ولا اعلم إن كنت حلمت بهذا اللقاء أم أنه وقع حقّا لأن بايه كانت تسكنني . أما الحقيقة الوحيدة التي أتذكرها هي أننا التقينا في ذلك المقهى أو المطعم..و أن الثلج كان يأتي من النافذة.

البجعة

قال يوسف

((ما اعلمه حقا هو أن بايه كانت طوال تلك الأيام الباردة تحاول أن تتآلف مع الثلج الذي بدا لها عجيبا..لقد كان بالنسبة لها اكتشافا طفوليا مذهلا. كانت تقول إنها هي ابنة السواحل شاهدته صحيح من بعيد على قمم جبال بجاية لكنها لم تكن تتصور أنها يمكن أن تتمشى تحت الهطول في يوم مثل هذا مبلّلة الشعر بالندف البيضاء.لم تكن تفكر أنه يأتي اليوم الذي تمد إليه يديها لتعابثه وتتلقاه من السماء كما نتلقى الهدايا.لم تكن تظن أنه يذوي في يديها الدافئتين ويغيب ويتخلّل اليدين إذ تلتقطه حرارتهما.

كان وجهها طريا مدهش التقاسيم. مسكوكا ببشرة رائعة التكوين وبعينين سوداوين واسعتين عميقتين. شفتها السفلى غليظة قليلا، ناعمة وعامرة. خطوط الفم واضحة فيها بعض الاستحالة بلونها الترابي أو الطيني الذي تشوبه الحمرة. والأنف البربري الساكن ناصع البياض فيه صبيانية وأنوثة.

رأيت ذلك عندما كانت تضحك. وهي ترميني بالثلج. متحرّرة من شيء ما. وقد تكلّلت قبعتها الصوفية السوداء بالبياض. صار تاجها الثلج. وصرت مأخوذا بها. أخذتها بين يدي. فتوقفت عن الرمي. ضممتها إلى صدري. أخذت البجعة من وسطها فصارت عيناها أكثر ألقا. كادت السجف الثلجية أن تخفينا والندف البيضاء تنهمر في سكون على المدينة وقد خفت الأصوات فيها.

كنت أتملى هذه المرأة الرافلة في السواد. هذه التي جاءت بها الصدفة أو جاء بها القدر إلى المدينة المحروسة. هذه التي تخلّفت عن الذهاب إلى مناطق أخرى..تكتشف الآن فقط بهاء الشتاء الذي تنأى عنه سلالاتها. ها أنت، قلتُ، أعمّدك الآن بماء سماء غامضة.

بعيدة، غير مرئية..أريد وأنا أمضي بك تحت الثلج، في الهطول أن تري يا ابنة السواحل أيّة نار يمكن أن تحرق اليدين.

تمشينا طويلا في الطرقات الخالية تقريبا من السيارات والمارة حتى تدفأنا. كنا سعيدين ولا نريد شيئا سوى أن لا يوقفنا أحد من معارفنا. فصار الوطن أبيض في تلك اللحظات. ناصعا. والمدينة فرحة بشكل سري.

أوصلتها ثم عدت صاعدا إلى العبّاد دافئا تحت قدمي الثلج..و لم أكن لأول مرة ومنذ الطفولة مقرورا أو أصطفك من الوحدة والبرد...))

شرع الجيلالي الرونكو يبتسم بينه وبين نفسه وبنعمر يلاحظه ولا يقول شيئا ثم سرعان ما غلبه الضحك.أمسك الكأس العامرة بالخمر بين أصابعه وراح ينظر بين قدميه ويغالب الابتسام.

قال بسخرية:

– والله هذه حكاية شابّة. الولد طايح لوف..مْكُولي[14] يا دينك..واش من كلام هذا..ثقافة يا جدّك. هذا الولد مثقّف.. هذا هو العشق ولا خلّيني ...

ثم انطلق يضحك بصخب. ودون توقف:

– أنت تتمسْخر بالسيّد. كُمَّا يبان..الرجل يقرأ من نيته كلام صاحبه وأنت تتمسْخر.. قل لي ..أنت تعرف تكتب حاجة كما هذه..تعرف تعيش حاجة كُمّا هذه..وَلاّ فيك غير الفم ... قال حميدو.

لكن الجيلالي كان يضحك وبنعمر ينظر إليه ويكاد يبتسم بعدما كان جادا فعلا. جعله الضحك يتأمل فجأة ولأول مرّة ما يقرأ. إنه يحاول أن يعرف ما الذي يجعل واحدا مثل

---

[14] غارق في الحب

الجيلالي ينطلق في هذا التعليق. ماذا رأى في هذا الكلام من السذاجة حتى راح يشخر من الضحك. وهاهو يتسرّب إلى الآخرين فيجعلهم يشعرون بنوع من الهزأ من هذه الحكاية بل راحوا يتململون ويتحركون على الرغم من سكرهم. لقد ذهب وقار هذه القعدة حتى أن سليمان ولد الفقيه راح يردّد ساخرا:

– البجعة..أمْ..البجعة..هاذيك اللي تطير في السماء..يا الله..لا بدّ أنها حَبّة..مَادَامَة ملحمة...مادامة[15] تطير..هَهْ..هَهْ..هِيهْ...و راح يهرهر كالجرو.

حسان وحده كان قد اتخذ من الجدار سكنا. ولم يستطع أن يحرّك شيئا من أعضائه لأنه غرق في الشرب. دورة الكأس تقف عنده لتبدأ من جديد. فهو صاحب البيت وحميدو هو الذي يُجري الشراب بينهم.

أتوا على سبعة قنينات من الروج منذ المغيب وبقيت عشرة. ليس سهلا أن ينهوها في الحال. لا يزال في الليل بقية. ولا يمكن الإسراع في الشرب. ولا يجب ذلك.

– علينا أن نبقى ساهرين يقول حسان. لا نملك غير ذلك لأننا شرعنا في شيء ويجب أن ننهيه..

كان البرد يتسرّب من تحت الباب على الرغم من بعض الدفء في الحيطان المجاورة للفرن الذي نضبت حرارته الآن. تفرّق الناس من عنده هذا المساء بعدما نفذ الخبز. وعند الفجر سيأتي الشباب لكي يوقظوه من غفوته الليلية.

كانت السخرية بادية على وجه الجيلالي. قال:

– أية حكاية هذه. هذا الولد يتحدث كالنساء. يقول أشياء غبية. لا نفهمها. لا تهمّنا. أنتم تحسبوا إنّي لا افهم. لا أعرف. أنا أقرأ الجرائد منذ سنوات. إنّ ما يرويه بنعمر في هذه الأوراق المبعثرة. يشبه تلك القصص التي أقرؤها في صفحات أحوال الناس. هذه

[15] عشيقة بالدراجة المفرنسة

صاحبها تركها وسافر إلى فرنسا وهذه خرقها جارها أو خالها..هذه مطلقة واقعة في الدعارة..هذا لا يستطيع التوقف عن الاستمناء..و زيد وزيد...

– هذا هو ..أنت لا تستطيع أن تفرق بين الأشياء التي عندها معنى وبين كلام المراهقين..كما نعرفُك..و هذه القصة..أنت سمعتها بَعدَه وحكمت عليها. دعنا نسمعها أولا ثم ابدأ في التجريح..خلّي الراجل يكمّلها ثم قل ما بدا لك...

– ما عندنا ما نزيدوا فيها عندما يقولها كاملة..خلّيه أريدها ناقصة..اكتمالها يعني أننا سنغادر..حينها ستكون قد انتهت ونكون نحن قد قمنا من هذا المكان وخرجنا إلى بيوتنا أو إلى قبورنا. ماذا سنقول في ما بعد عندما تنتهي وننتهي معها...

شعر بنعمر أنه غدا ثقيلا جدا، لا يستطيع أن يحرّك أي عضو من جسده وأن كل أرزاح الكون تجثم عليه الآن.كان عليه أن يبقى في بيته حتى لا يسمع هذا الكلام. لقد حضر هنا عبثا لأن ما يقوله مليء بالهلوسة التي لا معنى لها..

ما الذي جاء به إلى هذا المكان البعيد عن "بودْغن" القريب من ضريح سيدي بومدين. كان عليه أن يشق سيدي شاكر في طريقه إلى هنا. وأن يراقب موجسا الهضبة الحجرية العالية "للالا ستي"[16] ملفوفة في الضباب، منقطعة، وحيدة وعالية فيها رهبة ووحشة الأمكنة الغامضة المسكونة بالأشباح. إنّه حسان فلولاه ما جئت ؟.

كان عليك أن تبقى في بيتك مع جدّتك العمياء.قال لنفسه. وكان عليك أن تشرب وحدك في دارك كما تعودت. أما هنا فقد تورطت مع يوسف ومع بايه في تلمسان منذ العام الماضي. أيّامٌ لا تستطيع أن تقول عنها شيئا سوى ما تقوله هذه الأوراق التي بين يديك.و هؤلاء السكارى، ما الذي يجعلني أرغب في أن أشرح لهم ما كان عليه أن يبقى خفيا، خبئا لسنوات قادمة. أقول لنفسي أحيانا إنهم يجب أن يعرفوا..من حقّهم أن يعرفوا

[16] ضريح امراة صالحة يقال إنها ابنة سيدي عبد القادر الجيلاني

وأن يتسلوا قليلا حتى ولو كانت التسلية بجراحنا، لم لا؟..هم الذين يعيشون الحقيقة الدموية في أجسادهم..أليس من حقهم أن يحلموا حتى بالأشياء التافهة؟.

أدرك بنعمر أنه لا يعرف عن الناس إلا الشيء القليل.و لا يفهم لغتهم جيّدا. وقال إنه من حقّهم أن يقولوا ما يشاءون عن أمور لا يفهمونها كما يفهمها هو.

قال الجيلالي:

– أيًّا السّي بنعمر..كمّل..زيد..اقرأ..نحن نستمع لك لا نملك غير ذلك.. ليس لنا خيار آخر. هذه الحكاية أعجبتني..زيد أحك ...

وراح يضحك ثم توقف وحاول أن يكون جادا في سكره

– والله ما رابي نتمسخر أعجبتني..روح كمّل.. روح.

قال بنعمر:

– أتمنى أن لا أكره هذه الأوراق مثلك..يوسف صديقي..صحيح لكني لم أكن أفهمه في كل الأحيان.أراه مرة مثل ولي صالح ومرة كمثقف وأحيانا أقول بأنه جبان كامرأة على الرّغم من أني لم أشهد عليه أبدا ما يدل أنه امرأة.عاشرته طويلا وخبرته.كان رجلا دائما. عمره ما خرج منه العيب..

قال حسان:

– ربما كان يوسف هو يوسف وفقط.لا وليّا صالحا ولا امرأة ولا هم يحزنون..هو هو. يوسف كما أعرفه منذ طفولته..عايش مع الناس ولا يكلّمهم كثيرا.حاضر، غايب، غارق في العزلة.هايمْ..دائمْ في ما لا نعرف...

– هذا هو عمّي حسان. قال بنعمر. هذا هو..

– أوفْ أنت تقرأ المذكرات بطريقة عشوائية. كيف تريدنا أن نفهم .

– وهل تريد أن تفهم حقا. ما الذي تفهمه أنت اليوم مما يقع..ما معنى هذا كلّه..قل لي ..فهّمني إذا راك فاهم شيء...

قال حسان بحزم:

– نسمع أولا ثم نحكم..هيا..خلّونا إذن من الفهامة..تفضل يا السّي بنعمر.

قال يوسف:

((قمت متأخرا لأن اليوم عطلة نهاية الأسبوع فوجدت أخي يحي مكوّما على نفسه كعادته عند الكانون. يجلس بجسمه الصغير إلى النار، وقد لفّ ذراعيه حول ركبتيه مثل طائر منتوف الرّيش. ينظر إلى اللهب المتأجّج. مدهوشا به. مفتونا. عيناه مفتوحتان عن آخرهما. وهو يحدق في ألسنة النار الحمراء والصفراء والبيضاء. لا تكف شفتاه عن امتصاص شيء ما ضاع منه إلى الأبد. منذ زمن الطفولة ربّما. ثدي أمه أو حلوى سُرقت منه ولم ينل منها سوى مذاقها الذي يبدو انه لم ينسه قط، لأن صوت شفتيه وهما تنفرجان وتنغلقان، رتيب كصوت "المقانة"[17] المعلّقة على الحائط في صالة البيت.

يظل يحي هكذا أمام النار بالساعات. صامتا لا يتكلم. يخرج منه ذلك الصوت. يهتز جيئة وذهابا. يهدهد نفسه ويدوزنها على إيقاع تلك الدهشة الغريبة أمام النار. أعرف أنه لن يؤذي نفسه. لأنه كان يخشاها دوما. أذكر أننا كنا نمضي عطلتنا الصيفية في الصغر

[17] الساعة الحائطية بالدارجة

عند أخوالي بالقرية. كنا نوغل في حقول القمح والشعير المجزوزة، المحصودة في التوّ، لا يزال التبن فيها يابسا وأبيض حادا وساخنا، ينقصف تحت أرجلنا الصغيرة بنعال من كتان سوداء وبيضاء، أقدامنا دون جوارب تخدشنا قصبات التبن الجديدة فتحرق جلودنا.كنا نترك الجوارب في البيت حتى لا تتسخ بالتراب والعرق. وكان الصيف حار التربة تغور فيها الحقول. ليلا كلما مشينا عليها.كتل ليّنة مطواع ساخنة. وكانت الظهيرة وقتا مناسبا للهروب من القيلولة المفروضة علينا. نخترق الشوارع المتربة ونخرج إلى الحقول.

كنا نسمع هدير آلات الحصاد الضخمة كالوحوش الخرافية بأسنانها المهولة الدوارة القاضمة لكلّ شيء وعجلاتها الأمامية العالية جدا. لا يروّضها إلا الرجال الأقوياء الملثمون اتقاء للغبار. خرج الجميع للعمل ولم يبق في القرية غير النساء خامدات بأجسامهن الدسمة المنتفخة بالنعاس والعرق. الأجساد المتعبة الشبعانة المسترخية تنام على لحاف واحد بينها وبين الأرض.لأن الحرّ لا يطاق في مواسم الحصاد.

كنا نتصيّد لحم القديد المالح من على الأسلاك. لا يزال فيه ذلك السائل الأبيض لم يجف بعد تحت الشمس.كان نهبا لغاراتنا.و لم تكن الطماطم المشرحة المصفَّفة الممدّدة على القرميد لتنجو على الرغم أنها لم تجف بعد. لا تزال رطبة طرية نقضمها كالشفاه الندية. فيسيل منها ماء مالح صاف. نتلذّذ بملوحته الكامنة فيه..فتثير حواسنا كلّها..وتوقظ فيها شهوة شهر أغسطس.

كنا نسرق علب الكبريت من المطبخ. نأخذها معنا إلى الحقول لنشعل نيرانا صغيرة نتلهى بها. ونرى أيّنا أشجع في إيقادها وإطفائها بسرعة. ولأن الحقول واسعة والآلات الضخمة قد غادرت إلى الجهة الأخرى من الهضبة. نخرج خلفها قفزا باحثين عن أعشاش القبرات اللائي تطرن في بهاء العمر وتزقين بصوت عال في سماء مترعة بالضوء. لا نجرؤ على رفع وجوهنا إليها إلا إذا وضعنا أيدينا الندية من العرق على الجباه فتقرقع الأعواد في

العلب الصغيرة ذات الطائر الأصفر على غلافها الواقف على غصن مائل في نهايته حبتان من الكرز.

لم يبق في حوزتنا سوى عودا أو عودين.أما القبّرات فطرن عاليات وزقين مرعوبات منا وهن تحُمن فوقنا. لقد مرّ الحصّادون وحملوا معهم غلالهم تاركين أكوام التبن. ولم يلتفتوا للأعشاش وجئنا بعدهم وكشفنا القش عن تلك الأفراخ الملساء المغمضة الأعين. الصفراء المناقير.

أشعلتُ النار في القش فاحترقت العصافير.خاف يحيى لما أشعلت أول الأعشاش وراح يبكي ويزعق. لم أكن أدري ما الذي جعله يهب هكذا فجأة خائفا. لم يستطع إطفاء النار التي أوقدها..كان دوره. وأخذ يتراقص من الرعب وتغيّر وجهه. راحت النار تتسع والأفراخ تحترق.

تصاعد اللّهب حولنا يومها وهو يصيح ويحاول أن يخمدها برجليه الصغيرتين. وارتفع الدخان وملأ أعيننا بدموع الخوف من عقاب أبي ومن البكاء على الأفراخ التي تفحّمت.لم أستطع إطفاء النار..اتسعت بسرعة وفرّقت بيننا. كان يحيى يعوّل بقوة وهو يريد أن يقفز إلى جهتي.كان أخرقا لأنه لم يبتعد عنها ولم يفكر في أن يلتحق بي من الجهة الأخرى..لم يفعل هذا بل ظلّ في مكانه وراح ينتحب.

اشتعلت الحطبات في الكانون وقزقزت النار فيها وأخي لا يزال مشدوها بها إلى اليوم. يجلس هنا ولا يغادرها منذ أن أصيب بانهيار عصبي ذات خريف.

كانت عذابات الطفولة قد انقطعت وغاضت تلك الشرور الصغيرة التي ارتكبناها..كبرنا وصرنا عشاقا وأبكتنا نساء أحببناهن ولم أبك لأن الطيور الصغيرة احترقت بل لأن أبانا قيّدنا بالسلك الحديدي الذي تلفّ فيه بالات التبن.كان الحديد ساخنا وطريا ثم صار حارا حازا ومؤلما جدا.

أخذ أبي عودا غليظا من شجرة العنب التي تغطي الحوش وتتدلى منها العناقيد القوية البهيجة وضربنا بقسوة حتى تقصّف العود وغدت جلودنا موشومة منتفخة البقع، يسيل منها ذلك الماء الأبيض الصافي المحرق. كان الحقل كلّه قد احترق وخرج أهل القرية كلّهم ليطفئوا النار التي كنا السبب في إشعالها وكادت أن تأتي على الصابة كلّها.

هكذا كان..و هكذا كانت البلاد..و هكذا أنت يا يحي ..لا تزال تحاول إخماد ما لا يخمد إلا بموتك أو خراب العالم حولك. ألا زلت تريد أن تنقذ الأعشاش الصغيرة ؟ ألا زلت تريد أن تبعث من الرماد ذاتك التي تمزقت خرقا لا رتق لها.

إنك لا تستطيع..واضح انك لن تستطيع. فهذا هو جنونك محدّقا في السعير الذي يضطرم فيك..أي جمر ذلك الذي يرقد داخلك؟و أي جمر ذلك الذي تقلّب عليه روحك ؟و أية سماء تظلّلك الآن في وحدة لظاك؟

ماذا تهدهد يا فتى المجامير المتّقدة بعينين مسحورتين؟ عينيّ مجنون صامت، تخترق جسده هزات الينابيع البعيدة الغور. تلك التي لم يرها ولن يراها لأنه أحجم منذ الطفولة عن ارتكاب بعض الشرور الصغيرة التي لا بد منها كي لا نكبر هكذا راغبين في القتل.كان علينا أن نقتل بعض الكائنات الصغيرة في طفولتنا وأن نبدّد هذه الرغبة البشرية الكامنة فينا منذ قابيل وهابيل..علينا أن نسرّبها حتى لا نضطرّ إلى قتل البشر في ما بعد، عندما نكبر قليلا. قلتُ. علينا أن نعرف ما معنى أن نُظلم وما معنى أن نحاول الانتقام.

لكن أخي سرق مني الجنون.هذا ما أقوله دوما. فلماذا سرقته منّي يا أخي؟و قد كنت أريده لنفسي وحدي. كان جنوني الذي تواعدت معه منذ سنين حتى أخلص لكلّ تلك الأفكار التي كانت تسكنني. لماذا سرقته مني؟ وكنت أريده لي وحدي جنونا جميلا وليس تافها كالذي تعيش.أنا الذي سعيت إليه دائما.. لكن ها أنت قد أفسدته..أخذته منّي دون إنذار وحوّلته إلى غباء. إلى عبث كلّه..كان عليك يا أخي أن تخبرني حتى أتلقاه

عنك..وأفتح له صدري..لأنني ربّما أكون الأقدر عليه منك. وربما كان سيصحبني دونما ألم..دونما رعب...

هل كنت أجرأ مني في إعلانه؟ أم أنك تسرّعت؟

هل كنت أجرأ مني في اتخاذ الخطوة المناسبة التي نردّ بها على كلّ هذه الفظائع التي ترتكب في حق الوطن...إن الحرائق تلتهمك من داخلك..و أنت تحدّق ولا ترى .

أبعد فأبعد..هو ذلك السفر..الذي تورطت فيه وحدك.

وعندما أصبحنا رجلين كنت أقول لك لماّ نتشاجر على أداء الصلوات .

– إذا أردت أن تصلي صل ولا تسأل عني.أنا نسيج وحدي. أريد أصل إلى معرفة الأشياء وحدي. بطريقتي الخاصة. هذه التجربة الحميمة مع الله لا تتدخل في توجيهها من خلال أفكار أولائك البلهاء الذين استولوا على الجامع. لا أحد يفرض علي فهمي لنفسي وللعالم...و لم تكن لتفهم لأن هناك أمورا صميمة لا يمكن أن يفهمها غيرنا خاصة في التجربة الدينية. لم أكن أريد أن يتدخل أي كائن مهما كان في تجربتي الخاصة مع الحياة. حتى ولو كان أبي. خاصة أبي.كانت هذه أفكاري..قناعاتي التي أربّيها بالتجربة الفردية الخاصة عبر المعرفة وعبر القراءات. ولم أكن أحتاج إلى من يملي علي تجاربي. لا أحد يحدّد لي ما أقرأ. وفيما أفكر فيه. أفكر كما أريد وأتصرف كما أريد.كانت هذه رغبتي في تكوين حياتي الداخلية التي لن يشكلّها أي بهلول على كيفه في مكاني.

كنتَ لا تفهم..أو لا تريد أن تفهم..راسك غليظ.وكنتَ قد انغلقت على نفسك في قناعاتك أو في قناعات أصدقائك الجدد. علّموك بآرائهم أن تقصي الناس الذين يختلفون عنك.لا لشيء سوى أنهم مختلفين.

وكنتُ أمارس جنوني الخاص بي.وأقرأ ما أريد. أما أنت فقد انقلبتَ انقلابا كليّا..تركت فجأة أشرطة موسيقاك وأحرقت جميع صور المغنّين الذين كنت تحبّهم. وجميع الكتب

الأجنبية التي تخصّك من شعر ورواية وتاريخ.و صارت لك مراجع جديدة تخفيها عنّي.ولا تحب أن أناقشك فيها.لأنك لا تعرف كيف تقرأها. ورحت تعتزل في حجرتك ولا التخرج رأسك إلى العالم إلا كالخائف.لم تكن تحيى إلا ليلا ولم تحيي إلا به.أنت الذي كان يعشق النساء كأبيك.عائشة بنت عيدة وصفية بنت سلام وفطيمة بنت العيد.أنت الذي كان يشاكس ويعارك من أجلهن.كنت تلبس الجاكتات الجلدية الضيقة الخصر والأحذية العالية الكعب.و سراويل الجينز والفلور.و تضع العطور الغريبة الأسماء التي لم أسمع عنها ولم أشمها إلا عندك.

أنت الذي كان مزهوا ما فيه من الذكاء والشباب والفطنة والجرأة والمغامرة تنتهي إلى هذه العزلة.كنت تقرأ الشعر وتحفظه.كلّما كان في الجيب عشيقة.أنت من جعلني أطالع جويس ودستويفسكي وبروست.و الخيام وابن حزم وبن مسايب وبن سهلة..أنت من علّمني كيف أقرأ هؤلاء بالعربية والفرنسية..اللغة التي كنتَ تدرّسها. ها قد أصبحت لا تطيقها.لم أكن أفهم سر هذا الانقلاب كلّه. ما الذي كان يجري داخلك حتى تحولت إلى هذا الكائن الغريب؟.أنت الذي علمتني بعض الأشياء الرائعة.كيف انقلبت على حياتك فجأة وصارت كلّها عدوّة لك.؟ ما الذي غيّر فهمك للوجود بهذا الشكل القاسي. فجعل بشاشة حياتك تغيض في واد سحيق من الحقد على كلّ مظهر جميل من مظاهر الحياة؟ لماذا أصبحت تساكن الموت؟ .

في طفولتك ضبطك أبي مرّة وسط الحوش. بعدما خرجنا من المدرسة وقت القيلولة مع "بنت عيدة" في ذلك اليوم الحار كنت معها تحت ظل الرمانة تقبّلها وتبحث بيديك الصغيرتين عن النهدين الصغيرين الطالعين. أهديتَها الرمان وأعطتك القبل. حدّثني عن ذلك مرارا وأنت تضحك. لما كنا لا نزال صديقين. وأخبرتني كيف رجعتَ معها من المدرسة وقت الظهيرة وكان الحوش خاليا وأغريتها بحب الرمان لشقاوتك..و كيف ضبطك

أبي وكنت تحسبه قد غادر إلى الجامع..بتّ عند خالتي الزهرة ليلتين. وأذكر أنه عندما كان الجامع مفتوحا ليل نهار أنك كنت تهرب إليه عندما كان يغضب منك أبي لشقاوتك .

و عندما كبرت وصرت رجلا كنت تفضل قضاء العطلة عند أخوالي بالقرية، تسكر وسط الكروم التي تعمل في جني ثمرها أيام الصيف في النهار وبالليل تتسلل إلى المعصرة التي تركها الفرنسيون لتشرب من خمرها الأحمر القوي الحامض المذاق الذي لا يزال لم يتعتّق بعد.لم يكن من الممكن أن تعود دار جدّي سكرانا بل كنت تبيت في الخلاء وسط الحقول. الصيف أب المساكين كنت تقول وتضيف أب المطرودين. ثم تفخر بشجاعتك. أيامها كنت تعود إلى تلمسان ضاحكا فخورا وسعيدا بخطواتك الواثقة.

ما الذي جرى لك؟ لماذا صمتَّ أنت أيضا منذ أن ماتت أمي؟ لماذا صارت لياليك أرقا في أرق؟.

شرعت أول الأمر في التنحي عنا لتبكي خطايا لم تعد خطايا لأنها مضت مع الشباب. خطايا ارتكبناها ونسيناها لكنك كنت تصرّ على التذكير بها طوال الوقت.

كنت تزداد بعدا عنيّ كلّ يوم، منذ رحت تقرأ تلك الكتب الصفراء.و ها قد أصبحت بعدها تتعلّم كيف تكره. وأول من بدأت به كان سيدي بومدين.أنت الذي كبرت في فناء جامعه. وتوضأت أول ما صليت من ماء بئره.و تسلّقت طفلا رخام أعمدة ضريحه.وتشبثت بها ضاحكا تريد الوصول. مدهوشا بالزليج الأصفر والأزرق والأبيض. مدهوشا بالظلّ وبالرطوبة وبحرزة المرمر المحيطة بالبئر العتيقة وسطه.كنا نسمع فيها أصواتا قيل أنها هرج أولاد الجنّ يلعبون بالماء. وكنا نسمع قرقرة اصطكاك البكرة الحديدية الباردة وهي تشقشق بالسلسلة السوداء الصغيرة العروات تدور بسرعة عندما يغيب الدلو في الجوف المظلم الغائر في الأرض. وهاهو يرتطم بصفحة الماء. نسمع له صوتا كخبط الكف على لحم الفخذ أو الكفل. يمتلئ سريعا ويثقل في اليد. ثم نرفعه بجهد ونحن نلهج، نخشى أن نجد الجن الصغير جالسا فيه. نعرفه أو لا نعرفه لا يهمّ.كان ذلك خوفا لذيذ التوقع

يجعل الصدور تملأ بالزفير السريع. ثم نشرب الماء البارد وتندلق بطوننا منه وتقلقل.فننتعش ضاحكين.

كنا نمشي أنا وأنت حفاة على الرخام الأبيض البارد ونتهجى الحروف الأولى من رخامات شواهد القبور. اللاصقة بالحيطان. شواهد فقط ولا قبور.حروف نحب أن نفك غموضها من على واجهة الباب الجوفي للمسجد، بتعاشيقه الجبسية وحاشية قنطرته العظيمة على شكل حدوة الفرس، تلك الموشاة بالزخارف الفسيفسائية تعريشات وزهور بألوان أربعة بنية وبيضاء وخضراء وصفراء، تحيط بها حاشية أخرى بيضاء مكتوب عليها بخطوط أندلسية

((الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيّده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله به))

هكذا كنا نظل فاغرين أفواهنا، رؤوسنا معلقة إلى السماء، منكفئة إلى الخلف، ناظرين على الحروف العجيبة، حتى تتعب رقابنا.كنا ندوخ عندما ننظر إلى المئذنة المربّعة المسحوبة إلى فوق. في نهايتها جامور بتفافيحه الثلاث المكتنزة. ثم نصعد إلى بوابة الجامع بمصراعيها العظيمين المكسوين بالنحاس المخرم والمعشق بأشكال دقيقة وفي وسطه الحلقة الغريبة الضخمة التي تشبه القلادة. نتلمس ذلك المغلاق القوي البارد الداخل في الحلقات الرطبة اللاصقة بالمصراعين الثقيلين. وقبة الباب الجوفي العالية تشبه من الداخل تجمعا لأعشاش السنونو. كنتَ تقول إن السنونو أو القبرات تسكنها..لأنها كانت محفورة في الجبس بدقة وتلازم.

كنتَ يا يحي قد تهجيت حروفك الأولى هناك معي. عند الضريح. وها أنت الآن تكرهه. تعلّمت كيف تكره. منذ ماتت أمي تعلمت الحقد. ورحت تزداد شراسة يوما بعد يوم وتزداد فظاظة. أصبحت لا تأكل معنا لأننا غدونا كفارا بالنسبة لك. نتيجة أعرافك الجديدة. غدوت أنا أيضا كافرا لأنني لا أصلي معك بانتظام. ورحت تشتري طعامك

وتأكله وحدك في غرفتك التي صارت نتنة بالروائح الغريبة.أختي أمينة تقول لك إنها مقرفة لا تطاق لكنك فقدت حاسة الشم .تعطلت حواسك واحدة فواحدة ولم تعد تتذوق الطعام ولا تشم الرّوائح. لقد تحوّلت إلى كائن ليلي يجوس في المستنقعات بكليّته. تساكن الموتى وتطعَم طعامهم وتكلمهم طوال الليل.

كنتُ غبيا ولم أنتبه أنك أصبحت واحدا منهم. أنك أصبحت كائنا ليليا يعيث في نفسه خرابا.كنتَ تجلس وسط خراب ذاتك وأنا لا أعلم.لا أحد تفطن لك.

قال لي الأطباء فيما بعد أن أول علامات العصاب والسكيزوفرينيا هي اختلال عمل الحواس الخمس. لقد عرفتُ ذلك متأخرا. عندما انتهى كلّ شيء وانتهيت أنت إلى ذلك الجلوس الأبله على أطلالك.

فقدتْ أيامُك بهجتها وذوَت نهارا نهارا إلى أن جاء الوقت الذي أصبحت فيه أكثر شراسة مع أبيك إذ رحتَ تحمّله جميع مآسيك

– أنت الذي جئت بنا إلى هذا المكان..عند هؤلاء الكفرة..الوثنيين الذين يعبدون الأضرحة..تركوا التوجه إلى الله وأشركوا به عندما اتخذوا بينهم وبينه الوسطاء..يقول الله تعالى...

– أسكت ...

كان يسرع أبي في القول عندما يسمع منك هذا الكلام

–..بلّع فمّك قريتُم العمى اللّي يَعميكم..ما وجدتم سوى أسيادكم تتعداوْ عليهم..أنتم هم الخبثاء اللي جيتونا بدين جديد..لا تتوضأ هكذا..لا تلبس هكذا..لا تأكل من هذه..هذه حلال..هذه حرام كأنما حياتنا منذ جئنا للدنيا حرام في حرام..كأنما هؤلاء الصالحين كانوا غالطين..راهم في جهنّم هؤلاء كفار ما يعرفوا الدين حتى جيتوا تعلموه لنا..باينه عليكم في معاملتكم للناس ..باينه...

– يا أبي..أنا..

– أنتم قوم عليكم دعوة الشر..هذا هو...

كان كلام أبي جارحا في غالب الأحيان عندما ينخرط معه في مثل هذه المواضيع، قاسيا جدّا هو الذي لا يتكلم معه إلا قليلا.و كان يحيى مخطئا إذ يحاور شيخا غير متعلّم في هذه الأمور.

كان يحيى يحدّق في أبيه مليا. ولا يستطيع الكلام، يداه ترتجفان وقد غدتا مهدّدتين. وتغير لونه وصرّ أسنانه.كان ينوي أن يقوم بحماقة ما من الغضب.

و ما كان أبي ليعبأ به.كلامه يفرقع في وجهه ويحيى يغلي.يتفصّد عرقا تحت طاقيته البيضاء الجديدة.كان يرتجف في عباءته وحيدا كشجر التوت اليابس.يريد أن يشرح له كيف يكون الدعاء لله وماذا قال العلماء عن الأضرحة..لكنه كان قد تركه مستخفا به وخرج..بكى يحيى ليلتها من الغيظ لأنه عامله بتلك الطريقة. وما عاد يكلّمه.

كنت أرى الأمور قد أضحت ظلاما وأن ليالي البكاء والسهد والتهجد وقراءة القرآن في الأسحار قد كثرت وتعدّدت حتى غدت عادة في البيت.ثم كان هناك أصدقاء جدد في كل مرة .شباب من غير أبناء العبّاد يأتون إلى البيت بعباءاتهم ولحاهم لم أرهم من قبل.يبيتون عندنا لما يغيب أبي .يتهجّدون مع يحيى في غرفته ويستمعون إلى الخطب المسجلة.و ينخرطون في البكاء طوال الليل.كان شهيقهم المتقطع يصلني ممزوجا باللهفة والتأثر والألم الذي لم أكن أفهم سرّه.

كنت أريد أن اكلم أخي بجدية في هذه الأمور التي تحدث في البيت. عن أصدقاء الصدفة هؤلاء.لكني رأيت أن ذلك لن يجدي. فقد اتخذ منّي موقفا وراح يحاكمني منه. انتهت المسائل بالنسبة إليه وحسم في اختياراته. لقد صنّفني في خانة ما لا أدري ما هي. كما كان يفعل مع الآخرين الذين لا يروقونه.وضَعني في الأدراج التي تناسبه. أدراج مظلمة. مليئة بسوء التفاهم الكوني الذي ينجم عن مثل هذه المواقف.كان يضع الناس في أدراج ويغلق عليها ولا مجال للنقاش حول الأحكام التي كان يطلقها عليهم. وما عدت أخاه. اخترع

مقاييس جديدة للأخوة. أصبحت عدوا له. منذ رحتُ أنتقد أصحابه المقدّسين الذين لا يخطئون أبدا. منذ بيّنت له أن أفكارهم ولغة الترفع والإقصاء التي يمارسونها حتى ضدّ ذويهم لن تؤدي بهم إلاّ إلى الجنون الذي لا يرحم. لم يداخله شك في معارفه الجديدة. كان يعيش اليقين. ولم يتصوّر بأنه يمكن أن يكون مخطئا. لم يكن يفكر أن تكون معلوماته الدينية مغلوطة أو مشوهة..يشوهها الحقد والتعنت والسياسيون الذين لا تهمّهم سوى مصلحتهم.إلاّ أن المسألة كلها كانت مسألة" تَغْنانَتْ"[18] أما البقية فيذهبوا إلى الجحيم.لأن الحقيقة هي كما قال فرعون لا أريكم إلا ما أرى.

كان أخي يتخثّر ولم ألحظ ذلك إلا متأخّرا جدا. وها أنا أقول لنفسي بعد أن جنّ حقيقة أنه كان عليّ أن أحبه بدلا من أجادله.كان عليّ أن أحاول فهم تلك التحولات. وربما كان الحب والصداقة كفيلان بأن تجعلاني أتلاقى معه في أشياء كثيرة. كان من الممكن أن نتلاقى في مناطق كثيرة منها أخوة الدم..الدم مرة أخرى هو ما يجمع وما يفرق في هذا الوطن.

عندما حطّم كل الأسطوانات وأحرق كل الكتب كنت مغتاظا جدا وصرت أحقد عليه أنا أيضا في دخيلتي لأنه أصبح يسبّب لنا كل هذا الألم. وكنت أعود فأسأل من أين جاء هذا الانقلاب كله؟ ما الذي يجري في هذا البلد حتى يتحوّل أخي هذا العاشق أبدا إلى هذا الكائن الممسوخ؟

وهذا ما كان يجب أن أتجنّبه. كان عليّ أن لا اتّخذ منه موقفا. أن لا أظهر له

---

18 التعصب للرأي

العداء لأفكاره.بل كان عليّ أن أبقى جنبه وأن أحاول معرفة في أيّ وادٍ يتخبط وحده. لكني كنت مثله وحيدا وأعزلا. وكان البيت الذي يجمعنا خاليا فارغا..ماتت منذ فترة وأختي أمينة لا تأتي ألاّ أحيانا للتنظيف والترتيب ثم تعود إلى دارها.خالتي الزهرة كانت تبقى معي أحيانا عندما اطلب منها ذلك..لكن البيت الخالي من الأطفال ما كان ليروقها. فتبيت ليلة أو ليلتين ثم تغادر.

– هذه الدار قبر..البيت اللي ما فيه امرأة قبر.أبوك ما أراد أن يتزوّج وأنتما هاملين..أمينة مسكينة لا تستطيع أن تكون هنا وهناك..مستحيل ..أولادها بزّاف .

– ماذا نفعل يا خالتي..هذا هو الحال...

– الحالة هذه أنتم حابّينها..تزوّج أنت أو الفقيه أخوك...

قلت:

– يحيى كان حاب يتزوّج قبل مرضه من سعاد بنت عيدة الهجالة[19].و أبي رفض.وهدّده بالطرد من البيت إن فكّر في ذلك مرة أخرى.

– يا وليدي أخوك كان ثاني مخبول واليوم زاد أكثر وأكثر..البنت مازالت معلّقة ما هي هجّالة.ما هي مطلّقة وزيادة على ذلك عندها أولاد..كنت حاب أبوك يذبحه...

– أراد أن يفعل الخير في اليتامى..كان يقول أن الله أوصانا بهم خيرا...

– صحيح ما قال عيب..لكن زوجها في الجبل...ما عرفوه ميّت ولاّ حي..هو زعما قاري ..ما يفهمش هذه الأشياء ؟ ....

– يا خالتي..يحيى كان عايش في عالم آخر..و أصبح اليوم أسوأ مما كان عليه..إنه

---

19 الأرملة

لا يسمع كلام أحد ولن يسمع. إنه يحسب كل ردّ فعل ضد رغباته، أنه موجه ضدّه.حتى لو كان مخطئا في تأويله وحده. حتى لو اكتشف أنه مخطئ فإنه سيتعنَت.لقد اكتسب مقاييس أخرى لفهم الله والحياة والمرأة. يعيش في نوع من الجنون الذي يقصي كل ما عداه. فهو ينتمي إلى ناس لهم منطقهم الخاص.و ها هو هذا المنطق ينقلب عليهم. إذ يعمهون اليوم في الضلال الذي كانوا يتّهمون الناس به. دخلوا في نوع من

الهذيان الذي يشتدّ عندما يصمّ كل واحد أذنيه ويتشبث بالقناعات التي اختارها الناس له. إن من لم يختبر أفكاره بنفسه في هذه الحياة لن يعرف مدى صحّتها أبدا. فمن الفظيع أن نكتشف يوما أننا ضحينا بأشياء مهمة من أجل قناعات قد تتبدّى مع مرور الزمن أنها مغلوطة أو خاطئة أو حتى تافهة.

نحن يا خالتي في هذا الوطن نجرّب دوما أوهامنا على أشلائنا. على بساط من الدم والخراب. لا نفكر، لا نختبر الأشياء بالعقل ثم في الواقع. بل نتحمّس وفي الأخير نكتشف متأخّرين رعب المصائب التي ارتكبناها.ونقف على الدمار أخيرا ثم نشرع إما في التستّر عليه لسنوات قادمة وإما ننخرط في بكائيات لا تنتهي لحاضرنا الذي صنعناه بأيدينا.و الأفظع من ذلك أننا نأتي كأنّ شيئا لم يكن ونعتذر.نطلب الصفح بعدما شوهنا كل شيء. بع كل هذا الخراب. فأية الفضائل هذه التي أردنا أن نحققّها بنوايانا الطيّبة على بساط من الجثث؟.ولماذا لم نتريّث كبقية البشرلماذا لم نستفد من تجارب الآخرين؟..

إن أية فكرة مهما كانت ومن أية جهة كانت لا تستحق كل الدم الذي يسيل لأن حياة غالية.يجب أن نؤمن بهذا...آه يا خالتي يجب أن ندرك بأنه لا يمكن لأي شيء أن يكون أغلى من إنسانية الإنسان فنحن لا زلنا نجهل هذا الأمر....

كانت خالتي تستمع إلي مفتوحة العينين عن آخرهما. فاغرة الفم. غير قادرة على فهم هذا الكلام الذي كنت أقوله. لكنها كانت تستمع إلي باهتمام حيّرني. لم أشعر أنّي أمام امرأة لم

تدخل المدرسة قط. بل شعرت أن هذا الكلام وصل إلى أعماقها على الرغم من أني توقفت فجأة عندما فكرت بغباوة الموقف.

و رحت اضحك من نفسي. لكنّ خالتي ظلّت صامتة. في عينيها ذلك الذهول الذي ينساب معه القلب إلى لوعة ما.كانت تتألم. شعرت بذلك. ربما أيقظت فيها بعض المكامن، لأنها سكتت برهة وراحت تنظر إلى الأرض.

خالتي الزهرة بيضاء كعمود الثلج، قوية الجسم بلباسها الأبيض الناصع من العشعاشي الذي تحب لبسه على الرغم من قدمه. لا تزال متمسكة به. ولا تزال تحافظ على لبس الحايك الذي تلف به خصرها كلّما خرجت من بيتها. إنها تشبه آلهة فينيقية بنهديها العظيمين وقوّة كفليها وذراعيها. آه لو أني قلت لها إنها تشبه تماثيل الآلهة القديمة لظحكت من قلبها ولتعجّبت وحاولت معرفة شكل هذه الآلهة وقصتها. غريبة خالتي الزهرة بوجهها الذي يتصاعد إليه الدم من الجهد عند القيام أو من المشي طويلا، هذه المجاهدة العزيزة النفس ((تقولها في الوجه))..إن لم يعجبها شيء تقول إنه لم يعجبها فورا في وجه من لا يروقها.كانت بسبع رجال كما تقول عنها أمّي التي لم تكن تشبهها في شيء.فهي عكسها تماما. تقول عنها أنها فحلة..تفكر كمّا تريد، تفعل ما تريد إذا ما تصوّرت انه صحيح. قالت عنها إنها تزوّجت الرجل الذي أحبّت عنوة. كان يتهرّب منها بعدما وعدها بالزواج وبعدما عشقته وتلاقيا أيام الصيف الحارّة خارج القرية..في الأوقات التي كان فيها جدي يخرج من البيت للسهر مع أصحابه يلعبون لعبة السِّيق[20] في الطحطاحة[21].

كان العاشقان يتلاقيان وسط الكروم والدوالي بين أعراش العنب الناضجة مرات ومرات حتى انتشر الخبر بين الناس وافتضح أمرهما. فتربص بهما جدّي حتى ضبطها معه متلبسين. هرب العشيق أمّا العشيقة فأمسك بها أبوها من شعرها وجرجرها إلى البيت وأهل البلدة

---

[20] لعبة شعبية

[21] الساحة الشعبية العامة

متحلّقين حولهما ساكتين، لم يجرأ أحدهم على الكلام، كانوا يعرفون أن مصيرها هو القتل وكانوا يترقّبون أن يجري ذلك أمامهم. ولما دخل داره تفرّقوا وشرعوا ينتظرون الليل كله الطلقة الفاصلة التي تنهى حياتها. لكن جدّي ربطها إلى جذع التينة القديمة سبعة أيام وسبع ليالي كالبهيمة . كان يقول عنها أنها بهيمة هذه البنت ورأسها غليظ.

قالت أمي إنها ظلّت مربوطة تلك الأيام. لا تبكي ولا تئن ولا تتكلم وجهها مرفوع وشعرها الأسود الغزير محلول وثيابها ممزقة. كان في عينيها شراسة المهرة التي تريد أن تنطلق.وكان جدي يعاقبها كلّ يوم بالضرب على الأكتاف والظهر والوجه بضفائر مبللة مصنوعة من الحلفاء.

قالت أمي أنت لم تجرّب السوط على ظهرك ووجهك بضفائر الحلفاء المبللة. لم تكن خالتي تجرأ على الصراخ وكانت تتحمّل كالرجال ولم يكن أحد يجرأ على تخليصها أو حتى الاقتراب منها.لم يغفر لها أخوالي هذا العار وراحوا موقنين أن أباهم سيقتلها في الأخير.

أدركت الزهرة أن أباها سيذبحها لا محالة، شاهدت ذلك في عينيه..في انشغاله الدائم، وفي وقوفه الطويل أمامها ساكتا.كان يقف حاسر الرأس، في الظلمة وينظر إليها من هناك..يقف طويلا..ثم ينسحب..يتردّد صدى المشروع المرعب في نفسه ويريد بهذا الوقوف أن يقنعها بضرورته.

وذات ليلة فكّت الحبال بأسنانها حتى سال الدم من شفتيها لأن الحلفاء حادة وخرجت من البيت إلى الوادي لتبحث عن العشيق الهارب. تعرف أنه يحبُ القمار في الخلاء.و حملت معها منجلا حادا معقوفا على شكل هلال واقتحمت على القمارجية المكان وأخرجته من وسطهم عنوة وهدّدته بالقتل إن لم يأت معها إلى أبيها يطلبها للزواج منه. مضى العشيق أمامها خائفا على روحه إذ يعرف قدرتها على تنفيذ تهديدها.

لما وقفت الزهرة أمام أبيها مع الشاب الذي كان يرتجف من الخوف**.** غضب جدّي حتى سال الدم من منخريه.لم يكن قادرا على الصراخ في وجهها لأن ذلك كان دليل

ضعف. قالت أمي أن أباها قرّر فعلا في تلك اللحظة أن يقتلها.لولا أن ذلك الشاب توسّل إليه وبكى بين يديه وقبّل رجليه ورجاه أن يزوجها له في الحصاد القادم، عندما تكون "الصابة"[22] أحسن.

كاد جدّي أن يجش رأسه بالبندقية ويدفنه معها في الحوش عنده لولا أن والد الشاب وصل في اللحظة المناسبة. دخل عليه دون استئذان واسرع فأخذ منه السلاح وتوسل إليه أن يهدأ.كان الشيخ أبي بكر من الأشراف العلويين تقول أمي ولولا ذلك لقتله. رضخ جدّي لطلب صديقه لما لم يجد حلا آخر حتى ينقذ نفسه وينقذ البنت من هذه الورطة وأقرّ زواجهما مكرها وهو حانق عليهما.

كانت حكاية خالتي الزهرة هذه تبهرني كلّما سمعتها من أمي. وكلّما التقيت بصاحبتها أتذكرها وأبحث في تفاصيل وجهها السمين الأبيض المشوب بالحمرة عن تقاسيم تلك العاشقة الشرسة التي تغامر بلقاء من تحب في الكروم، كنت أتقصّى العاشقة التي أحبّت وكادت أن تحرق دارهم من أجل من تحب...

مات زوج الزهرة شهيدا أيام الثورة ولم يعرف قبره.لكن خالتي كانت تردّد دائما أنه لم يمت بل هرب كعادته إلى بلد آخر..كانت ترفض أن تصدّق موته وتقول إنها مجاهدة جابت حقها بذراعها أما هو فليذهب إلى جهنّم ذلك الجبان.

لا يزال يحيي متربصا بالنار.و لا يزال يتأرجح كما في هاوية لا قرار لها، تتدلى رجلاه من على صخرة مطلّة على واد سحيق مليء بالماغما.يجلس هناك يرى ولا يرى. لقد خطى اليوم عن نفسه خطوة لا يستطيع العودة بعدها وأغلقت خلفه كل الأبواب والنوافذ وبقي هناك خلف زجاج الغياب يصرخ وحده دون أن يسمعه أحد. لا أحد يمكنه أن ينتقل إلى جهته تلك ليرى ماذا يجري فيها. وهو أيضا لا يستطيع أن يتخطى جدار الدخان الذي

---

[22] موسم الحصاد

يفصلني عنه منذ الطفولة. لا بد أنه يسمع أصواتا تناديه وتتخفى خلف أقنعة فظيعة كثيرة، تتراقص في ظلمته الخاصة، منها وجه أمه التي يمد إليها يده، يتبع طيفها يسير خلفه في الهواء. يمضي الطيف، يطير عاليا لكنه لا يستطيع أن يلحق به بل يخوض وحده في المياه النتنة..يصيح بها أن تنتظره..يتوسّل إليها أن تأخذه معها..لكنها ذاهبة..يستجديها..لكنها ذاهبة تمرّ به ولا تلتفت إليه..باكية أو ضاحكة لا أدري..ومن ذا يدري ؟

قلتُ: ((..آه..ما أقسى وحدتك يا أخي قدام نارك يا فتى المجامير المتقدة ..آه..ما أضيعها من خطوة خطوتها خارج نفسك..ففي الريح خطانا إذن وفيها نباح سلالات الزيف التي تقرقع بسلاسل الحديد ..و على وجهها بريق الخديعة..و هزأ الأوامر والنواهي والشرائع الخرقاء التي لم نخترها ..

آه..ما أضيعها من خطوة خطوناها خارج أنفسنا.))

الأحوال مواهب

يحدث في كثير من الأحيان أن يورّطَ الرجل صديقه وهو يحاول الدفاع عنه، خاصة إذا كان متحمسا مثل بنعمر. هذا ما كان يقع في القعدة التي عقدت للشرب في بيت عمّي الداودي الفرّان. كان حسان ساعي بريد في يوم من الأيّام. في الزمن الذي كان فيه السعاة سعاة حقّا. لما لم يكن بالعبّاد شباب مثقفون. يقرؤون الجرائد والكتب. في الزمن الذي لم يكن فيه أصحاب لحى وقمصان ولم يكن فيه حتى شرطة. لأن الناس هنا قريبون وبعيدون عن تلمسان في الآن ذاته. إنهم في حالة وسطية قرب الغابة. بين البداوة والحضارة .يشرفون على وادي الصفصيف المتخم بالحدائق والبساتين.

يعرف حسان جميع أهل المنطقة. بيتا بيتا ودربا دربا . كان رجلا صامتا كتوما، لا يحب الخوض في شيء مع الناس..نوع من الكسل أو التعب جاءه من مهنته. ونوع من الغيبوبة أيضا، فهو ساه دائما كأنما يستذكر كل رسائل الغرام التي كان تلصّص عليها.

عاد حسان إلى مهنة أبيه لما مات وترك له الفرن القديم الذي لا يزال يشتغل بالحطب فراح يلازمه لا يخرج منه إلا لقضاء حاجته وراحت رائحة الخبز تصحبه أينما ذهب. كان يحب لبس "البلومارساي"[23] ولا يضع على جلده في الفرن سوى قميصه الأبيض الناصع. لم يكن ينزع عنه أبدا طاقية الصوف المزركشة حتى صارت علامة دالة عليه. لم تعد ذراعا حسان قويّتين مثلما كانتا في الماضي ولم يعد يتفاخر بصدره الأشعر العريض لأن الشيب قد جعله أشبه بمكان قصي يُرمى فيه الخشخاش اليابس المبيض من الشمس.

[23] لباس البحارة الأزرق

رأى حسان دائما أن بنعمر صديق يوسف ولد المهدي الخرّاز هو من يستطيع أن يروي الوقائع التي حيّرت مدينة بكاملها، لكنه لم يفهم لماذا قرّر أن يقرأ لهم هذه المذكرات التي لم تكن لتوضّح شيئا..و هاهو يراه يتخبّط في حكاية لا يعرف أوّلها من آخرها .واضح أنه لا يستطيع أن يمسك بخيط واحد متين يؤدي إلى فكّ ألغازها.

ترك الأمور تجري على حالها الذي اختارته لها الأقدار وقال لنفسه

((عليه أن يتدبر أمره..أنا خاطيني ..أنا نفسي ما فاهم فيها والو...))

قال بنعمر:

((يبدو أن حكاية يوسف وبابه قد صارت على كل لسان وأنها انتشرت في كل مكان. في "البْلاص" أمام الجامع الكبير، وعند كشك الحاج عَدُّو، وتحت شجر البلاطان العالي المجزوز في الشتاء أين يجلس الشيوخ يتلمّسون بعض الدفء منتظرين خروج الشمس من حين لحين.

إن الناس يتقاذفون الحكاية مثلما يتقاذفون كرات الثلج لكنهم يضعون فيها الحجارة أو أشياء أخرى حادة. والأمر نفسه كان يجري في ساحة الجوطية تحت شجر "البلاطان" الضخم، لما نخرج مباشرة من دربة سيدي أبي الحسن الغماري نزولا من "البلاص" مرورا بالجامع الكبير تحت، أين يباع كل شيء ذي أهمية ومن غير أهمية، من سراويل الجينز الخردةو المعاطف العسكرية الشتوية الكبيرة بعرواتها العريضة ذات الياقات المثلثة الحادة. وساعات اليد المكسورة والجديدة الرخيصة والحدادات المستعملة والمنبهات الكبيرة المغبشة ذات الأرقام اللاتينية. والأحذية العسكرية التي يحتاجها الناس في هذه الأيام الموحلة ونظارات "اللوزنج" و"الرّايبن" المغشوشة والكتب المدرسية التالفة التي عفّ عنها الزمن ولم يعد ينتبه إليها أحد.

وحدها "الغراموفونات" المربّعة الشكل التي لا تشتغل سوى بالبطاريات قابعة هناك تنتظر من يشتريها بأسطواناتها المحشوّة في جيوب من الكرتون بألوان صفراء وحمراء ..بعضها مكتوب بالخط عربي مغربي سيء ذي اللهجة العامية.

((الشيخة تِيطْمة..بَلمُّو..الشيخ بن زرقة..الشيخة الرِّميتي... وأسماء قديمة فيها خليط من أندلسي وبدوي ..))

يتماوج الناس هنا ويتكدّسون على بعضهم بعضا طلبا للدفء ويقفون جنبا لجنب كلٌّ يحمل سلعته في يده..يعرضها للناس وهو يحدّث إلى صاحبه..البرد قاس هذه الأيّام لذا يتهامس الباعة فقط ويتحرّكون في أماكنهم ويلتصقون ببعضهم حتى لا يتجمّدون. تأتيهم روائح "الحامي"[24] من الحوانيت الصغيرة حولهم فتجعلهم يجوعون بسرعة.و تتشمّم أنوفهم رائحة " السْفَنْجْ" المقلي و"الكفتة" من الدربة الضيقة التي يصطفّ فيها الاسكافيون بأدواتهم العجيبة ومساميرهم الدقيقة ذات البريق الخفيف المبلول برذاذ الصباح وهم يضعون مطارقهم في حجورهم على "الطابليات" الجلدية وينظرون بعيون مدربة إلى أحذية المارّة ليتأكدّوا من سلامتها وسلامة المشية في مهب الوطن الذي تأكله الرطوبة بأعين الأبدية ذات الأحذية المبلولة.

كان هؤلاء جميعا منخرطين في حياتهم، بالطريقة التي يرونها مناسبة ويحاولون أن يتحمّلوا. يعرضون سلعهم البالية أو الجديدة، المسروقة أو المنتزعة من البيت لأنهم عاطلون عن العمل منذ زمن ولا يجدون ما يأكلونه .

في هذا المكان كانت تتجمّع الأخبار أيضا. وكان الباعة يعلقون عليها ويفحصون مدى صحتها. وهنا قيل إن البنت التي وجدت مقتولة على بعد أمتار من "الكوميسارية"، في ذلك اليوم الذي أمطرت فيه السماء حتى أخرجت الأرض كلّ أوحالها، لم تكن بايه

24 أكلة شعبية رخيصة

البجاوية، إنما كانت ليلى صديقتها. وأما "المونطو الفلانير" وقبّعة الصوف السوداء وقرط الفضة فكانت كلّها ملك بايه صحيح، لكنّنا نعلم أن البنات تتبادلن الألبسة والحليّ فيما بينهن. وقيل أن ليلى بنت "علي قاضي" كانت تغار من صديقتها وتنافسها وتحسدها لأنها كانت جميلة بيضاء وشعرها أسود مخبّل، السرّ في بهائه هو أنها كانت تحافظ على عادة الأجداد إذ تضع كل مساء زيت الزيتون في شعرها بعد أن تخلطه بماء الورد، فيصبح لامعا، مشعا، باهرا وقاتلا.

قالوا أيضا إن الناس، من "رياض الحمّار"[25] أين تسكن مع أخيها موسى بن بوستة إلى باستور كانوا كلّما لاح لهم ذلك الشعر المغناج يسكتون ويبهتون. فيترك الخضّار خضاره ويلتفت ويخرج الحلاق من حانوته ويترك رأس زبونه لا يزال مبلولا بالماء ويقف أمام الباب ليتفرج. أما بائع "الحامي" فيسرع بعربته ويترك الزبائن المتحلّقين حوله ولا يسألهم عن الثمن بل يتبعها ليتملّى.أما المسنّون أصحاب البدلات المكوية والطرابيش الحمراء، مع ذوي العمائم البيضاء والذهبية وحتى أولئك الذين يضعون على رؤوسهم القبعات العالية المنسوجة من "الدوم" بألوانها السوداء والصفراء والحمراء. حتى هؤلاء كانوا يلتفتون إلى بعضهم بعضا حين تمرّ بايه أمامهم ويتغامزون ويبتسمون وهم يتذكّرون مغامراتهم مع النساء والخيل وشرب الراح. ويشيرون بعصيهم إلى البنت ويقولون:

((هذا هو زين زمان..لما كانت النساء نساء))

ثم يستدركون ضاحكين..

((حتى اليوم ما عندك ما تقول..كايِنْ الزّين..كاينْ))

ويتبعونها بأعين متعبة، يشيّعونها حتى تغيب عند المنعطف ويعودون بعد ذلك إلى ركبهم يتحسّسونها ويتأسّفون على ما مضى من زمنهم.

---

[25] حي قديم

قال الباعة إن جميع الناس كانوا مبهورين بهذه البنت التي قلبت المدينة بأحيائها ودروبها رأسا على عقب..بهذه التي حسدتها النساء وأغلقت النوافذ والأبواب في وجهها حانقات.أما الرجال في تلمسان فكانوا يحسدون ذلك المحظوظ الذي يسكن قلب هذه البنت. ويقولون

((مَنْ لا يعشق هيفاء أمْنَاشْ ريحو عْصيف

ومن لا يخطف خطفة ولا رْوَى بكاس الجَفا

يعذرني بالشُوفا أنصير فاني رْهيف.))

لقد أصبح الممحونون بها كثيرون و"ضمانة" بائع الخمر واحد منهم. إذ يكفي أن تذكر اسم البنت عنده حتى ينشرح على الرّغم من أنه لم يُرى مبتسما في باقي الأيّام ولا يغادر حانوته إلا آخر الليل.. لقد سكنته البنت حتى أنه قرّر أن يعلّق على حانوته لافتة مكتوب عليها (chez Baya)[26].

ضمّانة هذا رجل بدين وقصير بشعر غزير يحلقه دوما. تتدلى من رقبته الغليظة سلسلة ذهب بحلقات كبيرة تنتهي برأس نفرتيتي ملكة الجمال الفرعونية.لا يغادر الحانوت أبدا ولم يره أحد في حياته خارجا في النهار يتجول في المدينة أو في أي مكان آخر. لم ير أحد رجليه. ولم تره الشمس أبدا. لكن حاله تغير منذ مدّة. منذ أن سمع ببايه. لقد أضحى مأخوذا بها وهو لم يرها، بل حدثه النّاس عنها فقط. ولما لامه أصحابه على عشقه لها دون أن يراها وأكثروا قرّر أن يخرج ليعاينها بنفسه لكنه خاف وأحجم. ومع ذلك صار لا يكل عن تتبّع أخبارها والسؤال عنها. وحدث في بعض الأيّام أنه كان يكفي أن يذكر أحد اسمها أمامه حتى ينخرط في البكاء ..يتوقف عن لف قنينات الروج في الجرائد ويشرع في

[26] عند بايه

الشهيق وهو يهتز بشحمه كلّه فتسري فيه الرّعدة واقفا في مكانه..ثم يمسح الدمع بكفيه السمينين. ولما يسأله أصدقاؤه:

–كيف تعشق امرأة لم ترها..أخرج آ سيدي وشوفها ثمة نحسنوا عونك.

وكان يقول:

– لو كان نشوفها نتوب..أنا ما باغي نتوب ..نعشق من بعيد خير لي .

ثم يضحك ضحكته النادرة ويداه تعملان لفا للقناني برهافة ودربة وهو يدندن

((نعشق وعشقي معذب ورايي قليل الدبارة

خايف نموت من الحب ويمشي "حانوتي" خسارة)).

و كانوا يضحكون منه ويحسنون عونه .و يقولون

((هذا كلّه من سحر البجاوية.))

قال بنعمر:

– إنّي أحمل هذه المذكرات معي أينما ذهبت كلعنة أو تعويذة .

قال حسان الداودي:

– يا السّي بنعمر..تكلمت عن يوسف وعن أخيه لكنّنا لا نعرف إلى حدّ الآن كيف وصلت البجاوية إلى تلمسان؟و ماذا كانت تفعل هنا؟ ولماذا أتُّهم بها ؟.

– قلت لكم إن هذه الحكاية طاهرة لا تصلح لمثل هذه المجالس...

قالوا:

– أيا بَرْكاك من هذا الكلام..بزّاف. في كلّ مرة تسبّنا ونحن نتحمل..بزاف..ما نسمعوش آسيدي هذه الحكاية ..ما يخصناش منها. وسكتوا.

قال حسان:

– خليك من هذا الكلام يا صاحبي واحك..خلّي هذه الليلة تمر على خير.

قال بنعمر مستسلما وقد ثقل جسده كلّه من السكر والبرد:

– أما السبب يا السّي حسان في لقاء يوسف بن بايه فهو سيدي بومدين[27].

قالوا:

–كيف ؟.

قال وهو يقلّب في الأوراق:

((كيف؟ تقولون كيف؟..اصبروا يا الجماعة..سأقول لكم ..لقد تعبت من هذه الفوضى..فهذه الحكاية أصبحت تتمنّع مني كالعذراء ليلة الدخلة ولا حيلة لي معها.

لقد صارت لها أسوار من التراب عالية متينة،و مدكوكة. وصار لها حرّاس بالرماح والنبال يتربصون بالداخلين إليها ليل نهار. فأما من تجرأ وسوّلت له نفسه أن يقتحمها في غفلة من أصحابها فيكون قد غامر بروحه لأن مصيره الحتمي هو الموت أو الجنون تماما مثلما جن يحيى أخو يوسف ذات خريف..

تقولون كيف؟ سأقول لكم إنه قد صار لهذه الحكاية أبواب أيضا غير معروفة العدد..يقال إن أبواب مدينتنا المحروسة كانت أربعة وعشرين في سالف الأزمان..أي بعدد ساعات النهار..أما اليوم فلم يبق منها سوى سبعة..أما هذه الحكاية فعدّد مداخلها غير معروف..و لأنها هكذا فانه على كل مغامر أن يحاذر من أن يقع على باب اللعنة. عندها لن يعود إلى بلاده سالما، إذ أن من دخل المدينة في زمن الحصار والقتل، في زمن الجوع والهم فانه سيضيع في حواريها حتما مثلما يضيع رجل عاشق في متاهة لا مخرج منها إلا ميتا..المتاهة عميقة ملتوية، رطبة،مظلمة، مقشرة الحيطان، مسدودة المخارج عند نهايتها ينتظره رجل طاعن في الحزن، وجهه أسود من التعب، بيده سطل مليء بالدم..و سيرغمه على أن يشرب منه..و عندها سيستسلم..عندها لن يستطيع له دفعا لأنه سيظن أنه لا بأس من أن يشرب من دمه لأنه لن يضره، فيعبّه كما يعبّ الخمر. وسيتحوّل من رجل دامٍ

27 قطب المتصوفة المشهور مدفون بالعباد بتلمسان توفي سنة 594هـ

في خطوته، باك في لوعته، قلبه خواء، ثقبٌ سيصير ذلك القلب، تعول الرّيح الشتوية الباردة فيه. وما من درب سيسلكه بعدها إلا وجده هكذا مسدودا لا يؤدي وفي آخره ما هو فظيع .))

قال بنعمر:

– هذه الحكاية كانت بين يدي وانفلتت، سقطت في التراب كقطعة حلوى في التراب واتسخت وأنا أحاول الآن أن أنظفها من التراب..أحاول أن أرتبها لكنها تتملّص وتنفلت..سأحاول معها. سأقرأ ما تيسّر منها، من أوراقها المبعثرة. لا يعرف معظم النّاس ما جرى،أما أنا فعشتها مع يوسف يوما بيوم وساعة بساعة..كذب كلّهم وزادوا وبالغوا ..لكنه بريء ..أشهد أنه بريء...

قالت الجماعة:

– خلينا من المقدمات وادخل في الموضوع..هات برك..هات..احك الليل طويل..خبّرنا كيف كان سيدي بومدين سببا في لقائهما.

قال بنعمر:

– اسمعوا إذن..

قال يوسف:

((كنت جالسا في قاعة المحاضرات الصغيرة بمعهد اللغات لما كان لا يزال مقرّه بدير الراهبات في حيّ باستور.كان ذلك عصر يوم خريفي من أيام تلمسان الشائقة. كنت وحدي في آخر القاعة أستمع إلى محاضرة الأستاذ سعيد قادري عن الحب في شعر أبي مدين شعيب الاشبيلي. كان ذلك المحاضر نحيفا جدا. متعبا في جلاّبة من الوبر التي بدت فضفاضة وأكبر منه قليلا. كنت أنصت إلى يديه، بدلا مما كان يقول، عندما كانتا تتحركان في كل اتّجاه بتراخ وكسل كأنّما لم تكن القاعة لتسعه على الرغم من خلوها تقريبا من الطلبة. لم يكن هناك غير بعض المنظمين لهذه الأمسية يجلسون متفرقين هنا وهناك.

يستمعون إليه مخلصين لهذه الأشياء التي تبدو لهم عظيمة.أما الرجل فكان يتكلّم وهو ينظر من حين لحين إلى الأيقونات الزجاجية الملونة المحفوفة بالرصاص التي تملأ النوافذ.و في عينيه سهوُ من يعرف أن ما يتحدّث فيه ليس خطيرا أو مهما إلا بالنسبة له وحده ومن يعرف أن هذه الأمور يجب أن تختبر في الجسد.

كنت أشعر أنه كان يتحدث من بعيد جدا..أو من أعلى هاوية. والأنوار المسائية تقع على الوجوه الساهمة اللاهية وهو لا يزال يتحدّث مبهورا على ما يبدو بتلك الألوان التي تتسرّب إلى القاعة مع شمس مساء ذلك اليوم الخريفي الذي لا يتكرّر أبدا. لا بد أنه كان يشعر بما يجري حوله من تغيّر في الألوان أو كان يتحسّسه على الأقل فقد وقعت الآن هالة زرقاء على يده، تسربت من زجاج النافذة التي تصوّر المسيح مصلوبا بجسمه النحيل وإكليل الشوك على رأسه.. مغروز في يديه الفولاذ وقدماه صغيرتان نحيلتان تسيل منهما الدماء.

كنت أرى عيني السّي سعيد تبرقان عندما وصل في حديثه عند العشق والسكر والمحبوب. كان يتحدث بألم واضح ..و يدُه ساكنة بزرقتها على طاولة المنصة.يتلألأ الزغب عليها.. كانت يده تتلألأ .

كان يتحدث الآن غائبا عن الحاضرين، كأنما يأتي صوته من أماكن بعيدة. صار مرهقا..ربما راح يطل على شيء سرّي عميق أرهقه أو كانت ربما رؤيا خطيرة أثقلت ذاته..شيء منفلت لا يستطيع تحديده.قلتُ:

((هذا الرجل عليه شارة الموت.))

ورحت أبحث عن شكل محدّد لها لكني لم أجده..لم أعرفه لأنّني كنت بعيدا جدا عنه.كنت جالسا في الأخير أحاول أن أخمن ما الذي أخذه بعيدا عن القاعة في ألمه الخاص. لا بد أنه كان يملك ألمه الخاص الذي لا يشاركه فيه أحد أبدا.

صارت القاعة مضاءة كليا الآن. تغمرها الشمس المسائية الذاهبة. وراحت تلك الأيقونات تتألّق مبرقعة الحيطان والطاولات والكراسي والوجوه بألوانها المتعدّدة. وكان الطلبة المتعوّدون على هذا المكان ينظرون إلى الرجل وهو يحاضر، يستمعون إلى ذلك الكلام غير عابئين بما يغمرهم من الضوء..أمّا أنا فكنت ساعتها وحيدا مثله، متألما كعادتي، ضاع مني شيء ما منذ زمن وأنا لا أستطيع تحديده..تساقطت قطعٌ منّي وانهدمتُ كجدار لا يلتفت إليه أحد..تناثرت قطعٌ من جسدي وروحي تعرفها الأرصفة وحدها .

كنت رجلا حزينا أيضا ألتقط ما تقشّر منّي من على الأرض في الطرقات والمقاهي. مسكونا بما يجري في البلاد من الفظائع. وأبحث في تاريخ المكان عن خلاصي الشخصي لأنّي يئست من البشر ومن أجوبتهم. ولم يكن ليسعفني التاريخ ولا العبارة .

بنعمر هناك مع ليلى في أول الصف جالسين كعاشقين حياديين، لا يعيران أحدا اهتماما.انه يعرف هذا المكان جيدا.كان طالبا هنا وهو يعود إليه كلّما أحب أن يلتقي ليلى. كانت البنت تخشى أباها وترتعب خوفا من أن يُكتشف حبها لهذا الصعلوك السكير بقامته العالية جدا ونظارته الشمسية التي لا تفارقه وشعره المفلفل الغزير وهيئته الوقحة وحضوره القويّ.أما هي فبنت صهباء رشيقة، بعينيها الزرقاوين وشعرها الغزير وأصابعها النحيفة مثل أصابع عازفة بيانو. كنت مندهشا من فظاظة شكل صديقي كيف يمكن أن تتناسب مع رهافتها ورقتها تلك.أدهش من جسدها النحيف ذلك كشجرة صغيرة ندية،غضة العود ومن قوته هو كشجرة صنوبر محروقة الجذع.

كان يقول لي كلما تعجبت من لقائهما:

– إنها ترى في رجلها ..فحلها بعبارة أخرى ..هل فهمت يا سي يوسف..أنا فحلها .

و كنت أضحك منه وأقول له لكي أغيظه

– وهل أنت رجل حقا .

فيقول جادا:

– من يسكن بودغن هذه الأيام عليه أن يكون رجلا بالسّيف على أمه وإلاّ قتله الأوغاد .

أثناء المحاضرة، كنت ألصق آخر قطعة سقطت مني ذلك عصر ذلك اليوم وأنا في الطريق إلى هذا المكان. وأقول لنفسي لعلها الأخيرة ولا بدّ أن أجد لها مكانا مناسبا في فسيفساء الذات. كانت القطعة عصية عن الانضمام إلى البقية. ورحت أعاني في إلصاقها. في هذه اللّحظة سمعت باب الأبنوس الأبيض خلفي ينفتح ويطل منه وجه فتاة، سال معه شعر أسود طويل. تردّدت قليلا ثم خطت إلى الداخل. كنت الوحيد الذي التفت إليها. كان الباقون منغمسين في سحر هيئة سعيد قادري .نظرت إلي معتذرة ثم قالت بفرنسية متقنة:

- pardon .

تبسّمت وتساءلت عن أي شيء تعتذر هذه المتسللة الجميلة.عما تعتذر فالمحاضرة لا تعني سوى صاحبها والآخرون ساهون فيه. أما أنا فلم أكن أسمع سوى لنفسي.لم أكن أعلم يومها أن هذه المتسلّلة كالسارقة ستسرق قلبي وتتسلّل إلى فوضاه لتعيد ترتيبها وتجعلها أكثر نصاعة وأقل قسوة.

جلست فترة قصيرة ثم قالت كأنما لنفسها:

– لا أدري إن كان هذا الأستاذ سيسلمني محاضرته إذا طلبتها منه فقد تخلفت عن بدايتها...

التفت إليها وقلت:

– يمكن ...اسأليه...

– يبدو متزمتا ...

ضحكت ..

– أنت مخطئة يا آنسة ......

– آنسة بايه طالبة بالمعهد...

– نعم ..آنسة بايه ..أنت مخطئة فمن خلال حديث أحد الأصدقاء عنه وهو هناك في أول الصف بجانب تلك الآنسة هناك فالرجل بقلب من ذهب...

– أنت تقصد بنعمر هناك.

قلت:

– نعم هو .هل تعرفينه؟.

– ومن لا يعرف ذلك الصعلوك.

وراحت تبتسم

– إنه صديق.

قلت:

– هو محظوظ إذن..لم أكن أعلم أنه محظوظ إلى هذه الدرجة بهذه الصداقات الجميلة.

ابتسمت مرّة أخرى وراحت تنصت إلى المحاضرة...

لا أعلم كيف صرت منشرحا في تلك اللحظات ولا أعلم كيف كنت أتحدث معها دونما شعور باليأس الذي كان ينتابني عادة عندما أكون بحضرة امرأة. يأس انطولوجي كان يقول لي بنعمر دائما.

– فيك هشاشة اليأس...

لكني كنت يومها صافي الذهن والقلب. ربما كان ذلك بسبب الأنوار التي كانت تقع على وجه بايه في ذلك المساء الخريفي أو بسبب أبي مدين شعيب التلمساني.

قالت بايه فيما بعد إن الاعتذار كان شأنا من شؤونها . وأنها لما كانت غريبة عن المدينة فإنها حاولت أن تعيش في الظلال، حتى لا يلتفت إليها أحد. كانت تشعر أن تخطأ في حق من تقترب منهم. فيحق من تظهر بينهم فمجرد وجودها بين الناس يشعرها بالخطيئة،

كأنما كانت تقترف ذنبا عظيما لا غفران له. فصارت تعتذر. كان وجودها اعتذارا كليّا على أنها وجدت.

قالت لي إنها تعلّمت مع مرور الوقت أن تتخلص من هذا الشعور..لكونها امرأة.. من كونها تخشى أن ترفع صوتها. وهي تسعى اليوم بكل جهد أن تقول..ها أنا ذي..موجودة كما خلقني الله..و لست ذنبا أو خطيئة في حقّكم أيّها البشر.

كانت المسألة معقدة بعض الشيء في البداية لأن القسوة داخلتني وصرت لا أحتمل. كنت صادقة مع نفسي ومع الآخرين وهذا هو المهم. ربما آذيتهم دون قصد عندما كنت لا أترك فرصة في أن انتقد وأحاول أن أصحّح بعض الأخطاء في فهمي أو عندما كنت أدافع عن أفكاري..لكني كنت صادقة ..كنت شرسة جدا في تلك المرحلة..لكنّي اليوم أفضل..تعلّمت أن أصبر وأن أتريث في الحكم على الآخرين..و تعودت على الأهمّ وهو أن لا أهتم برأيهم فيّ.

في ذلك اليوم سألتني بايه عن موقع ضريح سيدي بومدين. قالت إنها تريد أن تزوره. فعرفت لحظتها أنها هذه البنت ذات العيون السوداء الواسعة والشعر الليلي غريبة عن تلمسان وتريد أن تكتشفها.

قلت:

- يبدو أنك غريبة عن المدينة.
- صحيح ..فأنا من بجاية..أنا هنا منذ شهرين فقط.
- وتعرفت إلى بنعمر بهذه السرعة .
- بنعمر صديق ليلى جارتي وزميلتي هنا.

نظرت إلي فجأة ثم استدركت

- ولكن من أنت حتى تسألني هذه الأسئلة نسيت أن أستجوبك كما تفعل معي الآن...

– آه..أنا آسف آنسة بايه لم أكن أقصد..أنا يوسف ولد المهدي الخرّاز..كنت طالبا هنا منذ زمن .

ثم أضفت مازحا:

– وذلك الصعلوك هناك صديقي .

– أنت هو يوسف إذن..بنعمر يذكرك كثيرا.

– أنا معروف إذن..هذا طيب...

قطعت الحديث فجأة ولم تجب ثم قامت واقفة كأنما تذكّرت شيئا.

– عليّ الآن أن أذهب لكن عليّ أن أتدبر أمر المحاضرة أيضا.

قلت قلقا:

– لا تشغلي بالك..ستصلك مصوّرة عن طريق ليلى.

– أكيد ؟ .

– طبعا آنسة ..لا تهتمي بشأنها سأتولاه.

– شكرا...

و خرجت مسرعة..

لم أكن أعلم يومها أن هذا الولي الصالح سيورّطني أكثر فيها به أو به فيها. أنا الذي كان قد يئس من نفسه. لم أكن أعلم أنه سيأتي زمن تهب فيه البراكين من نومها لتملأ البراري بالحمم. وتأتي ريح مواتية لترفع الأشرعة وترفع الزرع في الأعالي لامرأة الوقت.

كنت أقول دائما أني انتصرت على بعض الهباء عندما لم أجن أنا أيضا مثل أخي يحيى. وكان صوت داخلي يقول لي : لا تسم الأشياء ولا تفكّر فيها كثيرا، عُبَّها فقط، كالخمر، دفعة واحدة واسكن في اللحظة المناسبة للبوح.

كنت قبلها في جزيرة الوطن ناقف حنظل، أتعلم كيف أصون دمي من التخثّر في الأناشيد والأعلام..كنت أجوس ضاريا في نفسي دون أنياب وكان علي، قلت، أن أكون أكثر

حذرا وأنا أعلق شارة الغياب في مفترق السبل الكثيرة الواضحة أكثر مما ينبغي. تلك السبل التي كانت تتبدّى للطفل فيّ ذات صيف كاسح النار.

كان عليّ إذن أن لا أتخفى خلف الأبواب النخرة للرغبة المشدودة بأسلاك الصدأ. كان عليّ أن أستسلم للسان اللهب وحده دون سواه..

قبلها كنت لا أزال أحرث البحر الذي تتشمّس الرّغبات على شاطئه وتتخذ شكل نساء هامدات في الوضوح القاتل للنهارات الصيفية. كنت لا أزال أتقصّى بعض المعارف السخيفة عن مفهوم المرأة في كتب كان عليّ أن أحترس منها حتى يسيل دمي بالسهولة المطلوبة مثل دم الحيوان. وها أنا أقرأ ..و منذ ذلك اليوم في يدي ما يقرؤه الوقت..و أحاول أن احتفظ بنفسي كاملا، دون رضوض أو شقوق.

أزمنة الحصار

في تلك الأيام التي لقيت فيها بابيه كانت المناشير تعلّق على جميع مداخل المدينة المحروسة وعلى جميع مخارجها وكل حيطانها. تهدّد الناس بالويل والثبور وتتوعّد (الطغاة) و(الخونة) بأشياء كثيرة غير مفهومة في الغالب. تتوعّدهم بسبب جرائم يرتكبونها كل يوم. جرائم عادية .. لم يكونوا يعلمون أنه سيأتي يوم يعاقبون فيه لأجلها، منها الجرأة على الحياة كلّ صباح والذهاب إلى العمل وتقبيل الزوجات وضمّ الأولاد وغسل اليدين من أوساخ "الديمينو" و"الكارطة" لأن النهار مضى دون عمل.. أو شرب السجائر لأنهم لا يملكون شيئا آخر يشربونه غير أرواحهم،و النظر إلى السماء طلبا للعظام أو الغفران والمشي في الشوارع بلا هدف واختلاس النظر إلى الشرفات النظيفة أو الوقوف في مفترقات الطرق والتطلع إلى بنات مليحة حمّيدو أو التسكّع في القيسارية بجيوب خاوية وقلوب عامرة ثم المرور عبر الجوطية أو زيارة سيدي بومدين أيام الجُمع ثم الخوف من لقاء بوخطفة ووحيد وهما يقومان بدوريتهما المفتوحة على كل الاحتمالات، بالإضافة إلى الخوف اليومي من كائنات الليل التي تصنع القوانين الجديدة للعهد المبارك الجديد على أشلائهم القديمة ..

كل هذا كان يجعل الناس يتساءلون ويدورون حول أنفسهم ويلتفون عليها ويبحثون عن تلك الجرائم الفظيعة التي يقترفونها في حقّ أناس لا يعرفونهم ولا يعرفون حتى متى وأين اقترفوها في حقّهم. وعندما لا يجدون شيئا كانوا يتّهمون أنفسهم ويجرحونها بالشكّ.

في تلك الأيام كنت لا أزال اتساءل عمّن يعلّق مناشير موتنا ومتى؟و كيف كان يتخفى فينا؟ ومنذ متى؟ قلت، ((ربما كنا نحن من يعلّقها. نحن من يلصقها في الظلمة بيده ولا يشعر. والآن ها نحن نشاهدها عندما نصحو، عندما ينزاح الليل فقط نرى ما اقترفت أيدينا)) .

منذ أيام بعيدة ولياليها قلقة ورائحة الموت اليومي منتشرة في كل مكان. في الأزقة الضيقة للرياط أو القلعة والعبّاد، في كل مكان..في الجبال، وسهل المنية، في الصفصيف والمنصورة.. في كل شيء.. فأينما وليت وجهك كان الخوف اللون الذي تشاهد.

في الحقيقة ..كنت أتساءل في ما مضى أمّا اليوم فلم أعد أجرأ لأني أصبحت أخشى الأجوبة..

أعود من وسط المدينة مرهقا من الجلوس في مقهى باب وهران، جنب الجسر مباشرة أين أشهد مرور قاطرات الوقود في المساء وأقضي بعض الوقت مع بنعمر الذي كان يستعجلني في العودة إلى البيت قبل المغيب..قبل أن ينهمر الليل.

لم أكن أعير كلامه أيّ اهتمام لأنه كان عليه هو أيضا أن يعود إلى بودغن قبل الظلمة فمن الممكن أن يلتقي بتلك الوجوه الملثمة. وكان يمكنني أن ألتقيها أنا أيضا ككل مرة. فتسري في أوصالي تلك الرجفة كالشفرات الحادة تبدأ من أصابع القدمين، تملأ العروق والدماغ بأسراب من الدبابير، تجعل لدمك سيلانا من الأزيز الذي تنهار له الركب.. إنه الخوف.

يأتي أولا أحدهم على يمينك والآخر على يسارك والبقية في آخر الطريق عند المنعطف، يتخفّون بالشجر. يطلبون منك أول الأمر أن تقف مكانك وترفع يديك فوق رأسك وأن تبقى هناك. أنت لا تعلم من أين يأتي الصوت الآمر..تقف..تلتفت حولك..لا أحد. صوت فقط. تضطرب يداك وتشعر بالوحشة في الظلام. تشعر بالألم في الركبتين اللتين لا

تقويان على حملك. ترتجف تتهاوى عليك الخيالات والصور المرعبة..ثم يخرج الرجل من الشجر أو ينزل منه .. صحيح...كان الكلّ يتخفى بالشجر أو ينزل منه .

يتقدم إليك الرجل..قرقعة السلاح تسمع حولك والطلقات المتوجسة تنتظر منك أية حركة مباغتة.

– بطاقتك...

– ....

– تسكن هنا أنت..

– ..نعم..

عيناك تحدقان في الشجرة ولا ترفعهما إلى الوجه قبالتك. إذ أن رفعك للنظر جريمة وعقابها القتل. ليس هناك إلا اليدين القويّتين اللتان تتفحصان الأوراق. وعينان فقط تنظران إليك بوقاحة، فيهما استخفاف بكينونتك البشرية. رائحةٌ مبهمة، حريفة، عطنة تفغم أنفاسك..أحشاؤُك تجيش وسرعان ما يأخذك الدوار ويداك على رأسك.

هناك سُكون ما ثم نعيقُ غراب في الأعالي.. حشرجةٌ في الشجر.. الأنوار مكسورة والرائحة النفاذة الثقيلة ممزوجة بالعرق الحامض.الأكمام تلمع من الوسخ والوجه كتلة من الظلام..تشعر أن في هذه اللّحظات تخثّر وانتظار لقرار ما.

– أنت متأكد أنك تسكن هنا...

تشعر أن الأمر لن ينتهي عند هذا الاستجواب سريع ثم..هنا تُستفزُّ كليّتك..يحتقن وجهك ويغيب كل شيء من حولك. وحدك وجها لوجه معه. تنظر إليه الآن بعينين منتفختين..صدرك يخنقك..صدغك ينعصر بقوة..تشعر به..بثقلك على الأرض والظلمة عند قدميك عندما تخمن ما يفكر فيه..تتصلّب يداك.. تتحفز كل قواك ..تشم الفكرة في رأسه فينشدّ جسدك ويتوتّر..

ثم فجأة ومن آخر المنعطف..من مكان ما..صوت آخر فيه تعرف ممزوج بالتوسل:

– هذاك يوسف ولد المهدي الخرّاز المعَليم..ولد العبّاد..أطلقه..و يا الله ...

ثم تسمع وقع الأحذية وقرقعة الأسلحة واللهاث والجري وهفّات الثياب الفضفاض وكلاما غير مفهوم..همهمة..ثم طلقة رصاص واحدة تدوّي في الفراغ من وسط المدينة..ثم أحدهم يهمس بسرعة:

هيا..هيا..الجماعة قامت بالمهمّة تحت..خفّوا ..أيّا خفوا...

ثم يبتلعهم الظلام.

قال بنعمر:

((كنت أنعطف دائما إلى مقهى باب وهران فأجد يوسف جالسا هناك بعد نهاية العمل، يقرأ الجرائد ويدخن ساهما..كل بواخر الملح غرقت له. كان المقهى مظلما بلون حيطانه البني الغريب حدّ السواد. بعض صور الحيوانات معلقة على الجدران. الكراسي من الخشب.قديمة وباردة عند الجلوس أول مرة لكنها سرعان ما تدفأ من جلوسنا المديد عليها.

كان النادل كريمو متسامحا معنا دوما سواء دفعنا له حق ما شربنا أم لم ندفع .كنا زبائنه منذ سنوات ولا نعرف عنه سوى أن به لوثة في اللسان، لذا كان يفضل ان يعمل صامتا. ينتقل هنا وهناك. ساكتا..كان هذا يريحنا. ينظر إلينا وننظر إليه فقط. هكذا يعرف ما نريد. وإن لم نحضر في موعدنا نجده جالسا مكاننا يدخّن وينتظرنا .كان حارسا صامتا لصداقتنا..فسميناه حارس الصداقة الألثغ.

قلت:

– دع عنك أخبار الوطن يا صديقي..و حدّثني عن بابه..هذه ثلاثة أشهر منذ أن عرفتها..إلى أين وصلتما؟.

قال:

– هذه البنت لا افهمها..قاسية في صرامتها..أو خوفها ..لا أدري..إنها امرأة تريد ولا تريد...

–كيف يعني..تريد ولا تريد؟.

– تعاملني بتحفظ..تقترب مني مرّة وتبتعد أخرى..أراها مرّة كالعاشقة ومرّة كالكاسحة الراغبة في التدمير..حالة من الهيمان..من الضياع..ما الذي تريد؟ لا أعلم...

– أنتما تشتركان في شيء ما على الأقل.

– وفيما يا السّي بنعمر؟.

– تلتقيان في هذه المنطقة .

– همْ.. وكيف عرفت يا نبيه.

– في هذا البحث المضني ..أنتما تتشابهان ..أنتما من طينة واحدة كما يقولون.

–ماذا تقصد؟ لم أفهم.

– قد تكونان من أصول واحدة.

– هل أنت جاد أم تسخر كعادتك.

– صحيح..ربما تكونان من أصول واحدة..البجاوية والتلمساني من أصول واحدة..شوف ..ربما تكون سلالتك هي التي هاجرت إلى بجاية وتركت هناك هذا النموذج الذي يشبهك أو تشبهه ..ثم هاهو النموذج يعود إلى تلمسان ليبحث عن صورته.

– ها أنت تعود إلى سخريتك دعنا منك.

قلت جادا:

– الحقيقة هي أنك تخشى منها.

– بل ..قل أخشى عليها .

– مما...

- أخشى عليها من أخيها..من صراحتها..من أسلوبها في التحدّي..تصور أنها واجهته بحقيقة علاقتنا..و أعلنت له رفضها خطوبة محمد بن يعقوب..و هي ترفض العودة معه إلى بجاية .

- إنها مثل سيدي بومدين ..تريد أن تموت هنا من الحب..و ليس من المرض.

- لازلت تسخر كعادتك ..أنت لا تعي خطورة المسألة..أقول لك أن أخاها مهدد بالقتل..و أنت تتمسخر...

- ومن ذا ليس مهدّدا..إنك تبالغ فالسّي موسى بن بوستة محاط بأعوان مسلحين وحذرين..أرماده من الشرطة تحت تصرفه..أصدقاؤه من الأغنياء يدفعون عن الجزية الكافية التي تمكنه من البقاء حيا..فكّر في روحك..نحن المساكين..ونحن الذين نموت باطلا...

- إنها مهدّدة في تبعته.

- أنت تعرف أن أحدا لن يقترب منها .

- لقد ورد اسمها في رسالة إليه وضعت تحت الباب مع الكفن والعطر..هل تفهم هدّدوه باختطافها.

- لا يجب أن تخشى عليها كثيرا هذا مجرد تهديد.كل الناس يتعرضون له هذه الأيام.أنا أخشى عليها شخص آخر تماما .

- ممن؟.

-منك أنت.

- ولماذا؟.

- ليس هكذا يكون الحب يا أخي الحب..أنتما باردان أكثر مما يجب..هناك برودة في علاقتكما..نوع من الأكاديمية في هذا الحب .

- أكاديمية ! هِهْ..عجيب.. وكيف ذلك؟.

- إيه..أكاديمية...نعم.لا تضحك..أين الحرارة..أين النّار التي تحرق كل شيء...

– أنت مخطئ إذ تعتبرني باردا فالنار التي تتحدث عنها..هنا في القلب .يا صديقي..في القلب براكين وحمم ..في الداخل ..أما أسلوبك فدعه لك وحدك ..

– أي أسلوب ؟ أنت لم تعرف معنى العشق بعد.

– وما هو معناه يا عاشق زمانه.

– الحب هو أن تنسى .

– صحيح؟..ِهمْ..ثم ماذا ؟.

– إيه ..إيه..الحب هو أن تنسى أنك يوسف ولد المهدي الخرّاز ..وتنسى أنك كبرت هناك في العبّاد..تلك القداسة الزائفة انسها.

– أنت أفضل من يعرف أني لا أقدس شيئا ولا أقدس أحدا .

–و هذا ما يحيرني فيك بالضبط ..هذا ما لم أفهمه ..ماذا تريد أنت أيضا.

– صدقني ..يا بنعمر يا خويا والله ما أعلم ..لا أعرف.

– هل ستبقى هكذا زمنا طويلا ..لا تعرف..؟هذا فضيع ...

قال يوسف بجدية أكثر بعد لحظة صمت:

– يا بنعمر يا خويا المسألة ليست هنا.. بل المشكلة هي أني منذ لا أدري كم من الوقت..أشعر بعنف أن شيئا ما انكسر بداخلي..و أنا لا أستطيع تحديده..إحساس غامر.ملحّ. باق..يلازمني ولا أستطيع التخلّص منه..يؤرّقني..و يستولي على حياتي كلها..حدثتك عن ذلك مرارا..و لا زلت لم أتعرف على سرّه..أظن أني لا أستطيع تخطي الحجاب..لا يمكنني أن أكون خلفه، هناك، في الجهة الثانية..أشعر دائما أنه لا يمكنني أن أخطو الخطوة الضرورية خارج نفسي كما فعل يحيى أخي..لكن بشكل مختلف..أنت تذكر أني كنت أقول لك دائما أن هناك جنون ما ينتظرني..و أني كنت أسعى إليه منذ طفولتي ..لكنه سُرق مني ..حوِّل إلى نوع من الحمق البائس عندما تحوّلت البلاد إلى بركان من الدم. لقد توقفتُ..دخلت في البَهت الذي يشلّ..و أنا لا زلت أتساءل عن الخلاص

ولا أجده في أي شيء..أما القداسة كما تقول فهي آخر شيء أفكر به..إنها لا تعنيني الآن..على الأقل..ربما كان المعنى..إني أبحث عن معنى ما ربما..عن ذلك التوافق المستحيل بين ذاتي والواقع . لكن بيني وبينه دوما أكوام من الأجساد المشوّهة..كل هذا يحجب عني الرؤية. لذا تجدني لا أدري أيّ الطريق أسلك ..أي الخط أتّبع...

– لكن لماذا هذا كلّه؟.

– لأنّي كائنات مليئة بالهلوسات التي تتلوّن تارة بالقداسة ومرّة بفظاعة الجسد وغرابته ووحشته ودمويته...هكذا نحن نرى وجوهنا متشظية في آلاف القطع من المرايا المكسرة.. هكذا نحن وجود ولا هوية ..وجود بلا هوية...

قلت:

– أنت فظيع حقّا يا يوسف..أنت فضيع جدا.

– أنت على حق ..أنا رجل فضيع .

– لا أدري كيف تتحمّلك بايه إن كنت تتحدّث معها بمثل هذه العقلية..مسكينة..هي التي تحب الحياة.

– أظن لهذا السبب بالضبط أنا متمسك بها.. لأنها امرأة تحب الحياة.. متشبثة بها.

– وهل هي متشبثة بك؟.

–.....

قال بنعمر:

((كنت في تلك الأيام لا أجرأ أن أسأل يوسف مرّة أخرى لماذا كان يظن أن بايه لم تكن متشبثة به؟..أو أن هذا ما كان يخطر بذهني عندما أسأله ولا يجيب..كان يصمت ويسرح بعيدا..و لا يجيبني..لم يكن يريد ذلك اليوم أن يحدثني عمّا يجري بينهما. فكففت عن سؤاله.

صحيح..لم أكن أفهم كيف كانت تحبه و بأية طريقة فأنا لا أعرف سوى حب ليلى وقد كان مختلفا.لكن ما عرفته حقيقة هو أن البجاوية صارت مخبولة بيوسف بشكل عصي عن الإدراك. لست أدري ما الذي كان يشغل بال تلك البنت. تلك مشكلتها.طلبت مني ليلى أن أدعهُما وشأنهما وقالت إنها هي أيضا لم تستطع أن تفهمها تماما. والشيء الوحيد الذي أصبحت تلاحظه عليها هو إنها ازدادت جمالا..أعلم أنها كانت تغار منها..وأنها صارت تصعد إلى العبّاد بداع ومن غير داع..

ولا تتعب من زيارته..بل وصل بها الأمر أنها تظل هناك النهار كلّه. وكنت لا أجرأ على سؤال يوسف. أين تظل..في الضريح أم في بيتهم .كان ذلك أمرا يخصّهما.

وهكذا لم أكن أستطيع أن أفهم حكايتهما لأنها استعصت عليّ وتمرّدت وراحت تذوب في يديّ كندف الثلج. لم أفهم شيئا إلاّ بعدما قتلت ليلى..و لم أعد أرى بوضوح سوى بعد أسابيع، بعدما انسحبت بايه فجأة من الحكاية كلّها واختفت كما ظهرت ولم يعد لها من أثر في المدينة..و في هذه الفترة التي نسجت عنها الأقاويل عنها تماما كما تُنسج الزرابي والحنابل)).

خطوة في الجسد

قال بنعمر:

– لستُ هنا في العبّاد، في هذا اليوم البارد المثلج عبثا .أنا لا أعبث في مثل هذه المسائل. إني أقوم بواجب الدفاع عن صديقي .لقد طلب مني ذلك في رسائله. علينا أن نقول الحقيقة للنّاس وعلينا أن نكذّب كلّ من يفتري على يوسف حتى نبعد عنه تهمة قتل بايه البجاوية. ليس لأنّه اختفى بعد أيّام من اختفائها ولم يظهر له أي خبر، بل لأنه في هذا الظرف بالضبط قد أمكن لأولئك الأوغاد أن يشوِّهوا اسمه وأن ينسبوا إليه تلك الصورة التي روّجها عنه موسى بن بوستة حتى يورّطه في القتل ويقوم بتصفية حسابه معه.

أنتم تعلمون الآن أن ذلك الكوميسار حبسه وأراد أن ينتزع منه الاعتراف بمكان وجودها. ولكن الأسباب الحقيقية مختلفة تماما، يا جماعة الخير.لا علاقة ليوسف ولا بايه بها فالحقيقة أنهما استعملا كحجّة فقط. القضية كلّها كانت مبنية على رأسه، فعمّي المهدي الخرّاز كان يملك أرضا واسعة في "الحرطون" بين البساتين ورثها عن أجداده الخرّازين. وكان موسى مع مجموعة من أصحاب المال والجاه يبحث عن الأراضي المنسية التي أهملها أصحابها كي يعيدوا بيعها لتتحوّل إلى فيلات أو مصانع صغيرة. إذ البلاد أضحت بين عشية وضحاها ليبيرالية وأموال الدولة توزّع اليوم بلا رقيب وحسيب فالقروض كثيرة، والوضع مناسب للنهب وللاستيلاء على أراضي الناس في في الحرطون وسهل المنية،و في "فدّان السبع" ،في الكيفان، في سيدي سعيد، وفي كل مكان توجد فيه أرض منسية أو أهملها أهلها لكثرة الورثة واختلافهم. وكلّ التهم جائزة فالبلاد في حالة فوضى ولا أسهل من ذلك، لفِّق له أيّة تهمة فهي كثيرة، أقلّها أنه متعاون مع الإرهابيين. وبذلك تكون اللّعبة قد انتهت. والسّي

موسى حاضر، مستعد، ما عليه سوى أن يستخدم معاونيه "بوخطفة" و"وحيد" والأمر ينفَّذ في ليلة واحدة. إنهما مستعدّان لتنفيذ أيّ شيء. يمكن توريط أي أحد. فحالة الطوارئ معلنة والولدان مطيعان وهما يزدادان شراسة من يوم إلى يوم. إنهما يتوغلان في الحقد أكثر فأكثر، يمارسان ما يستطيعانه من القمع بالزيارات الليلية المتكرّرة، إذ يكفي أن يذكر اسمهما حتى تجد "بودغن" متأهّبة عن آخرها لأي طارئ. السيارة ال505 البيضاء و"الكلاشنكوف سْكوربيون" والعمل يتمّ في السرّ. يكفي أن يُعرف اسم المطلوب و"يْبات ما يصبح". يُقضى العمل ليلا. وينتهي أمره، ولن يعرف مصيره غير الله وموسى والرجلين.

حينها كان أهل تلمسان يقولون عندما يشتدُّ عليهم الغبن والبرد ويشعرون بسطوة بن بوستة

((فرج الله قريب يا الأخوان..فرج الله قريب...))[28]

ثم يغلقون النوافذ والأبواب والشرفات على أنفسهم.

كان الشتاء لا يريد أن يتزحزح ولا يريد أن ينقضي. قال المسنّون إنهم لم يروا في حياتهم أطول منه وقالوا إنه لم يهطل الثلج أبدا كما هطل هذا العام ولم تغب الشمس كلّ هذه المدّة طوال حياتهم.شهورٌ انقضت ولم تظهر الشمس إلا في فترات قليلة غير كافية كي ينبت الزرع ويستوي الغرس. وقالوا إنها لم تمطر كما أمطرت هذا العام بعد سنوات من

28 تحية شهيرة كان يتواسى بها اهل تلمسان يوميا كلما التقوا أيام حصار المرينيين لهم مدة ثمان سنوات منذ عام 1297م

الجفاف. لكن السماء سالت هذه المرّة كالطوفان أيّاما متوالية، فتوقف كلّ شيء وجعل الماء الغزير الزرع رخوا وراح يتعفّن لأن النور غاب. وظلّت الحيطان مبلّلة مهدّدة بالسقوط في كل مكان..حتى أن تراب الأرض أصبح عجينا.

كان المطر يسقط كلّ يوم حقّا والسماء غائمة في الفترات التي يتوقّف فيها عن الهطول مع ذلك. ظلت بعيدة غائمة بلونها الرمادي الذي لا يحول، فلم يرى أقاسى وأشدّ من هذا العام.

وقيل في أيّام المحنة تلك انه لم تهب عواصف من البرد كما هبت ذلك العام. عواصف من القرّ عادت لها قلوب الناس باردة أكثر. وقيل أيّامها انه لم يكن يستطيع أي رجل أن يخرج من بيته بعد المغيب سوى بوخطفة ووحيد. كما شاع بين الناس أيضا لذلك أن هذا القر الشديد حوّل رجلا متشردا في المدينة منذ دهور إلى شبح بوجه أبيض كالرخام، ناصعا وبراقا، يلمع في الظلمات، يجوس في الطرقات والدروب والحواري وعند المداخل السبعة للمدينة المحروسة. قالوا إن المغامرين بأرواحهم من "السُكارجية"[29] و "الزطايلية"[30] شاهدوه في آخر الليل واقفا أمام بوابة المشور الكبيرة ورأوه مارا يجرجر أسماله في البلاص أو جالسا تحت الشجر في الجوطية وبين يديه المجامير هي تطلق الدخان عاليا.

كما قيل أن ذلك الرجل الغريب كان يلفّ نفسه في برنوس أسود حالك يجره على الأسفلت الندي. وفي يده عصا من حديد تخرم الأرض فتترك حفرا صغيرة خلفه. كان يضع قلمونة هائلة على رأسه يسمعون من تحتها أصوات غريبة كالأنين بل هي أقرب إلى العواء البشري منها إلى البكاء كأنّه عويل نساء تصرخن وتنتحبن..كانت بعيدة غير

29 الخمارين
30 الحشاشين

واضحة..تتناهى من أقبية عميقة الغور.وكان الذين يغامرون ويمرقون في الشوارع ليلا كالقطط يسيرون ملاصقين للحيطان ويستطلعون الدروب الغارقة في الظلام لا يحبّون أن يتوقفوا عند ذلك الرجل ذي الوجه الأبيض الناصع كالكفن.بل يتجاوزونه مسرعين، لا يكلّمونه، ويتركونه يمضي وحيدا في الطرقات الخالية.

هذا ما كان يقال في تلك الأيّام، عندما لم يكن أحد يخرج ليلا في ذلك البرد.

المنچانة[31]

قال بنعمر:

((يا جماعة الخير. سأعترف الآن أمامكم لأول مرّة أني لا زلت لم أفهم بعد تلك المعاني التي تتخفى خلف العناوين التي يضعها يوسف ليومياته: النيروز، الوقت، البجعة...هذه الأشياء لم تدخل جيّدا في مخّي ويبدو أني لم أفهم يوسف في يوم من الأيام ولن أفهمه.فها هو يسمي هذه الأوراق بـ"المنچانة".

لست أفهم الآن هذا الخط.لا بد أني سكرت فعلا.إنتظروا قليلا.. إنها الأوراق التي يذكر فيها بعض الوقائع من تلك الأيام التي قضتها بايه عنده، في بيتهم بالعبّاد. فبعدما هدّدت البنت بالقتل وبعدما حاولوا اختطافها رهينة لكي يبتزوا أخاها موسى بن بوستة. إذ كانوا يتمنّون إذلاله لأنه أذل العبّاد وأفسد البلاد.

فكرت بايه جيّدا في مصيرها وقرّرت أنها ستكون في مأمن عند يوسف. فطلبت منه أن يبعث لها خالته الزهرة ومعها "حايك"[32] وطلبت منه أن يرتّب لها غرفة مناسبة. وقالت إنها ستختفي عنده أياما إلى أن تتدبّر أمرها.

هذا واضح جليّ لكن الشيء المبهم الغريب هو أني وجدت نصا (ليحيي بن خلدون) صاحب (بغية الرواد في ملوك بني عبد الواد) بين هذه الأوراق.

غريبٌ موقع هذا النص هنا. لماذا وضعه يوسف هنا؟ ما الذي كان يقصد به؟

---

[31] الساعة الكبيرة التي تعلق على الحيطان

[32] ملاءة تقليدية بيضاء

و ماذا تعني هذه الأسرار التي يضعها أمامنا؟ هل يضع لنا في كل مرّة فخا؟ أم انه يتلاعب بنا؟

هذه إشارات ورموز مبهمة .ربما كانت حروفا سحرية..خطيرة..مؤذية..قد تصيب المطّلع عليها بالعمى..و ربّما كانت حرْزا حضَّره يوسف ترياقا ضدّ الموت.

أوفْ.. أصبحت لا أستطيع التركيز.. والأجدر بي أن أواصل القراءة دون التوقّف عند هذه الأمور..لا مجال للتعليق. فما كتبه يوسف كان قد كتبه بطريقته ولا دخل لي فيها. يدبّر رأسه..المهم..يقول النص:

((وأطلّت ليلةُ المولد النبويّ على صاحبها أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم، فأقام لها بمشوَّر داره العلية مَدعى كريما وعُرسا حافلة احتشد لها الأُمم وحشر بها الأشراف والسوقة، فما شئتَ من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومشامِع كأنها الأسطوانات القائمة على مراكز الصفُر المموّهة.و الخليفةُ أيّده الله صدرَ مجلسِها ممتطئا سريرَ مُلكه، يسرّ الناظرين رُواؤه ويثلج الصدور عزّة وتحارُ في كَمالات خِلاله النُّهى وحفَافيه مُلأً التجلَّة من قومه وأعيانِ الطبقات من حضرة خلافته، على مقاعد عيّنها الاختصاصُ ورتّب بعضها فوق بعض المناصبُ. تخالهُم قطع الرّياض النضِرات، قد أغضى الجلالُ من أبصارِهم وخفَّضت المهابةُ من أفواهِهُم. فلا تبصر إلاّ جمالا ولا تسمع إلاّ همسا يطوف عليهم وِلدانٌ أشعلوا أقبية الخزِّ الملوّن وبأيديهم مباخرٌ ومرشات، يغيم دخانُ عنبر تلك المفغم للآناف الجوَّ، فتمطر هذه الحفل وابلا من ماء الورد المنسوب إلى" نَصِيبين".و خزانة "المنجانة" ذات التماثيلِ اللّجين قائمة المصنعِ تُجاهه، بأعلاها أيكةٌ تحمل طائرا فرخاهُ تحت جناحيه ويختالُه فيهما أرقمٌ خارجٌ من كوّة بجذر الأيكةِ صعدا، وبصدرها أبوابٌ مجوّفة عددَ ساعات الليّل الزمانية. يعاقِب طرفاها بابان مجوّفان أطول من الأولى وأعرض فوق جميعِها ودون رأس الخزانة قمرٌ أكملُ يسير على خط استواء نظيرِه في الفلك. ويسامت أول كلّ ساعةٍ بابها المربّع

فينقضُّ من البابين الكبيرين عقابان بفي كلّ واحدٍ منهما منجة صفر يلقيها إلى طّست من الصفر مجوّفٌ بواسطة ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرنُ وينهش الأرقمُ أحدَ الفرخين فيصفِّر له أبوه وهنالك يفتح باب السّاعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راءٍ. بيمينها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ويُسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله.

حيلٌ أحكمت يدُ الهندسةِ وضعها وراض تدبيرُ الخلافة أعلى الله مقامه شماسها. والسمع قائم صدر عترته على بعد من الخليفة، مقدّرٌ يردّد نغمات الألحان ويرتّب رنّات الإيقاع وينشد خلال ذلك أمداح سيّد الرسل وخاتم النبيّين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم...))[33]

قال سليمان ولد الفقيه:

- في أي عصر هذا الكلام؟.

قال بنعمر:

- لا أدري لعله في القرن الثالث عشر ميلادي.

- أليس هذا هو أبو حمو موسى الزياني؟.

- ربّما.لا أعلم .

قال سليمان:

- لكن ما دخل قصة المنقانة هذه هنا؟ وماذا تعني؟

قال بنعمر:

- إن يوسف يشير هنا إلى أن : المنقانة آلة لرصد الوقت ذات شكل هندسي

[33] بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون أخ المؤرخ الشهير عبد الرحمان بن خلدون

غريب "بمشوَر"[34] تلمسان وهي من اختراع علي بن الفحام التلمساني في أوائل عام 750هـ 1359 م وهي مأخوذة من اللغتين اليونانية والطليانية ومعناها مصقلة النسيج والأقمشة...هكذا كتب...

– وما معنى هذا الكلام؟.

– ربما كان يقصد المقانة التي في دارهم..أنا رأيتها..كانت ساعة حائطية قديمة. لم تتوقف أبدا على الرّغم من أنها تبدو ساكنة..

– ربما..يقصد شيئا آخر.

– أو أنه يقصد إلى أن كل يوم قضته بابيه في بيتهم هو بمثابة ساعة من اللّيل الطويل الذي غمر تلمسان. لأنه لم يكن يراها إلا مساء.. يخرج في النهار إلى عمله ويترك بابيه مرّة مع أخته ومرّة مع خالته الزهرة..

– ربما؟.

– هذه حجّاية[35] إذن.

– أليس هذا الذي نحن فيه في هذه السنوات حجّاية من نوع آخر لم نعرف لها مثيلا.. إنّها مميتة..لم نستطع حلّها فحكمت علينا الغولة بالقتل..و الذين يموتون هم أناس فشلوا في فكّها .

قالوا:

– دعنا من هذا الكلام..لا عليك يا السّي بنعمر هات..زيد..واصل برك نحن معك.

قال بنعمر:

– تبدأ الأيام هكذا.

[34] قلعة عالية الأسوار لا تزال قائمة إلى اليوم

[35] أحجية

اليوم الأول ..

أو الساعة الأولى من الليل الطويل الذي لن ينتهي على خير.

فكرة بايه خطيرة جدا لأنها ستقتل لا محالة إذا ما اكتشفوها عندي بالعبّاد. وسنقتل كلنا معها. إنها مغامرة الله وحده أعلم بنهايتها.أبي لم يعلم بوجود "الضيفة" إلاّ مع صلاة المغرب، عندما وجد خالتي جالسة مع بنت برانية عند الكانون. أما يحي فقد دخل متأخرا ذلك اليوم كعادته.اتجه إلى المطبخ أكل ما

وجده ثم نام بكل أسماله الوسخة.

كنا قد رتبنا لبايه غرفة النوم التي كانت تفضلها أمّي.كانت موصدة منذ وفاتها.دفأناها جيدا ووضعنا كل الأغطية. ظلّت معها الزهرة وباتت عندنا. أما أنا وأبي فكنا ساهرين من القلق.

– هذه البنت ماذا تفعل هنا في داري؟.

– إنها مهدّدة بالقتل .

– كيف يعني مهدّدة بالقتل؟.

– بعثوا لأخيها كفنا وقارورة عطر ورسالة فيها تهديد باختطافها وقتلها...

– هذه بنت من؟.

– هذه بايه..أخت الكوميسار موسى بن بوستة.

– أخت الكوميسار !...و هو ألا يستطيع حماية أخته حتى تْباصينا أنت..و ما لقيت ما تفعل سوى أنك جئت بها حتى عند فم الذئب .

– ألا يقولون ما تسلك من الذيب إلا إذا كنت بين نيابه.

– هذه فهامة ولا خلّيني..قل لي من أين تعرف أخت" الكوميسار" يا السِّي..؟.

قال هذا وفي عينيه استهزاء واستخفاف أعرفه .ثم رفع وجهه ونظر إلي من فوق.

قلت:

- هذه الحكاية ما تخص حتى واحد.

- كيف؟ عاود..عاود.

كنت حانقا وشرعت الدنيا تظلم في وجهي من الغضب

- كيف ..لا تخصّني أنا..هذه داري يا السِّي ..راك ناسي بلّي هذه داري...

- فيما بعد..أبي ..خلينا من هذه الهدرة الآن ..البنت تسمع.

- تسمع ولاّ ما تسمع هذه داري وأنا أتصرف فيها كما أشاء و...

وراح صوته يرتفع وبدأ يزعق كعادته وبدت عيناه حمراوان من الغيظ. كان هكذا في كلّ مرة نتحدث مع بعض في أي شيء. تتحوّل الأمور معه دائما إلى نقاش أخرق. كل واحد يصم أذنيه عن سماع الآخر. في كل مرة من المرات القليلة النادرة التي أتحدث معه ينقلب الحديث إلى زعيق بهذا الشكل.

- هذه داري يا السّي .. سمعت ..لا تنسى أنا مازلت ما مت..فهمت..حتى تفعل فيها ما يحلو لك.

سكتّ كالعادة وسرعان ما انسحبت إلى غرفتي. كان غاضبا وكنت قد قرّرت أن لا أضيف شيئا.

قلت .هو هكذا دوما .سيهدأ .أعلم أنه سيهدأ. بعد أن يصرخ بينه وبين نفسه سينام وعندما سيستيقظ ليصلي الفجر في المسجد.سيعود إلى البيت. سيجلس إلى النار وحده وسيفكر في المسألة. وهو يعرف أني مستيقظ. في تلك اللحظات بعد أن يكون قد راقب "المقانة" المعلقة في الصالة. حينها سيعرف أني قد اتخذت قراري. يدرك ذلك جيدا. فهو يعرفني. إذا ما قرّرت شيئا فلا رجعة فيه. سيحدس هذا "البلارج"العجوز أن القرار محسوم وسترضخ شيخوخته المستأسدة. سيتحدث إلى خالتي الزهرة عند الصباح. وسيصيح فيها لكن ما وقع قد وقع ولا يمكن طرد البنت البرانية. هو نفسه لن يرضى بذلك.

في هذه الليلة الأولى من دخول بايه بيتنا شعرتُ بأني أمام امتحان عسير على رجل مثلي.لم يكن من السهل أن أقبل على نفسي وضعا كهذا بلا هواجس. فوجود امرأة في البيت هو إيذان ببدء صراع مرير مع الذات. لقد بدأتُ بالانكشاف الكلي وبدأت بالتعرّي التام أمامها. وسأواجه أعتا أنواع المكاشفة وأقساها. تلك التي تقلب كيانك وتجعلك واضحا أمام نفسك وأمام الآخرين.

كانت بايه متيقنة مما تفعل. أو أنها لم تكن تملك حلا آخر. وربما كانت مجازفة في الأصل وخائفة على روحها التي كانت معلقة على شفا هاوية. مشدودة في طرف حبل على غصن هش سرعان ما سينقصف. إنها تعلم أن انكشافها يعني موتها ذبحا مثلما ذبحت ليلى في تلك الأيام.

كانت تجربة مرعبة تلك التي مرت بها بايه .أن تشهد موت صديقتها وأن لا تستطيع لها شيئا .مرٌّ كان ذلك الموقف. أعرف ذلك.

اختطفت ليلى مدّة أسبوع.وحار أبوها علي زياني في ما يفعل وطار عقله.بحث في كل مكان. قلب، فتش، سأل جميع من يعرفها في الوقت الذي كان فيه موسى بن بوستة يبث بأعوانه وشرطته في كلّ مكان. لا أحد كان يعرف أين هي. دفع الأموال لموسى ولم يأته بها. ذهب بنفسه إلى بنعمر في "بودغن". توسّل إليه أن يجدها. طلب منه أن يتّخذ أي وسيلة لمعرفة مصيرها وبكي بين يديه. لكنه كان قد صمت وبهت فجأة من الصدمة..وجده أبكما. هزّه عدّة مرات فلم يجبه..فخرج من عنده وأشاع بين الناس أنه على استعداد لأن يدفع أضعاف ما طلبوا المهم أن يرجعوها إليه سالمة.

حار بنعمر. ولم يستطع شيئا. فراح يتصرّف بحمق. راح يتكلّم هو أيضا عن الفدية. دخل المساجد كلّها وجال في الطرقات ليلا كالمخبول وراح يستوقف كل من يتصوّر أنه يمكن أن تكون له علاقة بهم . وكان الناس يتجنّبونه ويهربون من بين يديه. يخشون أن يسألهم.

ينظرون إليه من بعيد ساخطا يتحدّث مع نفسه ويتحاشونه لأنه كان يأخذ الرجل من ياقته ويهزّه بقوّة ويقول بهوس:

– أنت..أنت تعرف..يبان لي تعرفهم..قل لهم الفدية راهي عند بنعمر ..قل لهم راه في دارهم..أنا هنا في بودغن أنتظرهم..قل لهم ذلك...

وكان الرجل المسكين يرتجف من الهزّات العنيفة لقبضته ويحاول التخلص من هذا الرجل الضخم الجثة فلا يستطيع، يتلوّى بين يديه ولا يفلت سوى إذا ما رأى رجلا آخر فيتركه ويسرع إليه فيهرب هذا ويعطي الريح لرجليه وهو يسبّ.

– هذا ماله هْبل ..حاب يباصينا..مريض السيّد..مريض...

قرّر بنعمر أيّامها أن يخرج كل ليلة إلى جبال "لالة ستي" وإلى الغابة .فسار في الظلمة ليالي وهو يصيح عندما يستبدّ به الألم ويخنقه.

– ياه..يا لالة ستي . كان يصيح.. يا الراقبة على الأوطان ..يا المشفعة في الرجال..يا سلطانة النسوان..أه يا الوصيلة الراقبة على تلمسان أرني ماذا أفعل ..وينْ راها ليلى ..وينْ هي يا ديني.. وينْ نلقاها..يا الرّب الكريم..وينْ؟.

و كان يصيح ويصيح حتى يقع على الأرض من التعب..و هناك..فوق، على الصخر المطل على المدينة المحروسة..كان يبيت أحيانا في الضريح.في ذلك البرد لعله يصادفهم. أو يشاهد من يوصله إليهم لكنهم كانوا يظهرون وقتما يحبّون ويختفون وقتما يشاءون.

في تلك الأيام من البحث، وذات ليلة بكى من الحزن والغضب والبرد والقهر والغبن. اختلطت عليه المشاعر، راكمها كلّها في تلك اللحظات كان على استعداد أن يقتل كلّ من يصادفه في الظلمة..كائنا من كان..الليل صقيع وهو يرتجف في "المونطو" الأسود ذي الياقة الحادة الحواف. ويبكى بدموع العجز..لأنها ربما تكون على بعد خطوات منه ولا يستطيع أن يصل إليها.كان يتمنّى أن يسمع أي شيء عنها.حتى لو كان ما يسمعه موتها. تمنّى أن يهدّدوه بالقتل هو أيضا..تمنىّ أن يراها..مهما جرى لها .

وفي الأخير،لما لم يجد شيئا سالت دموعه من القرّ والقهر ثم سكن. عرف كيف يمكن أن يكون الأهل قساة وظلاّما. وتذكر أن هذه البلاد وهذه المدن كالذئبة تأكل جراءها عندما تجوع.

تكوّم على نفسه في الضريح طلبا للدفء لما تجمّدت أصابع قدميه وشعر بالوهن في الركبتين وبالألم في الفخذين من الحذاء العسكري الذي غدا ثقيلا وباردا مثل سلاسل الحديد.((لم يكن هناك من فرق بين عصر وعصر في بلادي .قال لنفسه .((إننا لا نعرف العصور. إنما هو امتداد فقط لخيط الدم منذ "الرومان" إلى زمن "قادة بن شيحة"[36]. فهكذا البلاد وهكذا الناس في هذه الأيام من أيام الله الخطيرة...

كانت النجوم قليلة وبعيدة جدا عن المدار الذي تجري فيه الأوضاع فيه هنا. وكان الغيم لا يرى. أما الحجر الصلد الأملس فيلمع قليلا بالصقيع والأرض زلقة..لا تستقر هذه الأرض ولا أمان لها.

مشى بنعمر الليل كلّه واستقر به المقام أخيرا في هذا المقام الذي كاد بابه الواطىء الصغير أن لا يدخله. وفي السكون سمع لهاثه وزفيره وصوت حركاته. كانت القبة ترجع الصدى..حتى التفافه على نفسه سمعه. وملأته رائحة الشمع المحترق ورائحة الغبار الباردة.و السكون والصدى الذين يتردّدان في المكان جعلا الرّعب يتخلّله. فقرّر أن يسكن. أن يتلملم على نفسه وأن يدخل فيها بعدما هام الليل كله بلا هدف. بين الشجر مشى طويلا،فرأى كيف أن الظلال استحالت إلى خوف ذي أشواك وأنياب. "القندول" و"الديس" و"الضرو" و"الزبوج"[37] وجذوع الصنوبر المحترق والحلفاء اللبدة محتفظة بأمواه المطر الذي سقط البارحة لا تزال تلمع كشعر مغسول للتوّ.كل هذا صار عدوّا

ارهابي رهيب أعلن نفسه زمنا أميرا على منطقة الغرب الجزائري وبلغ به العنف أن قتل أهله.

36

37 نباتات غابية

اليوم .بعدما ألفته الطفولة كمستراح ومكان للمغامرات المراهقة الصغيرة. كل ذلك صار بعيدا اليوم.

كان متجمدا من البرد فنام من التعب. وقبل الفجر استيقظ ليعود إلى البيت. لم يكن خائفا بل كان وحيدا ومرهقا بشكل فظيع، مثل رجل يعود من حرب خاضها مع أشباحه. في هذه اللحظات التي انهار فيها كليّة ارتفعت عشرات الأصوات من المآذن تدعو الناس للصلاة. كانت أشبه بنداءات لحشر وشيك. غمرت كلّ مكان وسط الضباب الذي غشي كل شيء ورزح على كل حي طبقةً رصاصية بدت بلون الدم الذي يتبدّد في الماء ولا يمّحي. خرجت من جوف الأرض مستجدية مستسلمة دفعة واحدة. فيها ألم المدن المحاصرة..التي نامت على التعب وهي تستيقظ الآن على رمادها البارد.

لما كانت الأضواء تصنع من جسد المدينة هالة كبيرة من النور اليائس كان بنعمر يراها جرحا كبيرا لا يندمل. تنكؤه الحروب في كلّ مرة.و تساءل : هذه المدينة كم حوصرت وكم عانت وكم هي لهذا فظيعة وفظّة مع من يعشقها. إنها لا تعرف الحب. ذئبة تتلذّذ بدم جرائها. جدار ينهار في كلّ مرة على أصحابه النائمين.و قال: هذه المدن فقدت صوابها وراحت تأكل أولادها الذين كانت تعطيهم ثدييها الدافئين لترضعهم حليبها..كانوا يشمّون فيهما رائحة عرق الأم ويملأون أفواههم وحلوقهم بهما فيشبعون ويكبرون مليئين بالعنفوان والرغبة في الحياة ممتلئي المناكب والسواعد والأكفال ، يأملون ويحبّون ويعشقون ويؤمنون بها فإذا هي تنقلب عليهم فجأة فتكشّر عن أنيابها ومخالبها ويسل لعابها وتقول لهم :

((آه..حكمتك الآن .. قل لي اليوم من أين ناكلك يا "هاتو" بن "هاتو" .أنا أمك التي ربّتك حتى تسمن وتاكلك.. والآن ما عندك وين تروح .. كالياتك..كالياتك...))

كان بنعمر يعلم هذا ويعلم أن خطاياه الأرضية كثيرة. لكن افتقادا ما للأمان وضياعا ما في صحراء من الصقيع والعجز هما اللذان كانا السبب، هما اللذان جعلا منه كائنا آخر

في تلك اللحظات، فصرّ أسنانه من الرجاء وشعر لأول مرّة أمام ما يرى ويسمع أن تمرّده الدائم وسخطه ما كانا ليغيّرا شيئا.

دخل عند الصباح. لم تكن هناك من شمس أبدا. جلس عند جدّته العجوز العمياء.كانت مستيقظة منذ الفجر. أشعلت نار الحطب. توضأت وصلت، هي التي تعرف بيتها جيّدا وتتحرّك في فضائه بلا دليل. إنها أقدر منه على معرفة الفضاء الذي ولدت فيه. أما هو فيظلّ يعتبر نفسه دوما كالزائر أو كالضيف المار.

جلس جنبها بالمونطو الثقيل المبلل بندى الفجر. وراح يتأمّل النار دونما رغبة في الدفء. نار بيضاء ، صفراء، حمراء شعاليلُها.صمتَ طويلا. شعر بكل مفاصله وهي تهجع. وهي تسكن. ضربات القلب كانت في اليدين. وكان الدم يتصاعد إلى وجهه. شعرت به حدّته جنبها أول ما دخل..صمتت فترة.. خفقت عيناها الغائرتين مثلما تخفق جناحا طائر يموت.كان في سكونها طمأنينة وهي بعصّابتها السوداء على رأسها ملئى بتصاوير الزهور الصفراء. قالت دون أن تلتفت إليه:

- لقد وجدوا بنتا مذبوحة قرب الكوميسارية هذا الصباح...

في ساعة أخرى من الليل...

جلست خالتي الزهرة عند الكانون وبجانبها بايه بكل ما فيها من الأنوثة المتألمة. تنظر إلى النار المتّقدة. الحطب يحدث قزقزة محبّبة والجمرات كبيرات ملتهبة ينبعث منها ما يشبه النور. يلمع ويريد أن ينتشر. الصهد فيها أكثر؛ حتى أنها أبيضت فغدت الغرفة دافئة.

نظرت إليّ بايه بعينين غائبتين عندما دخلت. كانتا مستيقظتين.سمعتهما تتحدثان حديثا متقطعا يتخلّله الصمت. صمت الحال قلتُ.ماذا يمكن أن نعلق على ما يجري؟ إننا لا نملك غير السكوت. هذا أفضل.ليس هناك يقال. وماذا يمكن أن يقال؟.فالكلمات اليوم فارغة من المعنى والمواساة لا تنفع. الصمت أسلم. وحده اللهيب في الكانون يقول اشتعاله.

– تعال اجلس معنا قليلا . قالت خالتي.

– جئت أطمئن عليكما فقط..أنتما لم تناما بعد..لا بد أن بايه متعبة ...

لم تتكلم بايه .أصدرت صوتا فقط، أشبه بالأنين. صوت طالع من بئر منسية. كانت مقرفصة. الوجه بين الركبتين والشعر منسدل عليهما هفهافا تتخلّله ظلال اللّهب. عيناها تلمعان الآن وبشرتها قد اتخذت ألوانا حامية، متفجرة، مليئة بالانفعال والصبر والليونة.

– كنت أحدثها عن طفولتك..عن القرية...

– أوف خالتي..ليس في الطفولة ما هو مهم. القرى ذهبت..لم تعد موجودة تلك التي سكناها زمنا وتسكننا أزمانا..

قالت بايه وهي تنظر إلى النار:

– حقول العنب على امتداد البصر هذا مهم...

قلت في نفسي :

((حقول لم يعد لها من أثر .أيّام ذهبت. وتلك الأصياف التي كانت تطلق شموسها على تلك الأماكن انطفأت. شموسٌ كانت تقوم على العناقيد فتحوّلها من حصرم أخضر إلى

عنب ذهبي وأسود وأبيض وأحمر مترع بالماء الحلو..تنضجه تماما كما تنضج النهود النائمة للفتيات الصغيرات فتخرجهن من كسل الطفولة وغفلتها البهية إلى وهج المراهقة. كانت الصدور تتفتّق عندما يتفتّح ورد الدفلى. وكنا نقول إن الفتيات الرائعات تلهجن بالشبق تلك الأيام.وكنا ننتظر تلك الأصياف بلهفة ولوعة عشاق صغار. وكانت الفتيات الجميلات تعرفن ذلك. فتخفين الصدور الصغيرة الطالعة عنا بحركات تلقائية تعلمتها الأجساد وحدها دون شرائع وآباء. وهذا ما يزيد في شقاوتنا. فنطاردهن ونهمس إليهن: نوار الدفلى قد تفتح وصدوركن قد أزهرت فاتركننا نقطف هذا النوّار..هيا يا أختي دعيني أرى صدرك، أدعكه بيدي هاتين النديتين من الحرارة والعرق..خلّيني ألمس عتبة نهديك الطالعين..

وكانت البنات تهربن منا وتضحكن. تتخفّين بين جذوع شجر الزيتون الوارف الظلال. وبين عرصات العنب، أو تجرين خلف عنزاتهن وهن تتوعدننا بإخبار إخوتهن وتهدّدننا بعصي الزبوج الذي صار أملس من الحمل والدعك.مثل بشراتهن الملساء بلون الطين اليابس أو التراب الأبيض، لا يصلح سوى لغرس اللوز الذي سيبقى مزهرا فينا طوال العمر..))

قلت في نفسي:

((تلك الشموس التي كانت تنضج عرائش العنب انطفأت وما عاد يذكرها أحد)).

– كنت أحدثها عن موسم جني العنب عندنا وعن أعراسه التي كنا نقيمها بالمناسبة.

قلت:

– تلك قصة أخرى..في المرة القادمة ستحدثينها عنها أنت باقية معنا خالتي إلى أن تنتهي هذه الحكاية على خير..فلتناما الآن...

سكتت خالتي ووضعت يدها القوية على كتف بايه التي ظلّت ساهمة، لا تزال مأخوذة بالنار هي أيضا.تلك التي لا أعرف كيف أنقذها منها.

– تصبحان على خير .قلت ثم رددت الباب.

عدت إلى غرفتي وتركتهما. تبدوان منسجمتين منذ أوّل يوم.امرأتان تعرفان معنى الألم ومعنى أن نحب ونفقد. وهما اليوم تنتظران اندمال الجراح دون أدنى أمل في الشفاء. تمرّ السنوات وتبقى الجراحات ذاتها والآلام نفسها تتجدّد في كل مرة، تظلّ غضة ويمكن أن تنفتح لأدنى حركة خاطئة.

عرفت بايه ذلك كلّه عندما فقدت أباها.حدّثتني عنه في لقاءاتنا الأولى. كانت عيناها تلمع عندما تتذكّر. قالت إنها ظلت أياما وأياما بالمستشفى حارسة لمرضه. الأسرّة البيضاء والناس الغرباء وهي وحدها مع أبيها. أخوها في عمله لم يكلف نفسه عناء الزيارة إلا بعد أسبوع كامل. كان يدخل الغرفة خافض الرأس أمام أبيه. يأتي بأشياء يضعها جانبا. يقف ولا يجلس. يتحجّج بعمله دائما. لم يلمس أباه ولا مرة واحدة بل كان يخشاه. يخشى نظراته. زاره مرّتين ثم اختفى ولم يعد سوى يوم دفنه.

أرادت أن تقول أكثر لكنها صمتت وحدّقت فيّ طويلا ثم قالت:

– فيك شيء من أبي..في عينيك شيء منه.

و كنت اكره أن يكون فيّ شبه من أيّ أحد. لا أريد أن أشبه أحدا أو يشبهني أحد.كنت احترم ألمها ولا أكشف لها عن رأيي في هذه المسألة لأن الفكرة تقلقني. فأشرب قهوتي وأبتسم بجهد.

– ابتسامتك أيضا فيها شيء منه.

– بايه إن كان الحديث عن أبيك يؤلمك فلا تخوضي فيه..أريد أن أراك مبتهجة..دعك من الذكريات المؤلمة....

فتستدرك ساخرة

– آه صحيح ..الابتهاج نسيت أن هناك ما يبهج في هذا الوطن...

و تضيف

- فلنبتهج إذن...

و كنت أسكت لحظتها وأتذكر قول بنعمر

- أنتما متشابهان..يا صاحبي " السيمولاكر" وجد صاحبه.

هذه الليلة تمرّ هادئة على ما يبدو. لم أحاول سماع أخبار الوطن.كففت عن قراءة الجرائد وعدلت عن الذهاب إلى مقهى باب وهران. وأصبحت في الأيام الأخيرة لا أكلّم أحدا.

هذه الليلة تمر هادئة ربما لكن الشعور نفسه لا يزال قائما بان هناك من يسيل دمه في هذه اللحظات.بأن هناك من يرتعب كل يوم.لكن ها نحن نتعود قلت لنفسي

((فقد صار الخوف أليفا وصاحبا..روّضنا أم روّضناه؟.لا أدري .لكنه صار حاضرا معنا في كل وقت..حتى أننا نكاد نلمسه. ونصافحه..بل نحدّق في عينيه مثلما نحدّق في عيني صديق قديم ونقول له في آخر المساء:

- تصبح على خير أنت أيضا أيها الخوف..تصبح على خير..))

اليوم الثاني ... ساعة أخرى تمرّ.

درّست طوال النهار الحكمة البائتة مثل طعام بائت، حامضة المذاق أعطيها لأولئك الأطفال الذين لا يزالون يصدّقون الأعلام ويهتفون بالأناشيد.تتطاول أعناقهم الصغيرة لاهجة بما لا يمكن أن يصدّقوه بعد سنوات قليلة فقط، عندما يكتشفون معنى الحب والكراهية معا، عندما يحين وقتهم ويعشقون بكل قلوبهم الصغيرة وهم لا يملكون شيئا في جيوبهم، حين تفور قلوبهم ودمائهم وأمعاؤهم وهم لا يملكون كسوة العيد الجديدة ولا الساعات الماركة وسلاسل الذهب ولا أحد يذكرهم في أعياد ميلادهم أو يفكر فيهم أين يقضون عطلهم.

كنت أشهد أن التلاميذ عندما يكونون صغارا جدّا لا يملّون من رسم الأعلام على الكراريس وهم يخشون من كل قلوبهم أن لا يندلق عليها الحبر وأن لا تمسّها الممحات و تتوقف الأقلام عن لونها الأحمر والأخضر.

كانوا يخشون أن تتوقف تلاوين الوطن في أيديهم .هذا الذي لن يجدوه سوى في المحابر عندما يكبرون قليلا. عندما يعشقون الفتيات الجميلات، البهيات،الطريات ،بنات البشغاوات الجدّد الذين لم ينقرضوا بل كانوا يتخفّون بين شقوق ذاكرة البلد، تحت القبعات الخضراء ذات الحواف السوداء المذهبة بالأمجاد التي لم يحضروها وأصبحوا يصدقون حضورها من كثرة التلفيق الذي لحقها مع الزمن. ولأن الذاكرة كانت تراوغ أحيانا الوطن. كان البشغاوات يتسللون إليه على شكل ببغاوات غنية متخمة رافلة في الفيلات والانفلات متمنطقة..رافعة مرفوعة فوق البشر، سيدة وحدها على هذه الألوان..فصارت الوطن لونا واحدا لا يتغير.

لكنهم عندما يكبرون ينسون جميع الألوان ولا يجدون من يأخذ بأيديهم سوى الكابرانات في الثكنات العسكرية. يرتادون الشوارع والمقاهي ودور السينما الجديدة يشاهدون الأفلام البريئة جدا وسيأخذهم القدر والكدر إلى المساجد غير الحكومية أو إلى الثكنات الحكومية

ولن يعرفوا الفرق أبدا بين الشيء ونقيضه. بين الغد وأمسه.و بين النهر والجدار، بين الثكنة وصدر الأم وبين السماء والبدلات الخضراء المبرقعة.. هذه الدورة فلكية الجزائرية لن تنتهي أبدا سواء قلنا لهم أن الوطن هنا في القلب وليس هنا في الجيب أم لم نقل في المدرسة.لأن هذه الجنادب الصغيرة ستصبح كبيرة وستتساءل وستجد من يعطيها الأجوبة الجاهزة التي تخدم مصلحة جميع صانعي اليقين.حينها أنا متأكد أن هذه الجنادب ستلعنونني من قلبوبه عندما يتفقدون جيوبهم ويفتشون في عيون أمهاتهم عن الفرح. سيقولون حينها في سرّهم وأنا أمرّ بهم.

((ذلك المعلم الوغد كان يقلي علينا..كان يقول أن الله يحرّم السرقة ومن يسرق يدخل النار..و الكلّ كان يسرق خارج أسوار المدرسة..و كان يقول لنا لا تكذبوا فالله لا يحب الكاذبين وكان الكل يكذب على الله وعلى الوطن وعلى نفسه..هه ..كان يقلي علينا ويقول أن الطير في السماء يقول كوكو والجرس يقول رن ..رن ..

كوكو في طيزه..ذلك المعلم الذي خدعنا..

أعلم أيها الصغار أنكم عندما تكبرون قليلا قليلا ..بقدر ما تتسكّعون في الحواري والطرقات والأسواق لتبيعوا أكياس البلاستيك، ستكرهونني وستسخرون مني لأني كذبت عليكم . لذا أنا أجرّب أن أكره نفسي منذ الآن وأتعود على ذلك.

علمتهم قلت، تلك الحكمة البائتة التي سترث الأرض بعدي وعدت إلى العبّاد مسرعا قبل مغيب الشمس. ما كنت أريد أن ألحظ في طريقي تلك البدلات الخضراء في كل مكان ولا تلك المتاريس عند البنايات الحكومية الملونة أرصفتها بالأبيض والأحمر. وما أحب أن أرفع وجهي إلى أبراج الحراسة المبنية على عجل في الأعالي أمام المباني الحكومية.

لقد صفدت مداخل العمارات بالحديد وصارت الشرفات أقفاصا كبيرة تعلّق فيها الأمهات غسيل يومهن الذي يتوقعن منه كلّ شيء عدا أن يرجع الابن أو الأخ أو الزوج

سالما، فهن تتلفتن في كل حين بأعين قلقة وصدور واجفة من شارع لآخر..من منعطف إلى منعطف ومن نافذة إلى أخرى..و من تنهيدة إلى أخرى.

كنت لا أريد من الحزن أن أرى وأنا عائد إلى البيت مساء تلك الوجوه المتعبة لأناس كانوا يدخلون المدينة فيما مضى ليتسوّقوا ثم يعودون إلى قراهم، أما اليوم فهاهم قد أخطئوا توقيت العودة أو أن أبواب المدينة أغلقت دونهم.في مضى يتسكّعون في الشوارع دون هدف،و يدورون حول أنفسهم في الأماكن ذاتها كما في المتاهة، مشدودين من أرجلهم بحبال الفقر. وهاهم اليوم يطاردهم القتل ويضيف إلى متاهتهم أروقة أخرى..لن تنتهي أبدا .

كنت أمرّ بالمتسوّلين الذين يرابطون عند النخلات السبع للجامع، لا يزالون هناك حتى المغيب منذ مئات السنوات ربما، يتناسلون تحتها في عوزهم الأبدي، منتظرين المصلين القلقين الذين توضئوا في بيوتهم ويريدون أن يخلصوا من صلاة المغرب ليعودوا إلى أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم ثم يحكموا إغلاق الأبواب بالمراتيج الجديدة ويتطلّعون من عين الثور إلى الدرابزين ليترصدوا ذئبة الظلمة عند آخر السلالم.

لم أشأ أن أجد كل ذلك أمامي فأنا أعرفه، ويداخلني شعور حادٌ به في كل مساء. ولا أحب أن أتذكره لأني مللته .

لم أشأ أن أمر أيضا على مقهى باب وهران.لا أريد الجلوس فيه فبنعمر التزم بيته منذ مقتل ليلى وصار لا يخرج منه. كان عليّ أن أراه لأني سمعت أنه اقتلع باب الدار وبال عليه وبات البارحة يصيح طوال الليل في بودغن[38] .

– تعالوا يا الكلاب ..يا أولاد الـ ..أنا هنا..أنا بنعمر بن خميس الرعيني ..أقتلوني أنا أيضا لماذا تعافون لحمي ؟.

---

[38] حي شعبي فقير

وسمعت أن أي رجل لم يتجرأ على الخروج إليه ليهدئه أو يعقله لأن جعل القلوب في السراويل بهذا الصياح. بل سكت الناس وراحوا يتلصّصون عليه من خلف أضلاع النوافذ وهم يقولون:

- لا بد أنه شارب..لا يخشاهم لأنه سكران.

و ما كان بنعمر سكران بل كان صاحيا. ولم يكن في المدينة أصحا منه.

ولم يدخل ولم يتوقّف عن الصراخ إلا بعد أن سمع صوت جدّته يأتيه واهنا من أمام الباب المشرع.

- آه ..يا بنعمر يا وليدي.. رد الباب وأدخل الله يرضى عليك..أدخل راه البرد ..أدخل .

سمعت عن ذلك.و كنت أحدس أنه سيقع قبل أن يخبرني به أي أحد.لكني لا أستطيع له شيئا ...

((من ذا يستطيع اليوم أي شيء لأي أحد)). قلت لنفسي.

عندما كنت عائدا من عنده بعد المغيب كنت منهكا من لقائي به. ومما جرى لي معه. وفي طريقي رحت أفكر ببابه وبيحيى أخي ماذا يصنعان في غيابي. لقد تعلما أن

يظلا صامتتين. أخي يدخل البيت ويسكت، ينعقد لسانه في الدار وتعتريه حالة من الذهول فلا يمكنه التفوّه بأية كلمة. لقد أفحمه شيء ما. العجز ربما، أو أنه يظل مطاردا خيالات أمه وأوهام صباه مع شجرة الرمان. إنها عارية اليوم وجذعها قد اسودّ وتشعّبت أغصانها وندت منها رائحة ندية صفراء وغدت جراحها مفضوحة وندوبها واضحة وامتقع لونها مثل رجل ميّت امتقع واقفا بالخلاء في ليلة مظلمة.

الرمانة ذات الزهور الحمراء الناعمة لها حكايتها هي أيضا. كانت ضعيفة، مسكينة تلك الزهور، فهي تورق كل عام لكن الزهور تسقط بغزارة فتفترش الأرض بالحمرة القانية عند كل صباح. وفي الليالي الصيفية المقمرة تبدو مثل نقاط من الدماء متجمدة على الأرض وتبدو الشجرة كما لو أنها تنزف ..بها الشوق إلى المكان الذي جاءت منه تقول أمي. لم أسألها من أين جاءت؟. كانت تقول عنها إنها من بلاد بعيدة. غرسها جدي..أهداها له أحد العابرين إلى الحجّ.و تبرق عيناها بالدموع ثم تبكي عندما ترى زهرها يسقط فتقول عنها إنها تنزف المسكينة وإن هذا الزهر دمُها. وكنت أقول لنفسي دائما أن هذا الشجر ة تشبهني..جرداء مثلي وسوداء الجذع، على الرغم من أنها تخبئ في داخلها كل عام ربيعا قادما لا يخطئ موعده..لكنها تتخلّى عنه كلّما يحين أوانه، تعطي بعض حبيبات الرمان بلا حب، بلا عنفوان وبلا وفرة. ثم لا يبقى منها سوى بعض الحبات التي سرعان ما تنفلق فيأكل من زمردها الطير.

وكنا لا نأكل منها منذ زمن . لذا سمّيتها النازفة. وكانت أمي تدعوها بالغريبة.

لاحظتها بايه البارحة أول ما دخلت بيتنا. تأمّلها وأشارت إليها مشفقة وقالت عنها إنها تبدو عارية وجافة وسط الحوش[39]، وحيدة كأنما لا حياة فيها.

فقلت:

– الغريبة وجدت الغريبة.

و لما سألتني عن هذه التسمية أخبرتها بقصتها.فأشفقت عليها ولا بد أنها تحاول الآن أن تحبها .. وكنت قد أخبرتها بقصة يحي معها أيضا ، منذ أيام، فضحكت وقالت إن أخي هذا ما كان يهدي سعاد إلا ما كانت تملك. كان يعيد لها أشياءها فقط دون أن يدري .

[39]فناء الدار

لما قالت ذلك نظرت إليها وفكرت أنها غريبة فعلا. وأنها مجنونة بشكل ما أو ممسوسة بطريقة لا أعرفها.

في الوقت الذي كنت أعبر فيه الدرب المؤدي إلى بيتنا سمعت صرخات عالية تأتي منه. أسرعت ودخلت فوجدت يحيى عاريا تماما، يصيح ويزعق وقد حمل سكين المطبخ وراح يهددّ بأنه سيخرج ويلاحقهم في الجبل، وسيذبحهم واحدا فواحدا . كان أبي واقفا قبالته وقد تسلح بالكلّاب وأسلاك الحديد اللين الذي ينشر عليه الغسيل والعرق يسل منه من الغضب وتهدّل صوته من الجهد وصار وجهه بشعا، يزعق هو أيضا، ساعداه الحليبيان يرتجفان ووجهه محمر منتفخ.

- سأربطه هذا الكلب..ألا تستحي تعرّي على الناس وتسب فيهم؟ أنت تقدر تذبحهم ..أنت.هه ..طز..أنا نوريك .

وكانت خالتي الزهرة تحاول بجسمها القوي أن تمنعه من ربطه بالسلك وقد استنفرت كلّ قوّتها وهي تجهد في أن تحول بينهما. ولما تعبت راحت تستجدي أبي وتطلب منه أن يدعه وشأنه وتقول إن المشكلة لا تستحق فهو لم يتناول دواءه من (الهالدول) و(النيوزينان) منذ أيام، فالأمر هيّن، وسيشرب دواءه ويعود إلى هدوئه ولا داعي لتقييده بالأسلاك.

كانت أمينة هنا أيضا، لا تزال بالحايك على خصرها، قد وصلت للتوّ على ما أظن، تبكي جالسة على الأرض بشعرها المحلول. وقد صار وجهها أسود من الخوف والنحيب:

- آه يا ربّي ..لماذا يصير لنا هكذا ..لماذا ..ماذا فعلنا ..ماذا فعلنا ؟...

كانت في شهرها التاسع ، على وشك الولادة، بطنها منتفخ والهيئة متعبة جدا. وكنت أخشى عليها من هذه الصدمات . تمنيت أن لا تصادف مثل هذه المواقف.لكنها كانت تأتي إلى البيت لتهتّم بنا وبأبيها خاصة هي التي تشقى مع أبنائها وزوجها المسرّح من العمل من شركة مفلسة.

أغلقت بابه غرفتها على نفسها فلا بد أنها ماتت من الخوف لما رأت يحيى عاريا وسط الحوش. لقد حذرتها قبل مجيئها قلت لها إن البقاء عندي، في البيت مهما كان قصيرا سيكلفها غاليا. طلبت منها أن تعود إلى بجاية، أن تسافر وكنت سأرافقها وأوصلها إلى مدينتها حيث بيتهم القديم. لكنها كانت عنيدة وتقول إنها على استعداد أن تقبل أي شيء، المهم أن تبقى جنب سيدي بومدين لأن عندها ما تفعل هنا. وكنت أستغرب هذا العناد وهذا النوع من الجنون في امرأة يحيط بها كل هذا الخطر، هي المطاردة ، المهدّدة بالاختطاف والقتل، لكنها لا تفكر سوى في القرب من الضريح.

كان يحيى واقفا وسط الحوش بجسمه النحيل وقد أمسك بسكين المطبخ وهو عار تماما بصدره الناتئ العظام وذراعيه الناشفتين من العضلات وعضوه المتدلي وسط شعر العانة الكثيف.ضامر الرجلين بركبتين لا تكادان تحملانه ولحية كثة وهو يصيح:

- سأقتلهم...الكلاب ..سأذبحهم..الأوغاد...

كنت قد وصلت في اللحظة المناسبة.أدخلته إلى غرفته وأغلقت عليه الباب وهو يسخط ويبكي.قلت لأبي إني سأتولى أمره بعد أن يهدأ قليلا، وعندما سيجوع في آخر الليل سأفتح عليه الباب وسأعطيه دواءه وسيهدأ.

قال:

- يجب أن أربطه..يجب أن يتأدّب .

قلت:

- فات أوان التأدّب اليوم اطّفْرت..لقد جنّ وانتهى الأمر .

نظر إليّ طويلا ، لا أعلم فيما كان يفكّر ثم قال:

– أنت أيضا يحي نهارك..ثم رمى عدّته. وهم بالخروج من البيت .

لكن خالتي أمسكته من الذراع فجأة وصاحت في وجهه:

– هذا ما تعرفوا أنتم .ما تعرفوا غير تربطوا الناس كالبهائم..الولد مريض وأنت زعما اللّي عاقل ..كان لازم تحرص على أن يشرب الدواء في وقته مش تجري تربطه مثل الدابة.

قال لها غاضبا:

– أنت أسكتي ..فمّك محلول من بكري.

توقف ونظر الينا جميعا ثم انهار على المقعد الخشبي الصغير وراح ينظر إلى الأرض وهو جالس. كانت شيخوخته مستثارة مشتعلة من الغضب والعياء.لقد خبت زفراته الآن وانتابه شعور بعزلته في تلك اللحظات لما سكتنا جميعا. ساد الصمت بيننا. فقد كفّت أمينة عن النحيب وجلست خالتي على مقعد آخر من الخشب قبالته وبقيت واقفا أمام باب الغرفة.

كنا صامتيين . الحوش فارغ من الحركة والمساء يتقدم . كان الهدوء يعم العباد كلهّ كأنه قد أقفر من أهله لأننا لم نعد نسمع سوى زعيق يحي وهو يصيح بكلام غير مفهوم . ميّزت منه غير ذلك التهديد الأخرق الذي لا معنى له.

– سأقتلهم..سأذبحهم كما يذبحون الناس.

في آخر الليل عندما حان وقت العشاء، هرست حبات الدواء ليحيى في حسائه ووضعت له عشرين قطرة منه في الماء الذي يشربه وفتحت الباب فوجدته قد لبس قميصه فقط. راح ينظر إلي صامتا. كان لا يكلّمني كثيرا، كنا نعرف ماذا نريد من خلال النظرات فقط، قلت، إنه يفهم كلّ شيء. ليس مخبولا تماما بل نحن المخبولون الذين لم نستطع أن نتلاءم مع شرطنا الجديد. إنه خلف حجب الدخان لا يستطيع أن يخاطبني ولا أن يخاطب أحدا من الذين استسلموا مثلنا.. أكل طعامه ثم نام. لا بد أن الدواء فعل فيه فعله فطرحه أرضا ولا بد أنه تعب أيضا من الجنون وأعطى لنفسه بعض الراحة قبل أن يعاود كل شيء من جديد في الصباح القادم.

خرجت بايه من غرفتها وجلست إلى خالتي الزهرة في المطبخ. بدت ساكنة. قالت إنها خافت قليلا لكنها شعرت أن يحيى لم يكن عنيفا إلى تلك الدرجة التي تحوّلت إليها الأمور عندما تدخل الكلّ بتلك الطريقة. أمينة هدأت هي الأخرى وعادت إلى بشاشتها المعهودة. لكننا ظلّلنا صامتين.

شرعت خالتي في الضحك فجأة وراحت تعانق بايه، وأخذت تحاول أن تخفّف عنها ببعض الحركات ثم انطلقت تحكي عن زوجها لأول مرّة أمامي. كيف أنهما لما اتّفقا على الزواج جبن وخاف من جدّي وكيف أنه كاد أن يقتلهما عندما ضبطهما معا. وكيف أن زوجها هرب فلحقته وأرغمته على أن يكون رجلا ويطلبها من أبيها وهي تعلم أن أباها عازم على قتلها بعدما فكت وثاقها وهربت. كان يبحث عنها لما جاءته مع الشاب الذي كان ابنا لصديقه الشيخ بوبكر الله يرحمه. كان الرجل قد وصل قبلهما وجاء بنفسه ليطلب البنت للولد لما علم بالخبر.

كنا نضحك وكانت خالتي حيّية، فرحة وهي تنظر إلى بايه وتبتسم. كانتا متواطئتين قلت. هاتان المرأتان المتواطئتان من معدن واحد...

اهتمت أمينة بطعامنا وغادرت إلى بيتها القريب من هنا. جاء زوجها، وقف عند الباب ولم يشأ أن يدخل. قال إنها تأخرت كثيرا جدا، أكثر ممّا ينبغي وقال أيضا إنه لا يوجد أحد خارج بيته في هذا الليل وإن الطرقات خالية. وكانت رائحة الكِيْفْ في أنفاسه لذا بدا مرتبكا. شعر أني أدركت سبب تردّده في الدخول إلى البيت فخفض رأسه..لم يسلّم على أحد وأخذ أمينة معه.

بتّ أفكر اللّيل كله في بايه وفي ورطتها هذه وتساءلت إن كانت هذه المرأة تعرف الحب حقّا..أم أنها بهذا التكوين لا تعرف ماذا تريد.

و قلت لها في نفسي:

((آه يا بايه يا مدار الأفلاك الذاهبة إلى نهايتها..يا خفقة منيّ..يا سقطتي التي أحب. كم مرّة عثر القلب في رحلته الطويلة إلى معناه وكم سقط. ما أنت وما الذي جاء بك إلى تلمسان. هل هي رحلة العودة إلى المنابع الأولى كما قال بنعمر؟. أم هو نداء الموت، أشار لك في بجاية لتلتقي به هنا في تلمسان؟.هل سيكون هذا مصيرك. هل أنت تتبعين حدسك؟ أم أن قدرا جميلا رمى بك إليّ من أجل شيء ما ينتظرني؟.

يا بايه..يا هذا القلب كم عثر وكم سالت دماؤه في الأودية والصحاري. ها أنت هنا قريبة مني وبعيدة عني ..لا يمكن أن تطالك يدي وأنت فيّ ومنّي. ها أنت معي ولا يمكن أن أصل إليك.

..لقد أشرق القلب بالضياء عندما سكنت خرابه وصار مرآة مجلوّة عندما جئت من أقصى الأرض ؟.لِم التقيتك ؟ ولِم أحببتك؟ ألأكسر جراري التي عتّقت فيها الرّوح والجسد؟.ها أنا أسفحها عند قدميك كاهينتي البهية ذات الثديين العامرين بالحليب والشفتين المغدقتين بالخمرة. ها ثديٌ واحد في شفتي والآخر بين شفاه سلالتك التي تسكنك. لقد صرنا أخوين أنا وأنت من جسد واحد شربنا كما تقول الأسطورة. هذا السفر طويلٌ..طويل إلى المعنى.

لكن لماذا يا أنسي وجرحي وسهوي وصحوي وسكري..لذّتي وأذاي ..لماذا تغرزين في جسدي العظام المبرية كالإبر؟ لماذا تغتالينني على سرير محنتنا ولِمَ لا تبعثينني من الموت كي أخلّصك من واغْزَنْ[40] فيك؟لماذا؟.

ها أنت الآن..صمتي وخفقي..سكوني وجنوني ..و ارتجافي وشجاعتي .

لماذا أنت هكذا متردّدة في أن تقولي أحبك بكل لغة تعرفينها ولا تعرفينها؟.ما الذي يعذّب قلبك هذه الأيّام؟.

لقد انقلبتِ إلى ساقية صافية وكنتُ أنا السمكة التي شفطت خاتم النسيان. أنا لم أنس منذ خلقت..إنني لن أنسى. ولم أخطئ في اختيار الجواد الذي كان علينا أن نبتعد به عن قصر أبيك.كانت هناك ظلمة وكان هذا قدري.

أنت يا بايه حديقتي وأنا الطائر الذي ضيّع شجر ولادته. يا زمرة القلب القاسية. الحمامتان اللتان ترقصان وتذكرانني بكِ طارتا وها أنا أنغرز في جوف الأرض..وأسمع الحكاية فأدخل في التراب، إنيّ أنغرز فيه..أغوص..ولم يبق منّي غير شعري.فانتزعي الخاتم من يدي وأخرجيني من رحم الأرض وعانقيني..لأُولد على يديك مرة ثانية..ساعديني على تذكّر ما كانت الحياة قد منحتني إيّاه في أصل ولادتي، لأني نسيته ولأنهم ألبسوني الخاتم.. انتزعيه من يدي ثم عانقيني يا بايه.

عندما التقيتك قبل شهور كنت تبحثين مثلي عن شجرة نسب تأوين إليها وكنت أنا البستان الذي حطّت به البجعة المتخلّفة عن الهجرات الضرورية من نفسها. استقر بك المقام ها هنا ..عندي، بين يدي أنا الباحث عن المرأة البهية التي تسلخني عن نفسي فكنتِ لي اليتيمة التي أهدتني ضفائرها حبلا للنجاة في أول الأمر ثم خضّبت يدي بحنائها وخبأتني تحت قصعة الوفرة في جسدها.

---

[40] بمعنى غول بالأمازيغية

وها أنت اليوم تتركينني وحيدا في صحراء أسئلتي وشكّي ..في لوعتي وأساي، أهفو إليك وأنت فيّ..وبين يديّ.

بعدما اكتشفتِ أن في تلمسان بعض الأريج من بجاية..لما صعدنا معا إلى سيدي أبي مدين أول مرّة رحتِ تسألين عن سرّ مجيئه ليموت هنا، فقلتُ لك إن الأمر تافه..حكاية حكام يخافون على ملكهم. ولكنك تساءلتِ عن عائلته وعن أولاده كأنما كان يعنيك هذا الأمر بجدّ .كنت تسألين هل ترك أولادا في تلمسان أم أنهم ظلّوا هناك في بجاية. وقلت لك مازحا : وهل ترك ابنة يتيمة جميلة تدعى بايه بعدما تفرّق الصحب وعادوا من الدفن. ابنة يكون قد علّمها التوكل وأسرّ لها باسم الله الأعظم الذي يتحوّل به كل شيء إلى نور.

ثم استدركت وقلت عندما وجدتك جادة وغارقة في التفكير.

– أنت تصدقين مثل هذه الأشياء؟ ..لقد اختلط التاريخ بالخرافة وعليك أن لا تصدّقي كلّ شيء.

قلت:

– لم لا؟ إنها من الخرافات التي يجب أن تصبح حقائق يجب أن نصدق شيئا على الأقل في هذا الوطن..شيئا واحدا نتشبّث به حتى آخر النفق..هناك سرّ..و يجب أن أعرفه.

قلت لك:

– أنت سرّي الأعظم ..أنت السرّ الذي أخفيه عن الأشهاد..يا بايه ولا يجب أن يعرفه القتلة.

فقلت لي من غير ما مناسبة:

– مات أبي بعد ما عانى شهورا من المرض. ولم يأت أخي ليواسيني. كنت وحيدة وسط البياض الخانق للأسرّة البيضاء..كنت وحيدة وخائفة عندما كان يحتضر في الصباح..مات بين يديّ وما استطعت أن أخبر أحدا..مات في حجري ولم أقوَ على التفوّه

بكلمة واحدة لمن كان حولي حتى آخر النهار حين جاءت الممرضة لتعطيه الدواء. كنت ضائعة وحدي فاقدة القدرة على الكلام وجسد أبي الميّت بين ذراعي ينام لساعات وساعات...

قلت:

– آه يا بابه كم كان ذلك قاسيا ومؤلما ليت أني كنت عرفتك أيّامها ...

و ضممتها إلى صدري وخبأتها في قلبي وقلت في نفسي:

– لهذا أنت قاسية..لذا حبّك كل هذه الصرامة والحدّة.. أفي الحب كل هذه القسوة؟.

قالت:

– لا وقت لديّ ..فالحب يقتل ...

قلت:

((الله ..الله يا أبهى النساء ..الله منك ..و من اسمك.))

في آخر الليل...

بتّ ساهرا الليل كلّه.لم أنم خوفا من يستيقظ يحي فجأة ويعود إلى تهديده. سمعت صوت انفتاح باب الحوش. لا بد أن أبي عاد من الجامع بعد صلاة العشاء. سمعته يسأل عن أمينة التي غادرت على دارها. تعشّى وحده وأغلق على نفسه غرفته ونام منذ ساعة.

بتّ مستيقظا وحدي في غرفتي أستعيد لقائي مع بنعمر هذا المساء..ذلك الذي جعلني أتأخر. كنت قد افتقدته وسمعت عنه تلك الأخبار السيئة.فصعدت إلى بودغن مرورا بسيدي شاكر. كانت الحوانيت مغلقة قبل الغروب في هذه الأحياء. والطرق الصاعدة موحلة، قد أقفرت وما من بشر. سكن الناس في بيوتهم وآووا إلى أسرّتهم ومدافئهم أو مجاميرهم وشغّلوا كوانينهم المطفأة طوال سنوات لأن قارورات الغاز صارت نادرة في هذه الأيام الباردة.

كنت أسمع وقع خطواتي يتردّد على الأرصفة. وكنت أشعر أن بعض العيون تترصّدني أو أنه خيّل لي ذلك من التعب والقرف. تحاشيت التفكير في ذلك لأنه قد يكون مجرّد وهم، مجرّد هلوسة...تعثّرت قليلا في طريقي إلى بيت صديقي لأن قنوات صرف المياه القذرة كانت على سطح الأرض بارزة فالبيوت هنا مبنية في الحجر الصلد الذي يستحيل حفره.كان أهل بودغن والرياط يسكنون الصخر، يحفرونه ويسكنون في أماكن لا يمكن أن تنبت فيها الأمنيات. كانت تنزلق على الحجر.فقلت

((صعب أن تسكن الصخر ولا يتحجّر قلبك على الذين يأكلون البلاد من القلب.. صعب أن لا تكون قاسيا كالصخر وأنت تولد فيه وعليه ومنه تأكل وعليه تنام..))

ثم فكّر ((باطل الأباطيل وقبض الريح أن تزرع الصخر أغنيات فإنك لن تجني غير الحجر..ففي الرّيح إذن كلّ هذا التعب.))

كان بنعمر غرفته لما فتحت لي جدّته الباب الحديدي الذي عاد إلى مكانه.

- هه..يوسف ..كيف الحال يا وليدي ..كيف هي الزّهرة ...

ثم همست لي في أذني

– والعاتق عندكم راهي بخير؟.

– بخير يا جدّة..بخير ..كلهم بخير .

قالت بصوت مرتفع كي يسمع بنعمر:

– تعال شوف يا وليدي صاحبك كيفْ عامل..قل له يخرج شوية يشوف الناس ..يمشي لأشغاله..يدور في الهوا خير من هاذيك القعدة .

– نعم ..يا جدّة أين هو؟.

–في فراشه..ما يخرج أبدا ..هاهو.

وفتحت باب غرفته.كان لا يزال في سريره. نظر إليّ صامتا. لا دهشة في وجهه. لقد فقدها. وراح يحدّق في الجدّار قبالته.

((ما الذي يجري يا صديقي قلت في نفسي ..قد أخرستك الصدمة. أخرسك الوطن واخذ منك لسانك. أنت أيضا. لست وحدك..ها أنا معك..أعلم ما يجري فلا تتركني أنت أيضا هكذا في الرّيح. تحت مطر الوحدة وثلج الخوف.

– جئتك بقرعة روج من النوع الذي تحبه.

–.........

– ألا تريد أن تشرب ؟.

–.........

– مالك بنعمر؟ أحك.

– ....

كان ينظر إلي بعينين فارغتين. لا أدري ما الذي كان يقوله لنفسه. صمت طويلا وتركني واقفا عند رأسه..ثم تكلّم فجأة:

– أنت لم تعد تشرب يوسف ..فلماذا تتعب نفسك.

– أخيرا تكلمت..أوفْ ..أنت حيٌّ إذن..

– خلّيني وحدي..أريد أبقى وحيدا من فضلك.

– ولماذا ؟.

– هكذا.

–كيف هكذا ؟.

– آه يوسف راسك غليظ ..خلّيني وحدي يا سيدي ..خذ قنينتك واذهب .

– أوْو ..ما هذه الضيافة بنعمر؟.

– تتكلّم يا السّي يوسف هادئا كأنما لا شيء يحدث. كأنّما لا شيء يعنيك.

– أيّ شيء تقصد؟.

– آه يوسف ..أنت مزاجك طيّب هذا اليوم على ما يبدو.

كان بهذا الكلام يسخر منيّ بطريقته المعتادة. هزّ رأسه ولم يعد ينظر إليّ وعاد إلى حالته .

– أي شيء تقصد وما هذا الذي لا يعنيني ؟.

–........

قلت جادا :

– أنت تريد أن تقول أن موت ليلى لا يعنيني .

–.....

–و موت الناس أيضا..هكذا تريد أن تقول ؟.

–......

– أنت تعرف..و كلنا يعرف أننا لا نستطيع شيئا لأنفسنا أمام ما يجري..و لا نستطيع شيئا للآخرين أيضا. هكذا هي الأمور في هذه البلاد..هذه الأيّام.

سكت بنعمر وقرّر أن لا يلتفت إليّ. كان يحتج على الوضع بطريقتة التي أغاضتني .فواصلت.و قد أثارني صمته:

- يا بنعمر يا خويا هكذا تجري الأفلاك هنا. وهكذا مزاج النجوم عندنا. كمزاجي ومزاجك. لا يمكن أن نعدّل شيئا في هذه الدورة الفلكية الجزائرية..الذبح والدم الذي يسيل ويهدر على هذه الأرض.أتحسب أن هذه المسائل حديثة.. خاصة بعصرنا دون غيره؟. لا لقد وقع هذا دائما و لأتفه الأسباب.و لكننا ننسى بسرعة. هو القتل إذن ..هو الموت الذي يحاصرنا عندما تشتد الأمور ولا نجد مخرجا..فيكون الملجأ السريع..هو الموت إذن ..لكنه على الرغم من كل شيء يظل لا يعنينا. لا نهتم به . لا نلتفت إليه مادام بعيدا عنا ..

ومع ذلك أقول أنه ليس في الأخير وفي كل الأحوال سوى ملكا للذين ماتوا وحدهم.. الموت ملك خالص للذين يجربونه.لأنه على الرّغم الكلام الذي يقال..سيبقى دوما حالة شخصية..لن ندرك فظاعتها لأنّنا لا نستطيع أن نكون في مكان أولئك الذين يقتلون ولا في مكان أمهاتهم وأوليائهم. هم يجرّبون ذلك في أجسادهم أما نحن فنجرّبه في اللغة..نجربه في الكلام.. ما دام لم يصبنا..ربما يتناهى إلينا صداه.. صحيح.. أو يصلنا صهده، لكنّنا ما دمنا لم نمت بعد أو لم نقتل فإن كلّ كلام سيبقى بلا معنى. وعندما نجرّبه.. وعندما نذوقه..حينها..لن يهمّنا ما سيقوله الناس عنا وعن موتنا. لأن الكلمات ستصبح مجرد عبث.

تلك الكلمات التي تلقى في التعازي وفي الجرائد أو في الكتب.ليس لها من معنى.لأن عيوننا لا تزال تتحاشى عيون أمهات وأبناء المقتولين أو زوجاتهم و لا زلنا نقول إن هذا قضاء الله وقدره لكي نتخلّص منهم..نحن لن نتألم مثل آلامهم..هذه التي لن نكون جديرين بها أبدا.. أنت على حق عندما كنت تقول لي دائما إننا اليوم لسنا جديرين بآلام الجزائريين عبر تاريخهم الطويل من القهر والنضال. فنحن لم نقف عنده في يوم من الأيام

بجد .لم نتأمله كما ينبغي لنصنع حاضرا مختلفا.بعيداعن الدماء.. إننا نكرّر الأخطاء ذاتها لذا أقول أحيانا أننا لسنا جديرين بتضحيات الذين مضوا ولسنا في مكانتهم.لم نستفد من جراحاتهم . لم نعد جديرين بها. لم نكن كذلك في كلّ مرحلة ومنذ أزمان بعيدة ..

وقفت عند النافذة التي تطل على المدينة ونظرت إلى تلمسان من فوق، فسرى في جسدي هواؤها البارد ومرّ على وجهي. كانت مستلقية على سرير خوفها في امتداد البصر، هادئة ساكنة في هذه اللحظات التي تسبق مغيب النهار. وتنهدتُ بعمق فتنهدّت المدينة كلّها معي وانقلبت على جنبها الآخر وأعطتني ظهرها.

ثم أضفت دون أنتظر منه ردّا:

– يا بنعمر ..إن دفاعك اليوم عن هذه الفكرة أو تلك وعدم دفاعك..وقوفك مع هذا الرأي أو ضدَّ هذا..تحليلك القويم أو غير القويم..سخطك..رضاك..شجاعتك أو جبنك..و حتى إيمانك أو كفرك..كل هذا لن ينفع اليوم لأن الأمور أصبحت أكبر منّا ولأن الجنون أصبح هو القاعدة. لقد جنّ جميع الناس في هذه البلاد والكلّ يتقاتل..

أخذت نفسا آخر طويلا ثم أضفت:

– وأن تضيع أنت أيضا يا بنعمر يا خويا ويسيل دمك ويغيض في الأرض بدون جدوى فهذا ما يريده الذين أكلوا البلاد من القلب. إنهم يضحون بي وبك لكي يرفعوا مجدهم ولكي يستطيعوا الخروج سالمين من مخابئهم. إنهم يصمدون بموتنا..فهم يعلمون أن الضربة الأولى نحن من نتلقاها عنهم لأننا لا نملك متاريسهم. عرايا نحن أمام الطلقات الأولى.

والأكيد أن موتنا هكذا سيطيل أعمارهم قليلا..

–.....

– أنت تعلم أفضل مني أنه عندما تموت أو تقتل يأتون بكل ما يملكون من الأسلحة يضعونك في صندوق ويطلقون عيارات نارية عند قبرك المفتوح حتى تطير روحك إلى أبعد

مكان.. بعيد جدا عن ذاكرتهم. ثم يخطبون عند رأسك ويشهدونك على حبّك للبلاد والعبّاد..أنت الذي لم تكن في يوم من الأيام تحتاج إلى شهادتهم.ثم يمتنّون لك في قرارة أنفسهم لأنّك نموت بدلا عنهم. أما هم فيرجعون إلى نسائهم وخزائنهم سالمين قد قاموا بواجب الدفاع عن الوطن عبر جسدك..عبر دمك. أنت الذي لم ترهم قط ولم تعرفهم قط ولم يعرفوك...

هنا سكت قليلا..و عاودت النظر إلى تلمسان التي كانت ترزح تحت وطأة المساء الرصاصي.قد غزاها الضباب من كل الجهات وراح ينتشر عبر الأزقة فلولا فلولا تحمل ألوية حمراء راحت تتوزع في الشوارع وتغمر البنايات والأشجار والصوامع.خبت الأصوات الآن في كلّ مكان فعادت مدينةً منسية تحت الضباب محاصرة.. تهجع بعد يوم دام من المجانيق النارية التي كانت تستهدف القلوب والنفوس بقذائف الخوف..لقد كان المساء يزحف عليها ويغمرها بالظلام.

وشعرت بكل ذلك السواد يسري داخلي وارتعدت مفاصلي من البرد فقلت:

– إننا عندما نريد أن نفسر هذا كلّه أو نعطيه معنى ما، يتملّص المعنى من بين اليدين تماما مثلما تنزلق بقايا حب" المزاح"[41].فيغدو حامضا..نعم المعنى حامض في هذا الوطن..

هنا سكتّ، تخثّر الكلام في حلقي كما يتخثر دم الضرس. لم يكن هناك من جدوى من الكلام. تعبت. كنت قد تعبت فصمت. ورحت أنظر إلى طائر كان هناك في الجهة المقابلة للنافذة على السطح. طائر أسود لم أر شكلّه بوضوح ،أقرب إلى الغراب منه إلى العصفور. أظنه كان واحدا من تلك الزرازير التي تأتي كل خريف لتلتقط بقايا العنب والزيتون والرّمان من البساتين والحقول. تبقى شتاء كاملا هنا لتغادر مع الربيع. تبيت

[41] ثمرة الزعرور

كل ليلة في شجر "البلاطان" بـ"البلاص" و"بالجوطية" ..و في" الحرطون" و"الغابة" . كان الطائر يقف على رجل واحدة فقط، أما الأخرى فيبدو أنها مشلولة لأنه قفز هنا وهناك وراح يجرها كخرقة لاصقة به .

حاولت أن ابتسم، لما ضاعت مني عباراتي، لكنها كانت بلاهة مني أن افعل ذلك، فتوقفت وأنا انظر إلى تلمسان تحت. وسرعان ما شعرت بغباوة كلّ ما قلته.

عندما التفت إلى صديقي كان يبكي صامتا، محدقا في الجدار، وكنت ارتجف من البرد.حاولت أن أعتذر بحركة ما فلم أفلح،فعرفت أنه من الغباوة أن أستدرك هذا الخطأ الفظيع الذي ارتكبته في حقّه. لقد فتحت جراحه ورحت أحرك فيها خنجرا فصارت تزداد عمقا وتنز دما.

قلت فيما بعد للأرصفة :

((هكذا بلاد..و هكذا مدينة..في هذه الأيّام الخطيرة من أيّام الله البائدة..))

التفّ حسان الداودي في البطانية الرمادية وتدثّر بها إلى درجة انه لم يعد سوى كتلة من الرماد مكوّمة في الزاوية، لا يبين منها غير وجهه بنظارتين غليظتين ذات إطارات بنيّة من البلاستيك. تهدّلت ملامحه وبدا متعبا جدا. ترك النار للجيلالي الرونكو ليحرّكها ويزيد الحطب فيها. أما سليمان وحميدو فقد سكرا تماما وثقلت أجفانهما وارتخت عضلات وجهيهما وراحا ينظران في الفراغ.

((يسمعون أو لا يسمعون لم يعد ذلك مهما. لن يغير الأمر من حياتهم أو من الحكاية شيئا. لأنها ما عادت حكاية بل تحوّلت إلى غصّة)) . قال بنعمر.

أنطرح حميدو الواسيني إلى جانب الكانون وراح يتقرّب من صهده مفتوح العينين قليلا، منهارا على الأرض بكامل جسمه..نحيفا وحزينا في آن. ينظر إلى رجليه من حين لحين

ويربّت على بطنه وهو يبتسم بجهد. أما سليمان ولد الفقيه فقد نام..التف على نفسه ونام من السكر.

بقي الجيلالي وحده يقظا جدّا. بشكل غريب. على الرّغم من انه شرب كثيرا. كان يقظا مثل حمّام في آخر الليل.و هو يحرّك الجمر الآن الذي استوى وأزهر.

قال:

– إلى حدّ الآن يا السّي بنعمر لم تقل لنا ماذا كانت تفعل بايه في ضريح سيدي بومدين. ألم تذكر أنها كانت تظل النهار كلّه في المسجد عندما كان لا يزال ورشة للترميم. لما كان مفتوحا للزوار. قلتَ أنها كانت تقرأ في الرخامتين المعلّقتين منذ مئات السنين على الساريتين المربعتين اللتان تحملان الجزء الأول من المحراب. صحيح..عندك الحق..هناك رخامتان منقوشتان قديمتان جدا معلقتان..إحداهما أكبر من الأخرى. ماذا كانت تقرأ فيهما فخطوطها غير واضحة؟. إنهما أشبه بالتميمتين المعلقتين في العنق، باليتان ولا يهتم لهما أحد. ماذا فيهما من السرّ حتى تخاطر البنت البرانية بقراءتهما؟ماذا فيهما ؟.

قال بنعمر:

– الله أعلم..ما علمته من يوسف هو أن البنت كانت تبحث عن شيء ما في التاريخ. حدّثني يوسف مرّة عن ذلك ونسيته. لكن دعنا منهما الآن واستمع إليّ جيدا يا الجيلالي. أنتما الوحيدان اللذان لا تزالان صاحيين كالضمير الحي. صاحباكما ناما لأنهما أدركا ربما أن هذه الحكاية لا تعني شيئا في الأخير، إنهما يفضّلان الاحتفاظ بالخرافات والأكاذيب التي يروّجها موسى بن بوستة عن يوسف.

والحق أن الكذب في هذه الحالة أفضل بكثير من الحقيقة..فهي مُرّة. والكذب مرّ أيضا لكنه يساعدنا على البقاء أحياء. أما الحقيقة فإنها عدوّة كلّ شيء. صاحباكما في هذه اللحظة أفضل منا بكثير لأنهما لا يفكران. والأفضل لهما أن لا يفكرا. لقد تعلّما مثلما تعلمنا جميعا أن يفكر الآخرون مكاننا ...

ثم استدرك قائلا كأنما يخاطب نفسه:

((هم يفكرون ونحن نموت..هذا رائع..المعادلة سليمة تماما وعادلة..معادلة لا يدخلها الباطل أبدا..و مع ذلك ما هو الباطل ؟ إنه من اختراعنا نحن.))

-أقول لك..ما دمتما الوحيدين اللذين تستمعان فإني سآخذ حريتي أكثر في تحوير الحكاية بأن أضيف بعض التعليقات من حين لحين.من حقّي أن أفعل ذلك.ألست أدافع عن يوسف؟ فلأقم بذلك على أكمل وجه..

قال حسان معترضا:

- ليس من حقك يا السّي بنعمر أن تتدخّل في شيء. الحكاية حكاية يوسف ولد المهدي الخرّاز.و تدخُّلك فيها نوع من المغالطة، مساهمة أخرى في الكذب.إنك هنا معنا لتقول الحقيقة فقط لا لتخترعها .

قال الجيلالي الرونكو:

- عندما قال حسان انك الشاهد الوحيد على ما جرى كنا نتصوّر انك ستتحدّث عن الوقائع الحقيقية، عن الاغتيالات، عن الذبح والرؤوس المقطوعة والقنابل، عن موت فلان وعلان عن الدّمار الحقيقي..هكذا كنت أتصوّر..لكني أسمع الآن كلاما مملا عن أمور لا تعنيني، وعن أشياء لا أفهمها.هؤلاء القاريين بزاف يتحدّثون بطريقة لا يفهمها أحد لذا لا يلتفت إليهم الناس..

- لماذا تريدونني أن أصف لكم تلك الأمور.أنا لا دخل لي..هذه ليست حكايتي..أنا شاهد فقط..هذه حكايته هو ..يوسف يتحدّث بهذه الطريقة .

- عليك أن تعدّل فيها كما قلتَ..هيّا حاول أن تروي لنا شيئا مختلفا..نحن نريد أن تضيف إليها فظائع حقيقية..حركة..وقائع.سيوف..خناجر..دماء..بطولات..شرطة يغتالون وآخرون يقومون بالمداهمات..مثل الأفلام السينمائية...

- وماذا يجدي ذلك مادمنا لم نضع اليد على الجرح؟.قال بنعمر:

– هل تتصور أنت أن هذا النوع من الوصف سيجعل هذه الحكاية ذات معنى؟.

– من قال أننا نبحث عن المعنى..نحن نريد أن نسمع حكاية تأثّر في نفوسنا وليس مجرد هلوسة لرجل خائب..عنده بنت بهذا الجمال الذي تصف وفي دارهم وهو عاجز لا يستطيع معها شيئا...

قال حسان:

– الظاهر يا الجيلالي انك خرفت وانك لم تنس طبايعك.. ماذا كنت تريد أن يقع؟ ماذا كنت تريد أن يفعله يوسف بامرأة مهدّدة بالقتل..

– أوف أنت اللي كبرت يا السّي حسان..الأجدر بك أن تطلب من صاحبك أن يحكي حكاية مهمّة أو أن يغير الموضوع أو أن يتدبر أمرها لأن الظاهر هو انه لا يستطيع أن يجعلنا نحبها..ما قيمة حكاية لا نحبها من أول وهلة..

قال بنعمر:

– أنتم تريدون إذن تغيّروا من الوقائع والأحداث بحسب أهوائكم في جلسة خمر..لما سكرتم انتفخت عقولكم وبدأت الفهامة تدخل رؤوسكم وتريدون أن أسلّيكم ..أرفه عنكم..ألم أقل لك يا حسان من الأول أن هذه الحكاية طاهرة وهؤلاء قوم نجاسة.

قال الجيلالي غاضبا:

– أيا خلّينا من هذا الكلام..ليس هناك حكاية طاهرة وأخرى نجسة. الحكاية حكاية ..إما أن نسمعها فتعجبنا وإما أن تسكت وترميها في هذا الجمر فتحترق...

– ماذا تقول أنت يا عمي حسان ..البيت بيتك ..و نحن هنا في حومتك التي عاش فيها يوسف..و أنت تعرف أباه..تعرف أصله..هل أواصل قراءة هذه اليوميات والرسائل أم ارميها في النار ..أنت من سيقرّر مصيرها الآن..

– أنت مخطئ يا وليدي ..مصير الحكايات يقرّرها من يرويها ..أنت من يملك الحق في ذلك..نحن لا نطلب منك سوى أن تقول الحق..أن لا تكذب علينا..أما ما ستقوله من الوقائع فإننا سنصدّقه..نحن لا نملك خيارا آخر..

– إذا كان الأمر كذلك فأنا مع حسان ..احك دون كذب..أنا لا أريد شيئا مثيرا يا سيدي..أريد أن أسمع فقط..غيّرت رأيّي ..ما علينا..لا يزال في الليل بقية..و السكر الفعلي هذا وين بدأ. أنت القائد يا السّي..لقد فوضناك..نعطيك العهد أن لا نتدخل..لكن أعطنا أنت العهد ألاّ تستغفلنا..نحن صحيح ناس بسطاء لا نعرف سوى قراءة الجرائد والفواتير لكنّنا نفهم ..لا تظن أننا بلهاء كما يظن أولائك الذين فوق في السلطة..يتصوّرون أننا لا نفهم ماذا يفعلون..نحن نعرف..لكن ماذا يفعل الميّت في يد غسّالو ..

قال حسان:

– خلّونا من هذا الكلام ..أيا هات..احك برك ..أكمل .

قال بنعمر:

– في ذلك الزمان ..يا عمي حسان.

و راح الجميع يبتسم لهذه التنغيمة وراح الجوّ ينبسط في ما بينهم فتابع دون أن يلتفت إلى الجيلالي:

– في ذلك الزمان كانت المدينة محاصرة ومراقبة من جميع مداخلها. لقد أمر موسى بن بوستة كل السرايا بصعود إلى الأبراج والوقوف عند جميع الأبواب وتفتيش الداخلين والخارجين من تلمسان المحروسة، خاصة بعد انتشار خبر اختفاء بايه.لقد تسرّب الخبر لا يدري كيف.على الرغم من انه كان حريصا التكتّم وعلى هيبته أمام جميع مستخدميه الذي يطيعونه دون أية مناقشة لأن البلاد في حالة طوارىء. غير أن بايه تحدّته وخرجت عن طوعه. كانت قد تحدّته بهروبها من البيت. هي التي أذعنت له طوال حياتها.. تهرب من

البيت دون أن يعرف إلى أين.. تخرج عن سلطته هي التي لم تكن تجرأ في يوم من الأيام أن تتفوّه أمامه بكلمة واحدة. هي التي كانت تعتذر عن الكحّة في حضرته .هي التي تخافه.تهرب! .

كان ذلك هزّة رجّت كلّ رجولته. فجعل كل كرامته ومكانته في كفة وبايه في الكفة أخرى. كان يشعر بنظرات أصدقائه تحاصره.خاصة منصور بويعقوب صاحب البازرات المتعدّدة الذي كان همه الوحيد هو أن يزوّجه أخته.

لما سمع أصحابه بالحكاية صارت عيونهم تتهمه وتشمت به لأنه لم يكن قادرا على العثور على أخته التي هربت من بين يديه.فراحوا يتساءلون :كيف يمكن أن يستأمنوه على أموالهم؟. هو الذي يعرف مصادرها. فالحدود المغربية قريبة من هنا والبلاد في تسيب تام ولا احد يراقب أحد ولا أحد يهتم بالتهريب والنهب المنظم لأموال الدولة بدعوى الانفتاح الاقتصادي في زمن الفوضى وغياب المؤسسات المنتخبة. كيف سيحميهم ويحمي أموالهم ومصانعهم ووكالاتهم وفيلاتهم، هو العاجز عن حماية بيته؟. لقد شعر بالغبن والحقد على بايه.كانت قد أذلّته بهروبها وباختفائها دون أن تعلمه. فأمر أعوانه بالبحث عنها وأمر بتفتيش كل البيوت المشبوهة وغير المشبوهة. وأغلق المدينة من جميع منافذها. أقفل جميع أبوابها. من شرقها إلى غربها. من شمالها إلى جنوبها. من" باب الجياد" إلى "باب القرمادين " ومن باب " الحديد" إلى " باب السجان" من "باب التويتة " إلى "باب سور الحمام"..إلى "باب الجغليلة"[42].

أمر بالتستّر والكتمان حول القضية وكان يعلم أن أعوانه لن يتستّروا ولن يتكتموا وأنهم سيشرعون بالتسامر بالقصة طوال الليالي البارد المليئة بالأرق.ليالي ذلك العام الذي كان رازحا لا يزيد أن ينقضي بثلوجه وأمطاره وزمهريره.كان يعلم أنهم يتغامزون فيما بينهم

---

[42]كلها ابواب قديمة بعضها مندثر

ويتندرون به.شاهد ذلك في عيونهم..في إذعانهم المبالغ فيه وفي إطراقهم الطويل أمامه.كانوا يشمتون به، يعلم ذلك، وهم لا يجرؤون على رفع وجوههم في حضرته والنظر في عينيه. لقد شعر بالخزي، هو الذي كان يسعى دائما أن يثبت للنّاس أنه السيّد المطاع.

قرّر بينه وبين نفسه أن يعاقب بايه عندما يجدها. سيعاقبها عقابا لم تر مثله طوال حياتها. قرّر أن يقطع يدها التي رفعتها في وجهه. تلك اليد التي تجرأت..قال لنفسه

((سأقطعها وأرميها فوق سطح البيت..تأكلها الشمس. تأخذها الرّيح وينهشها الطير الجارح.

و كان يردّد:

– يدها سأقطعها لها يدها متى وجدتها..))

اليوم الثالث ..في ساعة أخرى مثلثة الأضلاع ومدبّبة.حادة.

أسعد أحيانا عندما يسقط الثلج في تلمسان. هذا الأمر النادر يقع لي عندما تثلج.ربما كان طبعي هو ما يوحي إلي بهذا الشعور. طبع رجل فقد كل شيء ويريد أن لا يرى شيئا بملامح محدّدة. فالثلج يدعوك إلى عدم التفكير في الأشكال لأنها مشوّهة في الواقع تحت الشمس. لست أفهم لماذا أنا هكذا ؟. أحب أن أكون وحيدا دائما والثلج يعطيك إحساسا بالوحدة، بالتلملم..بأن أفكارك صارت شفافة وزجاجية مثل تلك النوازل البراقة التي نجدها في الصباحات البيضاء. النوازل المتجمّدة تتلوّن بالشمس التي تخرج بعد أسبوع من الهطول الساكن الهادئ في جوف الليل.

يهطل الثلج في هذا الصباح الذي افتضح، لأكتشف دون دهشة أن ما اعرفه حقيقة، هو أن البرد صار سيدا بالإضافة إلى الأسياد الكثيرين هذه الأيام. أطل من شرفة الصباح على الوطن فأرى أن الشجر لا يزال يتحمّل منذ البارحة هدأة الماء المتجمدة. لا يزال الناس نياما، منسحبين في بيوتهم. والسكون وحده السيّد منذ الفجر. الجوّ أبيض،ساكن ما عدا خفقة هنا وهناك لطائر فقد الطريق إلى عشه، فاجأه الهطول دون مأوى. فصار أبيض مثقلا بالندف التي أثقلت جناحيه. كان كلما أراد أن يطير إلى الشجرة يسقط. يريد أن يتخلص من الثقل..لكن أجنحته كانت بيضاء بالندف التي تراكمت عليه.قد أضحت أثقل من الطين المبلول.. أسرعت وتركته. أظن أنه لم يصل إلى الشجرة..

كانت الأرصفة بيضاء وأعمدة الكهرباء بيضاء والشجر أبيض. والعمر أبيض أيضا .. الماء الهش يقزقز تحت قدمي اللتين تدفئان من المشي الباكر نحو المدرسة تحت، في سيدي يعقوب و"الترواكار" الجلدية ليّنة من البلل الخفيف، والندف لا تبقى بل تنزلق. تتجمع ثم تنهمر من على كتفيّ.

في البيت تركت النار مشتعلة وسط كانونها وخرجت بعدما شربت قهوتي المعبأة في الترموس منذ البارحة. كانت رائحتها التي باتت ناضجة دافئة تفور غلالات غلالات من السخونة مثلما يفور شعر امرأة تغسله أيّام البرد.

برائحة القهوة ومذاقها أبدا النهار. نهار آخر مختلس.

تركتهم نائمين جميعا فوق. أبي مريض..أصيب بنزلة برد فخفّ عنّي صوت طش الماء وماتت قرقرة "القبيبة " في الأسحار. كل هذا خفّ عنّي منذ ليلتين.وصوت كحته يتناهى إلي دون أن أستطيع الكف عن سماعه. أحضرت له بعض الأدوية ونقعت له بايه حفنات من الزعتر والنونخة في الماء الساخن فشربه.و نام ليلته دون كحة.

قلت لها:

–هذه الساحرة تعرف كيف تخلط الأعشاب..

قالت:

– هذا القليل فقط مما أعرفه عن خواص الأشياء .. إني أستطيع أن أحوّلك إلى طائر إذا ما أردت.

قلت:

– كيف يا الكاهينة[43]؟.

قالت:

– أجمع بعض الأعشاب التي لا يعرفها غيري وأطبخ لك الـ" تمقْفُولث"[44].تأكل منها فتتحوّل إلى طائر البلارج كما تقولون.

قلت:

– لا أريد أن أتحول إلى طائر...أنا أريد أتحول إلى شيء آخر .

[43] ملكة أمازيغية قاومت الفتح الاسلامي طويلا ثم أوصت اولادها بالدخول فيه قبل موتها
[44] طبخة شعبية ذات خواص سحرية في الحكايات الشعبية

قالت:

– وما هو؟.

قلت:

– أريد أتحوّل إلى بايه..أريد أن أتحول إليك أنت.

قالت ساخرة:

– ستتعب إذن من حمل كائنين فظيعين.

قلت:

– لا عليك..أنا أستطيع .كنت دائما قادرا على التحمل..لم أكن أعرف ذلك ولم اكتشفه إلاّ معك.

قالت:

–أقول لك : تتعب.

قلت:

–ما عليه..من أجلك سأقاتل روحي إذا لزم الأمر..

كان صحيحا ما قالته بايه :هذا الثلج وهذه المدينة وأبي ويحي والخوف..كل ذلك ثقيل عليّ مع ذلك كما هي ثقيلة هذه المحفظة المدرسية.

كنت اخترق كل صباح المدينة وأرى. أما اليوم فقد اختفت جميع المتاريس والحواجز تحت أكوام الثلج وبدت شرفات البيوت المصفّدة بالحديد مسدلة الأعين. بيضاء مغمضة النوافذ. لقد اختفى أيضا أولئك الجنود الشباب ذوي الوجوه التي لا تزال مراهقة. لم أرهم اليوم أولئك الذين يتحدّثون بسرعة من يريد أن يتجنب وقوفك عنده طويلا، بوجوههم الناتئة العظام وأيديهم القوية التي يبدو أنها لم تكمل نموّها بعد.بل اغتُصبت طفولتها من القرية أو الدوّار أو الحقل أو الحي. وهاهي تحمل الأسلحة. تبدو البدلات أكبر منهم قليلا. عيونهم يقظة وأفواههم مزمّمة عن السباب الذي سرعان ما سينطلق عند أدنى حركة

مباغتة..متى ما استنفروا أو حوصروا في مواقف يكرهونها مثل وعول برية أخرجت من غاباتها أو من سهوِها الجميل كي تحرس المدن..

لقد اختفت تلك الوجوه الضئيلة الآن خلف الكوّات المظلمة لأبراج الحراسة الأرضية والعلوية. تلك الأكواخ الصغيرة التي نبتت فجأة دون سابق إنذار عند مداخل البنايات الحكومية.قد طليت الأرصفة حولها بالأحمر بالأبيض.ضاقت عليهم وهاهم يطلّون منها واقفين خلفها متطلّعين إلى المارة بلهفة الوعول.

حراس المداخل هؤلاء يتحرّكون في هذا الصباح في أمكنتهم كي يدفئوا.تندّ منهم رائحة السهر والتبغ الرخيص..في عيونهم رغبة في الذهاب بعيدا عن أحراش الأوامر والنواهي. في الجيوب فبعض أعقاب السجائر وفي القلوب كوانين مشتعلة..

قلت:

– هكذا الوعول تحرس المدن الميتة.

وكنت مثقلا أيضا بالكلام الذي لم أقله لبابه. فانا لا ألتقيها إلا على مائدة الطعام ليلا. تغلق على نفسها غرفتها وتنتظر أن تأتيها خالتي الزهرة لتبيت معها أو أمينة أحيانا.كنت أفكر في طريقة ما لخلاصها .هذه الوضعية لا يجب أن تستمر. اليوم الثالث ولا حل .لا بدّ أن أخاها يبحث عنها.كانت حماقة مني عندما قبلت بهذا الاختفاء. لعلي لم أكن في حالة يمكن التفكير فيها بروية.

إني أفكر في خلاصها قبل تفكيري في نفسي أو أبي. وهي تبدو غائبة عمّا يجري. منخرطة في مجال آخر. لقد فتحت بابا خفيا ودخلته ثم أغلقت خلفها بالرتاج..صارت تقلب في الكتب وتغرق في حديث لا ينتهي مع خالتي الزهرة عن العشائر والقبائل الموجودة في المنطقة. كانت تبحث في الجينيالوجيا عن شيء ما.كان حديثها عن تلمسان يأخذ صيغا أخرى غير التاريخ.تريد أن تذهب أبعد بمعطيات اقل .تخمن .تقارن .تستفسر.تسأل عن أسماء العائلات.سمعتها مرّة تتحدثُ عن أبي علي

الحسن بن محمد الغافقي الصوّاف صديق أبي مدين شعيب التلمساني الذي لم يفارقه إلا بعد موته.و كانت تقول : ربما. وعندما تسألها الزهرة:

-ربما ماذا؟.

كانت لا تجيب.

قالت خالتي:

– لا أعرف الغافقي هذا ولا أعرف كلّ تلك الأسماء التي تغرقني بها ولا أعرف بجاية..هذه البنت مهبولة .

و كنت أقول لها:

-هذه البنت ضيفتنا فاحتمليها .

و كانت تردّ:

– هذه ليست ضيفة ..هذه مشكلة .

لكن بايه كانت تردّد تلك الأسماء الغريبة..حومة اللؤلؤة.ساحة النجمة وسيدي الصوفي ويمّا قوراية وابن محرز والغبريني وسيدي أبي زكريا الزواوي[45] وأسماء عجيبة لم أكن لأعرف ماذا تعني في لغتها. أخذت بعض الخرائط وراحت تبحث في التفاصيل فتأكدت أن هذه البنت لم تأت صدفة إلى هذه المدينة، إنما هاجس ما كان وراء هذه الرحلة الخطيرة التي انتهت عندي هنا بالعبّاد.

ثم راحت تطالبني ببعض الكتب ورحت أطالبها ببعض الحب فكانت تنظر إلي صامتة. تحدق في الأرض ثم تتّهمني باني لم أعد افهمها وأني لم أعد أحتمل بقاءها مختفية عندي. و تقول:

أسماء علماء واضرحة واماكن في بجاية
45

– ليس الآن..ليس هذا أوان هذا الحديث..أجّله إن كنت تحبّني فعلا .

و كنت أقول لها إن هذا الوضع لا يعقل وأنه عليها أن تغادر إلى بجاية وأني سأتدبّر الأمر.لكنها كانت تعيد

– إذا كنت تحبّني حقّا يا يوسف دعني هنا لبعض الوقت..أريد بعض الوقت فقط..و عندما أريد أن أغادر سأقول لك .

وعندما كنت أسألها عن سبب زياراتها لمسجد سيدي بومدين الفارغ اليوم، فيه ورشات للترميم، الخالي من المصلين ومن الأثاث، به رقعة صغيرة فقط يجلس إليهابعض الشيوخ الذين يسكنون في الجوار قد تآلفوا مع العمال فأفردوا لهم مكانا يصلّون فيه لأن قلوبهم كانت متعلّقة به. عرفوا الحياة بهذا الجامع ولأن الصلاة لا يجب أن تنقطع به مهما كانت الظروف..ترميم أو غيره المهم أن المسجد كان يجب أن يبقى عامرا بالذكر.و كانوا يتسامحون مع الزوار السائحين من الرجال والنساء والأطفال ويتركونهم يدخلون حتى يصلون إلى المحراب يخلعون أحذيتهم ويتمشّون على البلاط القديم ويشاهدون عمل الجباسين والنجارين الذين راحوا يقلّون مع مرور الأيام الباردة.

– هذا المسجد فارغ اليوم فماذا تبحثين فيه؟.

قالت:

– أقرأ في الرخامتين المعلقتين على الساريتين الأماميتين عند المحراب..و أفك رموزهما .

ولما كنت أسألها : ماذا كنت تقرأ فيهما كانت تسكت.و كنت أدرك حينها أنها تبحث عن شيء ما لم تستطع تحديده.قالت خالتي:

–إنها تحب أن تسمع الحكايات القديمة وتطلب مني أن أحكي لها عن سيدي بومدين.

– يبدو يا خالتي أن هذه البنت قد سحرت.أخذها المكان. لقد تسرّبت إليها العدوى منّي وتصادَف أن هذا الولي الصالح عاش فترة طويلة في بجاية لهذا أغرمت به.هي

التي تقول لي دائما إنها لا تؤمن بهذه الخرافات. يبدو أنها لا زالت لم تفصل بعد في بعض الأمور داخلها. لقد جاءت من أقصى الأرض لتبحث عن نفسها هنا. وأنا مثلها تماما أريد أن اذهب إلى أقصى الأرض لأبحث عن نفسي. رحلتان متعاكستان وهدفان متناقضان. أنا الذي أريد أن أتخلص من كل هذا الحمل الذي يثقلني وأشعر مع الزمن بعدم جدواه وبغباوته وهي التي تريد أن تنال ما لا تدريه وما لا تستطيعه ولا تعرفه. لا أريد أن أفتح جراحها خالتي فلا بد أنها عميقة وجديدة وإلا ما قرّرت فجأة الاختباء عندنا دون سابق إنذار .

قالت خالتي:

– أنا لا أفهم ما تقول لكني كنت أتصور دائما أنها هنا لأنها تحبّك ..أليس كذلك؟ أم لأنها خائفة من أخيها ومنهم..فهّمني..ما زالت لم افهم...

– يبدو أنّي آخر ما يشغل بالها..إنها قاسية القلب وعنيدة كأي بربرية. إنها تبحث عن أشياء أخرى.

– ولماذا لا تتزوجها وتهنّينا من هذه الحكاية؟.

كان السؤال مفاجئا. لم تخطر الفكرة على بالي أبدا. سكت ونظرت إليها حائرا قلت في نفسي:

((من ذا يرغمها على شيء لا تريده. من ذا يلجم النهر. إنها ستغادر هذا المكان متى تشاء.و هي خائفة حقّا لكنها لن تقبل أن يدّعي حمايتها أي أحد..عنيدة ولا تحب وصاية أحد..و عندما تسكن العواصف التي تعوي بداخلها وتذوب الثلوج من على قممها..في ذلك الحين ربما استطعت أن أكلمها في أمر كهذا. .))

قالت خالتي:

– ألست تحبّها ؟.

سكت مجدّدا.آه قلت في نفسي.آه يا خالتي لو تعرفين كم أنا منهار ومنهوب مثل مدينة منهوبة.أحبها..تقولين:أحبها ..آه لو تدرين؟

– أنت تعرف أنه من العيب أن تبقى البنت البرّانية[46] هنا عندك في الدار وأنت رجل عازب وأخوك مجنون..لا يجب أن تبقى بنت بهذا الزين هنا ..

قلت وأنا أضحك:

– هذه البنت لبؤة..أنت تعرفينها الآن جيدا..من ذا الذي يجرأ على الاقتراب منها ..فلا تخشي عليها شيئا..إنها فحلة مثلك...

قالت:

– ربما هي كما تقول ..لكنها ضايْعة يا وليدي ..و عليك إيجاد حل لها.

[46] الغريبة

اليوم الرابع .

الليل يمضي كساعة الاحتضار الطويلة في هذا الشتاء الطويل.

أقول: ها الثلج مرّة أخرى. فضة القلب المتناثرة. إنه قليل هذه الليلة. لم يسقط بغزارة..ايماءات منه فقط..أما حضوره كاملا فقد ابتعد منذ الأمس..إنه يأتي ببرده لا غير ثم ينسحب ومن حين لحين سيعلن عن نفسه..سيذكرنا به ويصرّ على كونه هنا..لا يزال متآلفا معنا ومولعا بنا هذا العام.

السماء بعيدة أيضا ككل وقت و في جميع الفصول وأنا يوسف ولد المهدي الخرّاز لا زلت أستل روحي من قنينة ضيّقة العنق، وجدتها في أحد الأقبية عندما كنت أبحث في تاريخ المدينة عمّا يكون صورة لحاضرها. ما الذي جعلني أقوم بهذه المغامرة منذ الصغر؟. كان عي أن لا أحفر أكثر في نفسي. كان عليّ أن أبقى في السطح. ما كان علي أن أقارن بين الذي يجري وبين الماضي. لا يجب أن ألجأ إلى الحجر لتفسير اللّحم الحي الذي أتنفس فيه.

أنا يوسف لا زلت أشرب من ذاتي المعتّقة ولا أسكر. بل أغتّم أكثر فأكثر.لأني لم أقتل مرّة واحدة وفقط. بل مرّات ومرّات. قتلتُ يوم رماني إخوتي في البئر وقالوا رحنا نستبق وتركناه يحرس أشياءنا ولا بد أن الذئب أكله. تلك القتلة الأولى. أما الثانية فكانت لما دخلت السجن من أجل جرم لم أرتكبه فتحمّلت تأويل الخراب الذي كان يترصّد بالناس.

وها أنا يا أبي يقتلني إخوتي اليوم مرّات ومرّات.

قد شربت نفسي فما ارتويت. وهذه النفس التي حسوت كانت لا تزال غير معتّقة على العكس ممّا ضننت.كانت غير معتّقة وانكسر الدن وساح السؤر ولم أصل بعد إلى السكر..و أحلى ما في الخمر سؤرها.

ما كنت أظن أني سأصل إلى هذه النهاية. إلى حالة العجز هذه أمام الحصار من كل الجهات ..حصار موسى بن بوستة من جهة والموت من جهة والنفس المتسرّبة بين الشقوق التي لا تريد أن تتوحّد مع الأمكنة .

ربما يلزمني كثير من الشجاعة والصبر حتى أستطيع أن أتحمّل هذا النوع من السكر. يلزمني صبر وشجاعة هذه الحجارة وهذه الحيطان وهذه الأسوار كي أعبر الزمن وأصل إليّ هكذا كاملا دون كسور. لقد وصلت هذه الأسوار وهذه الأضرحة والمساجد والأبنية القديمة إلى عصري متباهية بوجدها الآني..الساخر من هذه اللحظة.. أما أنا فمتى أصل ؟

تشعرني الأماكن التي أعيش بينها في العبّاد دائما بعجزي عن الذهاب أبعد من ذاتي . وتشعرني بعجزي عن العبور إلى أقاليم أخرى أكثر تلاؤما مع العالم. لكنّني لا أريد وأنا ماض في هذا البحث أن تكون الأقانيم التي ورثناها هي من يسعى حثيثا إليّ كي يخلّصني من عذابات الضمير.

أنا لا أفهم لما أنا هكذا؟..لست أريد أن يقف أحد بيني وبين الذهاب إلى أبعد من ذاتي. لا أريد أن أجد أحدا خلف زجاج الغياب الذي أعمل على تقطيعه بالزمرد الذي سقط فجأة بين يدي كما اللقية المفاجئة المرعبة والرهيبة والمفرحة في آن. إنها الخلاص الوحيد من الفظاعة التي أحمل.

لقد ولى ذلك الزمان..الذي كانت الأماكن متوافقة فيه بأصحابها مع كينونتها ودورتها الفلكية ولا مكان اليوم لغير القتلى الذين نشهدهم بأنفسنا في المنعطفات أو نسمع عنهم من الأصدقاء أو نقرأ عنهم في الجرائد أو نشاهد هم على شاشات التلفزيون الأجنبية في مواعيد العشاء حتى أننا أصبحنا لا نتعشى.ندخل المطابخ ولا نريد سوى أن نأكل شيئا بسيطا نتقوى به للبقاء ساهرين ليلتنا. التي نتوقع منها أي شيء سوى أن تمر هادئة.

أما القتلى الذين لا يمكن أن نصفهم لأنهم يصفوننا.فنحن لا نزال نعلّق أسماءهم على ألواح الأردواز الأسود. هذه الألواح موجودة عادة أمام المباني الحكومية.أمام البلدية وفي

"البْلاص". إننا نعلّق عليها أسماء من ماتوا، حتى يعرف الأصدقاء والأحباب مواعيد الدفن.

والأردواز ينتظر كل صباح أن نكتب عليه بالطبشور المدرسي الأبيض أسماءنا وأسماء من نحبهم ومواعيد دفنهم وساعاته، مثلما ينتظر المعلّم أن نثبت له نباهتنا في حلّ المسائل الصغيرة التي كانت تبدو معقدة.

قديما كنا نرفع وجوهنا إلى ذلك اللّوح ونمرّ صامتين، نترحّم في سرّنا على من لا نعرفهم ولا نفكّر سوى في مواعيد غرامياتنا، في أحد المنعطفات أو الدروب. أما اليوم فنحن نخشى أن نقرأ أسماء الأحباب الذين غابت عنا أخبارهم منذ ساعات فقط. لأننا كنّا قريبين منهم وبعيدين عنهم في آن. ولأننا لا نجرؤ أن نزورهم بعد مواقيت العمل خشية أن تنطفىء الشمس مرّة واحدة وتدركنا الظلمة ويندلع الخوف فجأة من الأرض.. يخرج، كما تخرج إلى السطح الجزر البركانية من البحر، بحممها ودخانها.

كنا نعتذر لأصدقائنا وأحبابنا وأهلينا عن البقاء في بيوتهم أكثر مما ينبغي، مخافة أن نضيف إليهم توجسا آخر وهلعا آخر من أن نقتل صدفة حولهم فيتورطون في موتنا. كما كنا نخشى أن نرفع وجوهنا إلى ألواح الأردواز الأخضر حتى لا نكتشف يوما أسماءنا نحن، مكتوبة مع مواعيد للمسير بنعوشنا. كنا نخاف أن تنعينا الألواح إلى أمهاتنا ونحن لا نعلم فتقمن بالمناحات علينا ونحن عائدون من العمل أو السفر أو المقهى أو من الموت نفسه وأخبار دفننا وساعاته تسبقنا إلى أسرتنا وحوائجنا كما تسبقنا القطط الأليفة إلى الأفرشة والوسائد طلبا للدفء وبعض المداعبات.

كنا نتمنى أن نكون مثل القطط بسبع أرواح.. نهدي واحدة للأمهات تخبئنها فربما احتجنها في يوم من الأيّام.و واحدة للعاشقات تحفظنها في القلب. والأخريات نوزّعها على من نشاء من الأصدقاء.

كنا إذن أجبن من نترك الموت يكشف سراديب أرواحنا الحقيقية، لذا نغلقها بالمراتيج ونتصرّف كما لو أننا لم نر ولم نسمع شيئا. كان يضرب في كل مرّة بقوة وبسرعة ولا يدوم إلا لحظة واحدة، ونحن نتحمّله كما نتحمّل جرعة حارة من النبيذ القوي وكنا نتذكره كما نتذكر الإلف والصديق مرة ومرات وهو يلازمنا في كل حين.

قد يأتي علينا حين من الدهر ننساه ولكنه لم يكن ليغفر لنا سهونا ولم يكن لينسنا. كان أحبابنا الذين يخشون علينا حقّا يقولون لنا عندما لا نتذكر شيئا

– ينساك الموت.

لكنه لم يكن لينسى في هذه الأيام أبدا.

هاهو رجل آخر من حومتنا يفاجئنا مقتولا عند الصباح، معلّقا في الجدار القصير الذي نجده عندما ننتهي من الصعود مجهدين منذ بقايا مسجد سيدي بوسحاق إلى العبّاد مرورا بعين الماء.

كان الرجل معلّقا هناك منذ البارحة ودمه يسيل على الإسفلت. تجمع تحته الدم ثم ساح نازلا في خيط رفيع نحو المدينة..كان رأسه مفصولا عن جسده..جلدة فقط تمنعه من الإفلات.لم يكن في وجهه أي تعبير كأنما كان يحتج ويقول:

– أنا هنا منذ زمن لكنكم لم تروني..قد فاجأني الصباح فقط وأنا ماض.إني أعتذر لأنني متّ..صباح الخير والسلام عليكم..

لا يعرف أحد حكاية قتله إلا هو ومن قتله. قال الذين تجمهروا عنده وأنزلوه لما جاءت الشرطة إن الرجل كان ينتمي إلى أحد الأحزاب. لا أدري ما هو وإنه كان يلازم بوخطفة ووحيد، يجلس إليهما في المقاهي ويتسخّر لهما في الوقت الذي كان الناس يتحاشونهما ويخافونهما.

قالوا لكي يبرّروا لأنفسهم موته بهذه الطريقة أنه كان يوفّر لهم الخمر ويعطيهم الأخبار ويدلهم على عائلات الذين يطلعون إلى الجبل أو أولئك الذين يموّلونهم.

قلت يبدو أن الوطن لن يصحو من سكرته مهما كانت الحجج.هل نحتاج إلى المزيد من القتلى حتى يستيقظ الضمير الجزائري..هل نحتاج إلى المزيد من الكوارث والموتى..هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون في دواخلنا ويسهرون على جذوة حمراء فينا يذكّروننا أنه يجب أن نضع من حين لحين بين يديها قرابين جديدة حتى ترضى.

في ذلك الصباح عندما خرجت إلى العمل متوجها سيدي يعقوب وجدت ذلك الرجل المقتول ووجدت بنعمر في مقهى المشور أين شربنا قهوة مركزة..طلبتها مرّة حتى أستعين بها على هذا النهار وعلى تلك المهنة.

كان صديقي منهارا تماما.قد أكلت اللحية وجهه. متعبٌ ونحيل بعض الشيء عيناه غائرتان قلقتان لا تنظران إليّ. أسرع في شرب القهوة.شفطها دفعة واحدة ثم قال :

– مات ذلك الرجل وذهب ضحية الخطأ أو الصدفة أو المؤامرة أو أي شيء آخر ولا يمكننا أن نكون مكانه ولا مكان أهله. وهو ليس إلا رقما من الأرقام التي تضاف إلى قائمة طويلة لا معنى لذهابها من الحياة بهذه الطريقة. لن يتذكّره أحد بعد ساعات من الآن.فالكل لاهي في نفسه. أصبحنا أنانيين جدّا ولا يهمّنا غير أنفسنا.الكلّ يقول (تَخْطِي رَاسِي وتْفُوت) . أما الآن فقل لي بسرعة كيف هي بايه ؟كيف ستخرجها من هذه الورطة ؟ لا بد أنهم على وشك اكتشافها..المدينة صغيرة ومثل هذه الأمور لا يطول كتمانها على الناس. ستُفتضحون في أقرب وقت ؟.

قلت:

– لا أدري يا بنعمر يا خويا ..إنها معنا في البيت حاضرة وغائبة.لا تدري ماذا تفعل..تقرأ بعض الكتب التي أرغمتني على إحضارها لها .و عندما تتحدث عن نفسها وعن حالتها فإنها تقول أنها تشبه (زلقوم)...

– ومن هي زلقوم هذه؟.

- تقول إنها حكاية أمازيغية ولما طلبت منها أن تحكيها لي قالت فيما بعد أحكيها لك..فيما بعد عندما يأتي أوانها .

- ومتى يأتي الأوان ؟.

قلت ونحن نغادر.

- فيما بعد..أقول لك ...

وتركته.

طعام الموتى

اليوم الخامس.

عندما يصبح الليل كلّه ساعة متمدّدة من القلق .و من الأرق.

أعود إلى مذكراتي لعلي أجد شيئا أو أسجل شيئا ذا معنى. أدوّن ما استطعت من الخراب. ما تمكّنت من إنقاذه في سطوة النهار من هواجس..ربما لو اطلع عليها أحد لقال عن هذه الأفكار إنها هلوسات رجل مخبول.كان عليه أن ينتحر مادام غير قادر على التحمل.

ماذا يهم ..إننا لا نعرف قيمة ما نكتب إلا بعد مرور كثير من الوقت. الزمن وحده كفيل بأن يجعل من هذه الهواجس والأفكار أشياء ذات معنى. ربما بعد أن ينتهي هذا كله.عندما نحتاج أن نتذكر آلامنا لنستمد منها بعض القوة على مواجهة حاضرنا. أكيد أن الحاضر سيكون في كل مرّة قاسيا وصعبا ومخيفا لأنه لا أمل حقا في أن تتغير الأمور .

أقول : ربما ستصبح هذه الفظائع مادة لسخريتنا في يوم من الأيام ولابتساماتنا، ولضحكنا. إني أسمع في العمل بعض النكات عن الوضعية التي نعيش، تجعل من حياتنا اليومية أكثر احتمالا. النكات في عزّ الموت، لأناس يواجهونه بالضحك. إذ يكفي أن تنطلق في نكتة جنسية حتى تتبدّد الغيوم. قلت ساخرا ربما وجب أن نعلم أبناءنا هذا الفن حتى يزول هذا الشتاء عنا .

يضحك المعلمون دائما عن أيّ شيء بوجوههم المتغضنة الثقيلة بالهموم البيتية.و أكبرهم سنا بهلوان حقيقي وهذا ما يحيرني. هل نكتشف مفارقات الحياة عندما نكبر فقط. أم أننا لا نشرع في الضحك ببلاهة إلا عندما تكثر خيباتنا ونبدأ في التخلي عن أحلامنا واحدا فواحدا. لكي لا يبقى في الأخير سوى هذا الضحك الأبله على أنفسنا..هذه السخرية المرّة منها.

إن الضحك أخطر ما اخترع الإنسان ضد نفسه فهو كالخمر تماما يريح صاحبه ويعطيه شعورا بالامتلاء والقوّة لكنه في الأخير يقتل. لهذا لا نضحك إلا أحيانا ولا نقوم بهذا الفعل الجليل إلا عندما نجتمع كالقطيع حول ماء خيبتنا، لأن الضحك يحتاج إلى التجمع . وإذا ما ضحك أحد منا بمفرده فذلك يعني أنه قد جن.

كنت أضحك دائما في سرّي وبمفردي بمرارة من هذه المفارقات التي نصبح عليها كل يوم. من مفارقات المكان وتاريخه. من غرابة كون بايه معي بين أضلاعي وأنا عاجز عن الوصول إلى قلبها.من كون أبي معي ولا أستطيع التواصل معه. ومن كون أخي حاضر معنا بجسده وغائب عنا في الوقت ذاته.

كنت أضحك ذلك الضحك المرعب وأحاذر أن لا يسمعه الناس والأصدقاء والأحباب حتى يستعينوا بصمتنا وبوقوفنا الزائف..على واقعهم.كنا نحتاج أن لا نعلن ضحكنا المخبول، أن نكبحه حتى لا يتعداه إلى المدينة، حتى لا يصبح وباء يعم فنتّهم بالجنون.قلت لنفسي، إن الرجل الذي قتل البارحة كان قد كفّ عن الضحك مرة واحدة وللأبد.

لم تسلّم الشرطة الجثة لأهله إلا مساء اليوم لدفنه.لم أحضر جنازته. كرهت هذه المناسبات فمنذ الصغر وأنا أدفن الموتى.آخرهن كانت أمّي.و منذ ذلك الوقت وأنا أتجنّب هذه المراسيم الشبيهة بالقدر أو بالضرورة التي لا خلاص منها. لم يكن عندي من الوقت

ما أخصصه لمزيد من القتلى. إنهم يسقطون وحدهم ولا أحد سيتجرأ ويلحق بهم إلى تلك الحفر.

إنها عادات الدفن، والعودة من المقابر والجلوس أو الوقوف عند الخيام الخضراء المنصوبة لتلقي التعازي، وقراءة القرآن حتى آخر الليل. والمعزون الغرباء وهم مع أهل الميت يتبادلون الكلمات الضرورية تلك التي يظنون أنها تكفي لتجزية الوقت أو التلهي عن الحقيقة أو للتناسي.

عادة ما يتسارع الكبار في الحيّ إلى نصب الخيام الخضراء من الصباح إلى المساء. ثم يبدأ الطقس التطهيري بتداول العبارات المناسبة. هنا ينطبع الموت في كل شيء .في الجلوس والقيام والقعود والحركة واللغة. ثم هاهو الطعام يأتي في الأخير. أصبحت أسميته طعام الموتى منذ آخر مرة دفنت فيها أمي.لم أستطع منذ ذلك اليوم أن أستسيغه.لم يكن من الممكن أن يدخل جوفي.كان نفسه الذي فتلته قبل موتها بأيام.لم يعد في البيت من يحضره. لذا كان على أبي أن لا يساهم في حركة التضامن الطبيعية التي يقوم بها أهل الحومة عندما يموت أحدهم.كان معفى من هذا الالتزام.

كنت قد أعفيت نفسي من الخروج وقت العشاء لحضور طقس التطهير ذاك.كنت أتطهّر وحدي بموت رجل فيّ..أحاول أن أبعثه في كلّ مرّة لكن هيهات.كنت أحاول أن أعلّمه أن لا يسارع في الانتماء للعادة.و الحقيقة أني كنت أخشى أن أخرج فألتقي بالأصدقاء الذين لا نلتقي بهم إلاّ في جنازات أصدقاء آخرين.

كنت أعلم أني سأعمل النهار كلّه مباركا تلك الحكمة الميتة ثم أعود إلى العبّاد قبل المغيب.كما كنت أعلم أن عادات الذهاب إلى مقهى باب وهران انقطعت لأن بنعمر لزم بيته ولم يعد إلى الخروج منه إلا نادرا وما لقائي به اليوم في صباح موت جارنا إلا صدفة فقد كان ذاهبا إلى الكوميسارية لحضور ذلك الاستجواب الذي لا ينتهي حول مقتل ليلى .

كان بنعمر قد لزم داره ولم يعد يكلم أحدا وكره وضعه ووضعنا جميعا وعاد يشعر مثلي بالعجز عن القيام بأي شيء لأن الأمور كانت حقيقة أكبر منا.

سأهيم قليلا قلت لنفسي في شوارع المدينة المحروسة ولا بد لي من العودة إلى البيت .هكذا سأتجنب حضور دفن جارنا.

حضّرت لنا أمينة في هذا المساء ذلك الطعام، على الرغم من أنها كانت حاملا وعلى وشك الولادة. ولاحظتْ أني كنت منزعجا فضحكت وقالت :

– هذا الطعام فتلته أنا إنه عمل يدي ..يجب أن تنسى..

قلت:

– من أجلك سأحاول .أعلم أني لن آكل منه سوى اللحم.

كان الطعام من اجل الضيفة هذه المرة. لقد ملأت مرقه باللحم والخضار فصار يفور بغلالات تتصاعد في الهواء البارد. أكلنا مجتمعين لأول مرة. أكلنا قرب النار التي بدت سعيدة بنا وحيية. كنا صامتين مثل جنود عادوا لتوهم من حرب لا يعرفون نتيجتها. المهم أنهم عادوا سالمين وقد وجدوا طعاما ساخنا ونارا وشايا ساخنا أيضا. لم نكن نريد سوى ذلك في تلك اللحظات. لأننا إذا ما طلبنا أكثر فإننا سنكون حمقى حقا.

كنت انظر إلى أبي الذي صار طاعنا في العمر أكثر فأكثر. أفي بضعة أيام شاخ بهذا القدر الفظيع تساءلت؟. ما كان يستطيع الكلام.كان في حلقه هدير نهر كامل لكن النهر ضاع في هاوية صمته وفي لا جدوى ما سيقوله لي .لأني لن أسمعه.

بدت أمينة أكبر من سنها أيضا. هي التي وافقت أن تبقى مع بابه من حين لحين عندما تغيب خالتي الزهرة كي تتفقد ابنها وزوجته. أمّا يحيى فكان غائبا عنا دائما. يحدق في الفراغ. ويكسر جراره واحدة فواحدة فلا يجد شيئا ثم يلملم شظاياها وو يعيد سبكها قطعة فقطعة ويعاود كسرها فجأة في سورة أخرى من الغضب أو الجنون، حينما ينتكس وحينما ينسى أن يتعاطى دواءه الذي ما عاد ينفعه بل يرهقه. لم يكن شفاؤه مأمولا يقول الأطباء. من يصاب بانهيار عصبي مرة ويتجاوزه يمكن أن يستمر في الحياة دون عوائق ويمكن مع مرور الوقت أن يستغني عنه.لكن من انتكس عدّة مرات فإنه سيدخل المنطقة المظلمة التي لا رجوع منها.سينزل أكثر في ذاته كما ننزل إلى بئر مهجورة .ثم تتداعى علينا لهشاشتها..تنغلق علينا البئر وتنهار الأتربة ونبقى داخلها ولا يمكن لأي أحد أن يسمع صراخنا..لا يمكنه أن يلحقنا فينقذنا أو يجدنا أحياء أبدا.

كان يحيى هكذا : رجلا نزل في بئر ذاته المهجورة وصعب عليه الصعود مرة ثانية لأنه كما قال الأطباء انتكس عدّة مرات. والشيء الوحيد الذي بقي له هو أن يتعاطى الدواء طوال العمر دون أن يأمل في الشفاء.

((أي عمر؟.قلت.هذا الذي نربيه ونهدهده ونزرع حقله بالأمنيات والأغنيات والرغبات ولكن سرعان ما يسرق منا. أو سرعان ما نجده مغتالا في أحد المنعطفات، دمه يسيل ولا أحد يلتفت إليه. أي عمر هذا وأية حياة هذه ؟.))

ثم أضفت:

– عليك يا يوسف، إن استطعت، أن تحافظ أنت فقط على البقية الباقية من عقلك حتى لا تتحول مثل يحيى إلى طائر فاقد للعش في الثلج .

كنا نأكل هذا الطعام..الطعام الذي تركه الموتى ونحن سعداء قليلا..كنا هكذا ..نخطف بعضا من الفرح متحلقين حول مائدة الكلام المستحيل ونحن نحاول أن لا نفكر في شيء آخر .

أصبح بنعمر متبرّما الآن من جميع هذه الأوراق التي بين يديه. رسائل ومذكرات لا يدري إن كان يقرؤها لهؤلاء السكارى فعلا أو لنفسه، أم أنه كان يمرر عينيه عليها سريعا وهو يريد أن يتخلّص منها. كان يحاول أن يجد لها خيطا واحدا يجمعها أو ممرّا واحدا يفضي إليها كاملة لكن دون جدوى. كانت طويلة ولا تريد أن تتشكل.كانت تنفلت. أمشاج فقط. من غير عظام أو حتى هيئة. كلّ ما بين يديه ندف من الأوراق. قصاصات ملّ من ترتيبها، لذا راحت هذه الحكاية تتورّم بين يديه. قال:

((هاهي تتقيّح كعضو منتن في جسد رجل مصاب بالعثة. إنها لا تريد أن تنتهي. وهل بدأت حقّا لتنتهي. إنها لم تبدأ بعد لتنتهي. مجرد كلمات. الكلمات الغبية التي لا تنفع أمام ما يتجاوزها. الكلمات التي نهجرها عندما لا تصبح ذات معنى. نركنها جانبا لتذوب عل مهل مثلما يُركن الثلج على جانب الطريق ليذوب.ما عاد أبيض نقيا بل صار متسخا بالأوحال والأتربة. صار متيبسا مركونا فاقدا لدهشته الأولى ذائبا لينتهي في المجاري.

هذه الحكاية لا تريد أن تبدأ لتنتهي. ولا أنا أستطيع أن أتتبع مسالكها المعتمة.و لا أستطيع أن ابتر العضو المنتن فيها. إنها حكاية خائبة، غير محدّدة المعالم. غامضة وثقيلة. كتلة مبهمة مثل الجبال القريبة..هادرة أيضا مثل "واد الصفصيف" عندما يكون جارفا.و هي تكاد تأخذني معها وأنا لا أجد شيئا أتعلق به سواها. لا أجد يقينا أومن به.

إنها حكاية باردة.ألم نقل إن الثلج يطمر المدينة في الخارج. هذه التي تتنفس الخوف؟ ألم نقل إنه يجب أن نحكي حتى يأتي الصباح؟

إننا لن نعود إلى بيوتنا كي نخبر أمهاتنا أو زوجاتنا وأبناءنا بأننا لن نعود الليلة.ربّما ظنوا أننا قتلنا ولا بد أنهم يبحثون عنا.و هم الآن مقرورون ومبلّلون وخائفون..يئسوا في أفرشتهم منا وما عادوا ينتظرون أن نعود إليهم سالمين. إنهم ينصتون إلى وقع الخطوات ويتحسسون الصباح.

كان عليهم أن يفتشوا عنا في الحكاية لا في المدينة.لأننا هنا نترقّب الصباح مثلهم. نطلب منها أن تطلقنا من إسارها.من قبضتها. لقد أعطتنا نفسها. منحتنا جسدها كي نتخفى فيه.ثم هاهي تندم لأنها تبذّرت فينا.))

نام الندامى ولم يبق سوى حسان الداودي الفرّان. أما الجيلالي فهاهو يلتفّ في بطانيته، دافئا كالحمام في آخر ساعات الليل، يلجأ إليه الغرباء والمسافرون والمشرّدون هربا من البرد. حيطانه لا تزال يقظة ولا تزال محتفظة بأصوات النهار المبلّلة، تتحرك وتتلوى، تحاول أن خرق الأرض المبلطة جيّدا. الكلمات والتنهيدات والصرخات والتأوهات والوشوشات، مع شبق الأيدي ولزوجة البقايا، كلها تتلوّى وتلتفّ برؤوس مسمولة الأعين وتزحف على البلاط، تترام بعضها على بعض ثم تتكوّم. لذا ينزلق الداخلون حفاة إلى الحمام. الكلمات زلقة وعلى الحفاة أن يحذروا.

الجيلالى يغالب النوم وحسان ينظر إلى بنعمر، وفي عينيه اهتمام وترقب لنهاية تبدو غامضة في ذهنه، ملتوية السبل، حتى أنه لا يرجو أن يصدقها إن حدثت. هو الذي كان يدافع عن يوسف منذ البداية. إنه يتكئ على الحائط قرب الكانون المتّقد جمره ويتكوّم على نفسه. لا بد أنه قد تعب من ملاحقة الكلمات فهاهو يولي الجماعة ظهره إشارة إلى أن هناك أهم من حكاية يوسف ولد المهدي هذه مع بايه. لم تعد تعنيه البجاوية التي جاءت إلى تلمسان في زمن الموت لتبحث عن شيء غامض لا يدرك معناه. في الزمن الذي كان الموت هو الأقوى ..أقوى من الحكي فكّر حسان ومن يوسف ومن بايه..أقوى حتى من الثلج. لأن الثلج ياتي ويروح لكن الموت باق لم يذهب بعد ولن يذهب.

قال:

- يا بنعمر يا وليدي صاحبك هذا جبان.

- كيف جبان ..لم أفهم؟.

- أنا أقول لك جبان..ما يفعل الرجال هكذا.

- لم افهم بعد ماذا تقصد.

- أنا أسألك ..ماذا فعل كي يخلص البنت؟ .

- ممّا؟.

- من نفسها ومما هي فيه من الخوف ؟.

- أشعر أنه لم يكن يعي ماذا يفعل . ورّط نفسه وعاش أياما على وقع الخوف من اكتشاف أمرها عنده...لم يكن يدري ماذا يفعل ؟.

- ومن منا يدري ما يجب القيام به؟ لم نكن نعرف أن هذا كله ينتظرنا.

قال بنعمر:

- نفعل أو لا نفعل..ندري أو لا ندري..إننا في الأخير لم نفهم شيئا حتى نستطيع شيئا

زلقوم

((كان عليّ أن لا أنخرط في قراءة مذكرات صديقي يوسف ولد المهدي الخرّاز أمام ذلك الجمع من السكارجية البارحة لقد أخطأت.هذه الأمور لا تقرأ على هب ودب .إنها أسرار ..حياة الناس أسرار..لقد اخطأت ووأنا أعترف اليوم بخطئي متاخرا كالعادة)). قال بنعمر لنفسه.

لقد ندم على فعل ذلك.لأن الحديث أخذهم مع السكر حتى الضحى من اليوم الثاني ولم يشعروا أنهم قضوا على الليل كلّه في الشرب. الحقيقة أن حسان هو الذي ظلّ وفيا ليقظته ولم يستسلم للنوم.أما حميدو فخرج متجهّما ساخطا على النهار وهو يلتف في كسوته من البرد. ثم لحق به سليمان ولد الفقيه وهو يفكّر كيف سيتخلص من أسئلة والده الذي سيعصره بنظراته المتهمة. أما الجيلالي الرونكو فينتظره يوم شاق من العمل في الحمّام.و من الواضح أنه لن يغادره طوال النهار خوفا من بياض الثلج.

وها هو بنعمر ملزم بالعودة إلى العبّاد في هذا الثلج. لقد رجع إلى بودغن مع صلاة الظهر ليطمئن على جدتة. لم تحاسبه في يوم من الأيام على المبيت خارج البيت لكنها كانت تطلب منه فقط أن يتدفأ جيدا وأن لا يسهر طويلا لأن السهر يضعف القوى في

النهار.غفا هناك قليلا حتى العصر وها هو يعود متعبا إلى العبّاد كي يجلس هذه المرّة مع حسان الداودي وحده. ذلك أفضل لأنه من المؤكد أن البقية لم تستسغ هذه الحكاية أو لم تصدّقها أو ربما كانت غير عادية فتركوا الخوض فيها لأنها لا تعنيهم في الأصل.وحده حسان كان قابعا يستمع ويعلّق من حين لحين.كان يرفع رأسه إلى السماء ويغمض عينيه ويستمع .لم يفهم بنعمر لماذا تمسك بسماع بقية ذلك الكلام المبهم اليوم أيضا. يبدو أنه أراد أن يستمر في الشرب يوما آخر.لا يريد أن يهزم. لم يكن من النوع الذي يهزمه الخمر ولا النعاس. نوع من المنافسة نشأت بينه وبين بنعمر. نوع من التعرّف. لقد شعر بذلك التقارب بينهما كرجلين عنيدين. الأول بشراسة الشاب القويّ والثاني بهدوء وسكينة الذي رأى وسمع وسكت.

في المساء، عندما دخل بنعمر الفرن كان حسان يبيع آخر قطع الخبز.حيّاه من بعيد وطلب منه أن يدخل من تحت الكونتوار إلى البيت وأن ينتظره في الغرفة التي سهروا بها البارحة.

إنها شبه خالية من الأثاث.كراسي من الخشب مبعثرة وو طاولة واحدة واطئة وبعض الأفرشة والوسائد على سرير قديم متهالك في الركن. لم يكن هناك من نافذة سوى الباب الذي يؤدي إلى الحوش. أما الكانون فكان نظيفا من بالرّماد.

دخل الرجل بقامته الفارعة وهيئته الوقورة ومعه صينية من القهوة وبعض الحلوى.قال: ((هذه الليلة سنسكر وسنتحدّث وحدنا. أنا وأنت فقط. لن نشرك أحدا في جلستنا. وستقرأ لي رسائل صديقك لك. أنا أحب أن أقرأ رسائل الغير. منذ أن كنت ساعي بريد وأنا أقرأ رسائل الذين أشعر أنهم يخفون شيئا. كنت أحب ذلك على الرّغم من أني أعلم أن هذا الفعل عيب ومناقض للشرف.ولكن الله غالب هذا عيبي الوحيد.واشهد الله أمامك أني لم أبح أبدا بسرّ أيّ أحد.كنت أعرف الفظائع التي تزهق فيها الأرواح، لكنّي لم أكن

أخبر بها أحدا.ليس من طبعي الوشاية بالناس وبالعشاق خصوصا. أو حتى بأولائك الأخوانجية الذين تطاردهم الدولة اليوم.

كنت أقرأ أسرار الناس في رسائلهم وأعيدها كما كانت. وأطلب من الله العفو في الصحة والعافية في الأولاد. أعرف جميع حياة الناس هنا، لكن حياة يوسف كانت دائما مبهمة عندي لأنه لم يكن يكلّم أحدا أو يصاحب أحدا أو يجلس إلى أحد هنا في العبّاد.

وهذا ما يجعلني أتوق إلى معرفة المزيد عنه عبر بقية المذكرات والرسائل التي تحمل معك. لذا فأنا أرجوك أن تقرأ عليّ البقية وأن لا تحرمني منها)).

تأمّل بنعمر هذا الكلام فعرف مقدار شوق هذا الرجل إلى معرفة المزيد.لاحظ اللّهفة في عينيه والرّغبة التي لن يرويها سوى التحقّق. ثم إن الرسائل والمذكرات كانت تثقل عليه. فقبل بقراءتها لحسان دون تردّد. كان يريد أن يتخلص منها. ويريد أن يجعلَها آخر مرّة يطلّع فيها على ما بقي من صديقه.

خرج حسان وعاد بالحطب وبمزيد من الفراش وجعلا يسوّيان النار ويصنعان القعدة .ثم أخرج الخمر من تحت السرير وراح يفتح القنينة الأولى. وضع الصينية جانبا وأخرج الفول السوداني والشكولاطة في انتظار أن يحين وقت العشاء.

وأخرج بنعمر الرسائل والمذكرات أيضا وراح يقلّب فيها مرة أخرى كي يجد من أين يبدأ وقرّر أن يشرع الحديث من الرسائل، فشرب كأسا دفعة واحدة ثم اعتدل على السرير وراح يقرأ الرسالة الأخيرة التي وصلته من يوسف ولد المهدي الخرّاز.

قال بنعمر:

-كتب لي يوسف رسالة يقول فيها:

((تيميمون. في شهر ماي.

التحية لك أيها الصديق:

إنه لا يمكننا ترك الأماكن التي نشأنا فيها تمام الترك عند ما نغادرها إلى الأبد. إننا نحملها معنا أين ما ذهبنا، نحن لا نستطيع التخلّص منها لأنها تسكن الجينات، هواؤها في الخلايا لا يزال، وعصارات ترابها تلوّن دوما حياتنا. لهذا لا يمكن نسيانها. وحتى لو حاولنا ذلك فإننا لا نستطيع، ثم تجدر بنا المحاولة أصلا؟ هل هي من حقّنا؟. إن هذه الرغبة ستبقى بغير طائل لأن ما قد قضي كان قد قضي ولا فكاك.

عندما نريد نسيان بعض آلام العيش فإنه لا يبقى سوى الخيالات بعد كل ذلك العنت. لن تترسّب سوى تلك الأحلام الصغيرة ولن تخلد سوى آثار الجري في الحواري والدروب حفاة في الصيف.لن نتظلّل بغير بهجة الشجر العالي، الصفصاف والتوت والبرقوق والعنب. لن يبقى سوى مذاق حب الرّمان وعسل التين ولألاء حب الملوك. ولن تضل غير يقظة البلاطان في نفوسنا والنسيم العبق للصنوبر وبعض الهفوات في شجر الياسمين.

نعاس الشرفات في الأصص أيضا والجري.. والجري طويلا في الدروب الظليلة أيام الصيف.و مطاردات الطيور والسرقات البريئة للثمر اليانع من الحدائق الصغيرة للفيلات وغصبه في بساتين الحرطون.و الشقاوة هنا وهناك ..كالجراء الصغيرة التي تستكشف في كل مرّة مخبأ أو ممرّا في تجوالها الممتد حتى آخر النهار.

إننا لا نستطيع أن ننسى حتى لو أردنا ذلك. فالمواطن فينا مترعة والجينات مليء بها عامرة بوفرة الانفعال وبقوّته وجدّته.

قد تكبر الأشياء وتهرم، قد تنهار، قد تمحي، لكنها تبقى في أجسادنا شواهد على الزمن. لما كنا لا نزال نستظل بفيء الأحباب، عندما كنا لا نزال نشرب أيديهم. إن الزمن لن يموت إلا بموتنا نحن. لذا تراني لا أزال أحمل المدينة التي أحببت بين أظلعي.أراها تسكنني بما أني كنت أسكنها. لأن هناك فعلا مدن نسكنها ومدن تسكننا.كيف كان ذلك و بأي ثمن ؟ ذلك غير مهم. المهم أننا نضل نحملها معنا أينما ذهبنا كالوشم على جلودنا.

يبدو يا صديقي أنني هنا في الصحراء، في نواحي تيميمون، بعيدا عن شتاءات تلمسان، بعيدا عن ربيعها وأصيافها، لا يمكنني أن أنسى منها شيئا. هنا يمكنني فقط أن أراها بشكل أفضل، تبدو ملامحها أكثر وضوحا مما مضى. لقد كانت مبهمة كوجه كنا قريبين منه أكثر مما ينبغي فبات بشعا لأننا لم نعط أنفسنا المسافة الكافية لرؤيته من بعيد.

من هنا منذ رمل الصحراء، من حرارته، من تحت هذا النخيل، من هذا الامتداد المرعب لما هو بعيد وغير ملموس.من أعلى كثيّب وجدته قريبا من قصر تينركوك. من هنا أصبحت أرى تلمسان أفضل. ربما أشبه اليوم ذلك الملك الضليل الذي هام في وجهه بعيدا عنها سنوات طويلة بعدما هزم وأخرج منها. وفي الرّحلة عرفها أفضل وعاد ففتحها من جديد.أنا لست هو تماما لأنيّ لن أعود. عرفتها لكني لن أعود إليها.

صعب إذن تحب وأن تضل ملاصقا لمن أحببت. لن ترى شيئا منه. لن تقربه، لن تعانقه، بل ستعانق شيئا آخر بينك وبينه.

الفراق والبعد واللوعات والشوق، هذه كلها تبعدني عن تلك المدينة.لست أفهم لماذا ؟ هل يجب نسافر أبعد من ذواتنا حتى نراها في صورة أحسن مما هي عليه حقيقة.؟ هل علينا أن نغادر حتما كي نرى؟

لماذا يجري ذلك لي اليوم؟ ألأني تولّدت من نفسي في تلك الأيام الأخيرة التي جرى فيها ما جرى .أم لأني تقشّرت الآن فقط وتكشّف الآن اللحاء عن ذات أخرى.. تقشّرت

بهدوء وسكينة عن كائن أخف من طائر هفهاف كانت الأثقال المتخثرة تعطيه شكل شرنقة بشعة تنام في الشتاء الطويل للكبت والقسوة والكبح.

لم أكن أدري أني أخزّن داخلي كل هذه الطاقة على الذهاب في الذات. لقد كنت هناك في مدن الثلج تلك لا أزال أرزح تحت طائل الرّعب من كل الجهات. وكانت العواصف تتحادف عليّ هوجاء شديدة ولم أتمكن من اتّقائها وحدي، ما كانت كفّاي تصلحان وحدهما بيتا لي.و كانت بايه بيتي وملجئي من ذلك الزمهرير الذي ضرب تلمسان المحروسة ذاك العام والأعوام التي تلته.

بايه..يا العصارة التي تخبأت سنينا في جوف الأرض سنينا في انتظار ربيع قادم، طال ولم يأت.ربيع كان تلك المرّة أقوى إلحاحا من الموت..قوي الهيئة، فيه نبوّة الشجر وسحر التعاويذ التي تتخطّفها السنونو في الأعالي كما يتخطّفها اللقلق من على المآذن وتحملها أم الحسن[47] في حنجرتها في البساتين وفي الجبال.

كانت الطيور تخرج من صدري كيما تحوم في سماء اسمها بايه.

ياه..كم كنت أحمقا واخرقا وبهلولا ومليئا بالخوف ومتصلبا، يابسا، قابعا في وحدتي، قابعا في غور ذاتي مثل نبع، قبل أن تأتي بايه. إنها المرأة البهية الوحيدة التي أيقظت الروح من نومها، بها خرجت الشرنقة إلى دفء الشمس لتسفر عن كائن مختلف أكثر حرية.

لا أذكر من ذاك الذي قال إننا نحتاج إلى كون بكامله من أجل أن تطير فراشة. إن هذا الكلام حقيقيّ،لقد جرّبته لأنني كنت احتاج إلى بايه فقط لكي أخرج من نفسي.

بايه..ماذا أقول عنها. المرأة التي علّمتني بعنادها أنّنا نملك من القدرة والإرادة والبهاء والجمال والقوة والعزيمة والدهشة ما كان يملكه العبّاد من الشمس.لقد خلقتني بايه رجلا آخر بقدرتها على أن تجعل من كل ما تلمسه لألاء وبهجة. كانت تنحتُني من الصلصال

---

[47] طائر

وكانت يدها الحجر الفلسفي الذي يحوّلك إلى ذهب خالص حتى ولو كنت صلصالا متفحّما.

ها أنا الآن يا صديقي أكثر شفافية مما مضى، وألين من هذا الرمل الذي اجلس عليه حافي القدمين. إني اكتب لك من أعلى كثيب رمل وجدته.بعيدا عن القصر، هو الآن على بعد شوط مني فقط. إني أتامل غروب الشمس هنا. أتعود على الغروب الحقيقي، على الأفول، من هنا يبدو القصر جزء ضئيلا من هذا الامتداد.فهو مغطى بالنخيل كلية وتكاد تختفي بنايات الطوب تحت خضرة السعف الذي يمتدّ في الأفق ويتطاول.البيوت تمّحي هنا ولا تظهر. ليس هناك ما ينغّص الرؤية. ليس هنا حيطان عالية أو دروب وحواري وعمارات وأرصفة تهدّد بالضياع، أو أوحال ومقرّات حكومية كثيرة شامخة وأكبر من قاماتنا. لا توجد ممرّات وأبراج وبنايات مصفدة بالحديد والثلج.

يبدوكل شيء هنا متمازجا، متداخلا. أكاد أقول إنه لا يوجد شيء هنا. ليس هناك الشيء الذي يعلن نفسه سيّدا على مصائرنا. تموت الأشياء هنا وتغيب فتصبح فاقدة للمعنى. ليست مقدسة ولا حاضرة. إن وجودها كعدمه. الطرقات متربة ولينة بذلك الرمل الأحمر الممزوج بالطين الفاتح الحمرة الذي تبنى به الحيطان والبيوت.أما البشر فقليلون، يحاولون التخفّي من الحرّ غير راغبين في الظهور.لأن الالشمس تطرهم إلى الظلال. فلا يوجد منهم إلا القليل في طريقك.القليل الكافي الذي تحتاجه لكي تقدّم تحية الصباح أو المساء.

من هنا لا يمكنك أن تفرّق ما بين بستان من النخيل المحاط بالحيطان العالية وبين البيوت. يخيل لي أني لم أر بيوتا قط، النّاس يخرجون من الحيطان فقط. أما في الداخل فضلال وآبار وماء وبعض الحكايات. وعادة الاستلقاء الأبدي على الرمل.

الكائن هنا لا علاقة له بالنوافذ والأبواب والشرفات والأشياء. تلك عادات المدن.أما هنا فلا يوجد شيء يتعلقون به، سوى الظل..يتبعون الظلال دوما، طوال حياتهم.و سأتبع

الظلال معهم وهذه الآثار سأقتفيها. هنا لا أمكنة تلتصق بك.لقد تخلّصت من العبّاد، ومن تلك الأحجار الرازحة على قلبي ..يكفيني ما عانيت منها. هنا حالات وفقط.

لا تلتصق بك الأمكنة لأنها في عدم وجودها تكون غير ملزمة، لا رطوبة فيها ولا نتوء. إنها لا تقف قبالتك لتتحداك بصلابة حجرها. مقابل هشاشة لحمك وسيلان دمك فالصحراء تبتلع كلّ شيء.تشرب كلّ شيء، حتى دمك.لا يمكن أن يبقأي سائل عليها..متجمدا أو يابسا، ثقيلا، حاضرا ورازحا على الأنفاس. لا يستطيع أي شيء أن يتخثر تحت الشمس أو أن يأخذ شكلا محدّدا.كلّ شيء يتبدّد.

لا تريد الصحراء منك دمك، ليسيل عليها ويبقى بل سرعان ما تشربه ليغور.. ليذهب.. ليزول ويمّحي فلا موت ولا حياة، لأنه ليس فيها ما يعلن نفسه سيدا سوى الامتداد.

كم كان صعبا في البداية التأقلم مع هذا الوضع الجديد. لأني لم أكتشف هذه الأشياء إلا بعدما هجعت هنا شهورا. لقد أخذت الوقت الكافي كي أصفو من الكدر في داخلي. أخذت الوقت الكافي لكي تجفّفني الشمس كالطين في النار. لأنه عندما نكون أصحاب يقينيات ونكون متمسّكين بلحم الأشياء، اللّحم المحترق للأشياء الصلبة، نعيش الشقاء كلّه، عندما نكون متمسّكين بما يمكن أن يسمّى المعنى وعندما يكون الثقل في الأقدام،و على الأكتاف، واليدين، وداخل الصدر، سنشقى أكثر ونتعب كثيرا في التخلّص من كل ذلك لأنّنا سنلعن أنفسنا عندما لا نجد ما نلعنه كلما وقفنا وجها لوجه أمام حقيقتنا.

في البداية نشتكي كثيرا من النظر إلى وجوهنا في المرآة.لأننا لا نجد عادة غير الفراغ يطالعنا كل صباح. ويحاصرنا غياب الأشياء من حولنا، تلك التي كانت سببا في غربتنا. نِحِنُّ إليها كما يحنُّ العبد إلى قيده.أو الضحية إلى جلادها من طول الألفة.

يتملكنا الخوف في البداية ويكبّلنا..نشهق ونرتعد كما الطفل الذي يرمى فجأة في البحر أول مرّة..يصبح سعيدا لأن جسده وجد شيئا غامضا كان قد فقده منذ الولادة. ويغدو خائفا لأنه يجب أن يتخلّى عن أمور اكتسبها من أجل هذه اللّقية بالذات.فما أشقى إذن

أن نملك وأن نكره ما نملك.و ما أصعب أن نحاول الترك فلا نستطيع. ما أفظع إذن أن نبقى عبيدا لليقين على طريقة مدن الثلج. ذلك صعب. وذلك هو الافتقاد الحقيقي.. تلك هي الغربة الحقيقية.

قلت لك إني أكتب لك هذه الرسالة الطويلة من أعلى كثيب رمل وجدته هنا.أشاهد الشمس الغاربة.و أتساءل هل يرى صديقي ما أراه في هذه اللحظة من أعلى بيته في "بودغن"؟ ..من المؤكد أنك لا ترى شيئا.إنك لن ترى إلاّ ما أراد لك الوقت أن تراه. ما أرادوا لك أن تراه .

أنا على العكس منك..أشعر أني تخلّصت منهم. أصبحت أخفّ قليلا.وأشعر اليوم أيضا بتغيّر غير عادي في حجمي. أنا أتحوّل..أتشكّل من جديد..من كائن متصلّب الحركة إلى كائن بليونة الرمل..من كائن كان قميئا صغيرا في معادلة خطرة إلى رجل آخر بحجم أكثر رحابة..أكثر أتّساعا من الصحراء.

ألا يقولون إنك دوما بحجم ما ترى؟.إني بحجم الصحراء التي لم أعد أراها في هذه اللّحظات لأن الشمس ذهبت تماما ولم تعد الصحراء تراني لأننا أصبحنا بالحجم ذاته.

ملاحظة : أتوقّف الآن عن الكتابة لك وسأعود لاحقا إليها عندما أصل غرفتي.فقد غمرتني الظلمة تماما..غمرتني الصحراء. وشرعتْ تلمسان تحضرني.و عندما سأعود أدراجي سأسمع حشرجة الحصى الرملي تحت أقدامي سأستعيد حشرجة الجليد تحت الأقدام في المدينة التي غادرت. فعندما تغيب الصحراء تحضر المدن التي نحب. أسمع تكسّر الحجر الصغير الممزوجو أقول: يا لها من مفارقة !.و يا له من تعب !.

أعود إليك..في البيت وتحت الضوء الباهر للمكتب الذي آوي إليه وحيدا كما رجل وحيد على شراع وسط البحر. أشعر بالعزلة القصية في هذا المكتب.

أعود إليك لأكمل الحديث الذي قطعته.

قد تسألني يا صديقي ما الذي جرى؟ما الذي غيّرك إلى هذه الدرجة؟.أقول لك لا شيء محددّا.لا شيء سوى أني صحوت من غفوة طالت بي.كنت غافيا فيّ.كما الشجرة في البذرة. ثم وجدت نفسي داخلها بعد ضياع،فنحن عادة ما نبحث عن أنفسنا خارجها..عند الآخرين أو في أماكن أخرى، على الرّغم من أننا لا نوجد سوى في داخلنا.

إنها رحلة متعبة وطويلة..تقول لي حتى تصل إلى هذا الاكتشاف الذي كان فيك. تقول: ضيعت كثيرا من الوقت. أقول لك: إنها رحلة ضرورية ربما. فكلّ آلامي وكلّ أحزاني، كلّ ما وقع لي، كان لابد منه، كان لابدّ من الكثافة كي أكتشف الخّفة. كان لابد من التختر حتى أعرف الانسياب والسيلان. ولابدّ من ثقل الماء حتى نعرف لذّة التبخّر..

تقول لي ألم تعد تخشى شيئا؟.أقول لك : بلى. أني على الرغم من ذلك فأنا لا زلت أخشى أن أعود إلى الصلابة، إلى اليبوسة بعد جميع هذه التجارب. لأنها دورة الحياة الخطيرة. من اليبوسة إلى التبدّد. تماما كورد الرمال الناتج عن التعرّق ثم التحجّر في جوف الرمال. لا شيء ثابت. لا شيء باق على حاله.

قد تقول لي هو ورد على الرغم من صلابتة. فأقول لك ما جدوى ورد لا عبير فيه غير الغبار؟ ما جدوى أن تكون وردا وحجرا في آن؟.

وأفكر أحيانا. أليست هذه الدورة الكونية ضرورية؟.ثم أقول نفسي : إنك لن نستكين. وربّما أنك قد جننت بشكل ما. جنّنتك بايه ذلك الجنون الجميل المختلف كلية عن جنون أخيك الأبله.

لا أعلم من أين جاءت بايه بكل تلك القوّة وبكل تلك الجرأة والليونة التي كانت تغمرني بها. كما يغمرني بها الرمل اليوم من كل الجهات. بايه كالماء، كالرمل تنساب فيّ وعليّ فتشكّلني وتنحتُني ثم تذيبني فيها.

تقول لي ماذا فعلت لك هذه البربرية التي جاءت من أقصى الأرض حتى جعلتك بهذا الشكل الذي تصف؟

أقول : إنها لم تفعل شيئا سوى إنها كانت حاضرة. وحضورها وحده عندي بالعبّاد جعل منها الشرارة التي أشعلت كل بيادري. إنها بوجودها فقط. بعبق حضورها. بكثافتها المختلفة. بصدى عواطفها، بعدم عقلانيتها، بانفلاتها، بسكينتها، بإرادتها، بيقينها الذي يخصّها وحدها، في دواخلها، بذلك اليقين بأنها منّي وفيّ..بكل هذا الذي ذكرت والذي لم أذكر : جعلت منّي رجلا آخر.

لقد كانت تحدس بيّ فيّ. ولم أكن أملك قدرتها كامرأة على الحدس. عرفتْ بأني أشبهها وبأننا من طينة واحدة. من عجينة واحدة. عرفت أن الرجل الذي ينام داخلي لم يكن مصنوعا من زوائد الطين كما كنت أهذي في مذكراتي التي تركتها لك. بل كنت آخر مركونا في زاوية كتمثال من الرّخام منتصبا في خلاء الغيبة، ينتظر هبّة النفَس الأنثوي الذي سيوقظه من رقدة الحجر.

لقد ملكت القدرة على لملَمة شتاتي في سبعة أيّام. وهو وقت قصير بالمقارنة مع الوقت الذي استغرقته في تبذير نفسي. أليس كذلك؟

كانت بايه المرأة الوحيدة التي جمعتني قطعة فقطعة من كلّ مكان أوقعت فيه شقفة منيّ. جمعتني من كل الأضرحة التي دخلتُها مع والدتي منذ طفولتي. من كل الدروب التي جريت فيها مع أصحابي. من الحواري والشرفات ومن المداخل والأبواب..جمعتْ رُفاتي وأحرقتها فوُلدتُ منها ثانية. هي البربرية الساكنة القمم. الساكنة بهاءها، العارفة بتفاصيل خارطة الوطن. منذ الولادة الأولى إلى آخر القتلى؟.

قد تقول كيف؟

أقول : كان ذلك في العبّاد. أيام كان يملؤني الرّعب منها والشوق إليها وهي معي. تفصلني عنها هوّة لم يكن من الممكن ردمها. إلا عندما اكتشفنا معا أنها خدعة. لم تكن تلك الهوة شيئا أبدا. كانت ظلاما يابسا، متخثّرا لا شيء خلفه.

قد تقول : إن السِّجن غيّرك.أقول: كنت قد تغيرت قبل ذلك. قبل ذلك كان الطوفان. أما السِّجن فلم يكن شيئا ذا بال، لأن هناك في حقيقة الأمر سجون أخرى يجب أن نكتشفها قبل أن نطلب الحرية إنها أكثر رعبا،هي العائق الحقيقي.لا بد انك تعرفها ..إنها تلك التي تسكننا..أما سجون الحكّام والعسكر فلا معنى لها. فهناك سجون أعمق.و هي التي ترعى الأجداث فينا. وهي التي يجب أن نحطّمها واحدا فواحدا. إنه لا يمكنني أن أسميها لك. لكننا نشعر بها دوما.لذا يجب القبض عليها وتحديدها ثم تحطيمها.. يجب معرفتها أوّلا ثم الشروع في القضاء عليها يوما بيوم إلى النهاية.

لا تتصوّر يا صديقي أن خروجي إلى الصحراء أو دخولي فيها- سمّ ذلك كما تشاء- كان هروبا. لا..لا..إنه لم يكن سوى تداوٍ.. أو قل شكلاٌ من أشكال الاندمال والبرء.. أنا لا أستطيع أن أصفه لك الآن بدقة ، لكن يجب أن تجرّب ذلك بنفسك حتى تعرفه..

أقول : لست أنا من اختار هذا المصير، هذا الذي يمكن انك تتصوّره على أنه منفى. هو من اختارني. زارني صديقك سعيد قادري ذلك العام في السجن.و أشار عليَّ بأن أغادر إلى الصحراء حتى تهدأ الأوضاع. كان هذا ما يقترحه. أما أنا فكنت أعرف منذ زمن أني إذا ما غادرت هذه المدينة فإنّني لن أعود إليها.

كان الرجل قد قام بجميع اتّصالاته هنا. وسلّمني رسالة توصية إلى أحد أصدقائه. قال أنني سأكون أفضل حالا في الصحراء وكانت فرصة لأجرّب قدرتي على الرّحيل حقيقة في الأصول. إذ أنني لا زلت أعتقد أن الصحراء أصل لكل هذا الذي تراه.

كانت الصحراء في البدء وستكون الصحراء في الأخير. الصحراء باعتبارها امتدادا وباعتبارها رغبة ودهشة. أنا لا أقصد الرمل والخيام والعشائر والقبائل..هذه أشياء الصحراء. بل أقصد شيئا آخر يجب أن نجرّبه في أجسادنا. حتى نعرفه.

جاءني سعيد في اليوم التاسع بعدما غادرتم مخفر الشرطة قبل انقضاء النهار.في ذلك اليوم الذي جلبت لي فيه خالتي الزهرة معها التقنتّة.

قال لي:

– لا تستغرب زيارتي لك فأنا رجل يقدّر فيك شجاعتك.أنا احترمك منذ زمن. أعرفك منذ زمن من خلال صديقنا بنعمر. يحدّثني دائما عنك. ولا بدّ أنك تذكر أول مرّه جلسنا فيها معا. في ذلك اليوم جئتني من أجل المحاضرة التي ألقيتها عن شعر الحب عند أبي مدين شعيب التلمساني..

سكت قليلا واتّكأ على الطاولة بمرفقيه، ومدّ يديه أمامي ثم قال:

– يومها كنتَ تُحدّثني عن هيئتي وأنا ألقيها ووصفت لي كيف أني كنت وحيدا جدا علىالمنصّة.و قلت لي أني رجل يحمل معه شارة مبهمة على وجهه، وفي حركاته ..كان ذلك هو اليوم الذي عرفت فيه انك رجل موبوء بشكل ما، بطريقة ما ومبليٌّ أيضا.و مقدّر لك أن تعيش أشياء مذهلة..

وأخبرني كيف أنك حدثته عنّي وعن البجاوية الغريبة.وأنك ذكرت له أن سيدي بومدين هو من جمع بيني وبينها.قال:

– حينها عرفت أن هناك قدرا رائعا قد اختارك لتعيش تجربة خلاصك من التخثّر.

ثم أضاف بحزن:

– أنا أفهم هذه الأشياء، إنّي أعيشها في دخيلتي. واعلم انها أمور لا يمكن ان تنقال .إنها أمور نختبرها وفقط.

قال:

– لما عرفت أن بايه التي كانت الشرطة تبحث عنها في كلّ مكان مختفية عندك أكبرتُك في نفسي لأنك خاطرت بحياتك وحياة عائلتك كلّها من أجلها. ولما أخبرتني الآن عن

تلك الأسرار المتعلّقة بها فاني أقول لك يا يوسف يا خويا أن مصيرك يشبه مصير سيدي بومدين مع العشق.

كان سعيد برحابة نفسه ورهافتها محبًّا عظيما في تلك اللحظات ومتحمّسا جدّا يحسب انه وجد رجلا يشبهه. قال عني كلاما لم أوافقه فيه لكني أحببته منه، إذ كان يقوله بطريقة رائعة. لم أكن شيئا من ذلك على الإطلاق. فقد التبس عليه الأمر.هو الرجل الذي كان يحاول ملكا ما خاصا به ويرغب أن يشاركه الناس فيه.كانت مملكة لا يعرفها سواه.لكنه حاول أن يدخل إليها بعض الأصحاب لكنهم كانوا أهل يقينيات لذا فلتت منهم، عاش فيها وحده يدعوهم للعودة إليها لكنهم كانوا يريدون الاستثمار فيها، يتعاملون بمنطق الرّبح والخسارة.كانوا بقالين وكان سيّدا للوقت، سيّدا للمملكة التي لا يعرفها أحد غيره..لقد أخذها معه..أخبرتني في آخر رسالة لك أنه مات في حادث سيارة. لقد أفجعتني..ليتك تركتني غافلا عن هذا الخبر، كي أبقى متأسيا.

ما كنت أنتظر من الموت أن يفعل بنا هذا أيضا.أن يأخذ منا الرجال الحقيقيين..أن يتركنا دون رفقاء..

أصبحت لا أستطيع التعليق على مثل هذه الأمور..إنه الموت، تتملكني الحيرة أمامه.و أقف مشدوها أمام سلطانه القاهر إذ لا يعزيني فيه شيء...

إنّنا في كثيرمن الأحيان نريد أن نتلمّس بأيدينا بعض ما يجري لنا.كأنما حواسنا الأخرى لا تكفي.الذاكرة والتجربة العينية لا تكفيان.و تأكدت انه يمكن أن تخونا أجسادنا ومداركنا. أو أنها يمكن أن تتعطّل في بعض اللّحظات. هناك دائما هنّات ما أو سهو ما في ما نقوم به من أفعال وفي ما يقع لنا من أحداث. نوع من الانقطاعات. لحظات وفترات يغيب فيها الجسد، يسهو فيها، يتعطّل، إما من التعب أو الألم أو لمجرد السهو فقط. توقفٌ عن الانتباه لا نشعر به لأننا نكون في تلك اللحظات غائبين بشكل ما.

كنت أتمنى أن يحصل لي ذلك في تلمسان لأن دواعيه كانت قائمة بشراستها وقوّتها.لكني كنت حاضرا دائما،متيقظا، دون رفّة واحدة، دون سهوٍ على الإطلاق. ومن كان يمكنه أن يسهو على نفسه أمام الموت. من ذا يملك الجرأة. كنا كالذئاب، عين نائمة وعين مفتوحة على الصباح.، ننتظر انبلاج الصحو الذي لم يكن ليأتي أبدا.

وها أنا اليوم قد وجدت أناسا آخرين، لا يختلفون عن اولئك الذين يمكن ان تجدهم في كل مكان. أمضيت عامي هذا ادرّس تلك الحكمة الحامضة التي لا تزال تطاربي محاولا ان ادخل في عقولهم الصغيرة تلك المشاهد المقرّرة البعيدة عن بيئتهم. حاولت ان اشرحها لهم. لكنها ظلّت غريبة عن نخيلهم ورمالهم وفقرهم وعن الرمد عيونهم. بعيدا عن آبائهم الغائبين في العرق بحثا عن الجمال أو في رعي الأغنام ليالي واياما. غريبة عن واحاتهم وزوابعهم وكثبانهم وقصورهم وترابهم الأحمر.

أظل هنا وحدي ..في عزلتي القصية..عاجزا عن تزويج الثلج للرمل..أبقى متعطّلا، أسترجع وجه بايه الذي غمر كل حواسي. فهي لم تغب عني لحظة واحدة. أظن اني نسيت ان اتركها في غمرة الخروج. جئت بها معي.

كنت اتصور اني عندما ابتعد عنها أني سأشفى منها. لقد وقع العكس تماما..انا لم انسها أبدا، بل زاد شوقي إليها وهي اليوم فيّ. إني أجدها في كلّ مكان.حاضرة معي كظلّي.لا تغادرني.

عند الصباح عندما أقوم إلى المرآة لأغسل وجهي أجدها تغسله معي بيديها. أبتسم لها فتبتسم بشفتي. أمرّر كفّي على شعرها فتتخلّل أصابعها شعري. أتملّى عينيها عندما أحدق في سحنتي. وأراها تتفقّد آثار جراحاتها وآلامها باقية على جبيني. أحار فأتلمّس خدها بيدي، ألبس جسدها وأغادربه إلى العمل خفيفا كالرمل في الريح.

إنها كالظل معي طوال النهار في العمل وفي المساء عندما أرتمي في سريري أجد أنها قد سبقتني إليه.حتى أني عدت لا أشرب سوى قهوتها المرّة التي تحبها.

أصبحت أراها في كل شيء. في كل خطوة أخطوها، في كلّ نفس يخرج مني فتبدو حاضرة في كل نأمة منيلأنيّ أسمعها تتكلّم في مكاني عندما أتحدّث إلى نفسي.

يحدث هذا بشكل واضح عندما أكون صامتا جراء جهد النهار.أو عندما أضرب في الصحراء على الكثبان وحدي.

في أول الأمر، كان هذا يشعرني بالخوف من الجنون.لأن حواسي كانت قد اختلطت فلم أعرف حواسي من حواسها ولم أعرف فكرتي من فكرتها وانفعالاتي من انفعالتها. كنت اشعر بصعوبة المهمّة في أن يُساكنك كائنان، ثقيلان متخثّران.

كانت البداية صعبة حقا لأني كنت كالطين الذي لا يزال مبلولا، ثقيلا مترعا بالماء.لكنّي مع التقدم في تلك العزلة وفي ذلك التساكن، شرعت في التبخر رويدا رويدا .كنت أفقد الثقل وشرعت في التخلّي عن اللّحاء الذي كان يغلّفني منذ سنوات تلمسان. لقد سكنتني بايه ولا فكاك منها.

ربما بدا هذا الكلام غريبا لكنها الحقيقة. إني أشعر اليوم بها في كل مكان مني.على الرغم من اني أفتقدها.. يا بنعمر يا خويا. إن الرحلة إلى الذات الحقيقية صعبة والرحلة عنها اصعب. فعندما نجد فإننا بالضرورة نفقد. هذا ما تعلّمته منها. والأفضل في هذه الحال أن لا نجد وأن لا نفقد.لأنّ العيش بين الأضداد غبنٌ ما بعد غبن.

كنت قد وجدت ما فقدت وقد كان فيّ.وكنت أعيش قبلها بين الأضداد. وتعذبت طويلا لهذا. لكني اليوم هادىء ساكن.قد همدت كل الحروب فيّ وبدأت أترمّم، ألتئم وأشعر أني لم أفقد شيئا ولم أجد شيئا خارجا عنّي.

يا بنعمر يا خويا..ربّما بدا لك هذا الكلام غريبا لكنه الحقيقة..فقلها إذن لكل الأصدقاء ..و كل الأحباب..و إن لم يبق أحدهم هناك، وإن غادروا كلّهم ..قلها للرّيح والثلج ..للحيطان وللمطر هناك.و لشجر البلاطان لأن هذه العناصر ستصدّقك.

أخيرا لا تنسى أن تقول لأهلي أن لا يخافوا..فقد مرّت بهم هموم أسوأ من هذه، مرّت بهم عصور أعتى من عصور بن بوستة، لككنّهم نجوا منها، عبروها سالمين..يعشقون ويحيّون ويفرحون ويستمّرون..

قل لهم أن يتذكّروا ما كان أجدادهم يقولون عندما تشتدّ بهم الأحزان

((فرج الله قريب ..يا لأخون ..فرج الله قريب.))

ليردّدوا هذا الكلام

((فرج الله قريب.. فرج الله قريب))

الغزو

اليوم السادس.

قال يوسف:

اللّيل كلّه ذات الساعة متعدّدة، لأنه يعمه في الظلمة منذ البداية حتى الصباح..إذن فهي ساعة أخرى أطول من الدهر قليلا.

يقول القديس أوغسطين ((كنت ابحث عنك خارج ذاتي فلم أجدك لأنك كنت في داخلي))...و هذا ما يقع لي بالضبط مع بايه. كانت فيّ ولم أكن أدري.ساكنة فيّ سنينا ولم تظهر ولم تتحرّك جذورها إلا مؤخرا. لأن قلبي كان مليئا بالغبش ولأن عينيّ كانتا قاصرتين عن النظر.فاني كنت أعمى يقود أعمى داخله. كنت أمرّ على سطح الأشياء ولا أرى منها غير ظاهرها. بينما يشتغل تحت الجذع الصلب نهر من الحياة. ومع كل ذلك فأمر البحث والرؤية يتجاوز بايه إلى أشياء أهم منّي ومنها. فما يقع مخالف للمعهود.و لأنه مخالف للمعهود فهو يقع. قلت لنفسي .

إنها تشبه جميع النساء غير أنّ ّها مختلفة لهذا فهي رهيبة وأنا أخاف منها وعليها تماما كما أخشى من نفسي. إنها من طينة أخرى..نادرة..طينة لا تتشقّق ..ربما كانت زمردا، لأن الزمرد أقوى إلى درجة أنك تستطيع أن تشق قلب رجل بجرة واحدة منه.

أنا دائما شيئ آخر لا أدري ما هو.أنا طين أسود تشقّق ربما، لأن النار التي أنضجته لم تكن حامية بما يكفي أو لأن يد الخزاف فقدت براعتها يوم كوّنتني من البقايا الزائدة المرمية في الزاوية. أنا نسيج وحدي وسأبقى هكذا. اطّفرت.. قال لي بنعمر ذات يوم:

– هذا هو القالب الذي صبّك فيه الخالق ..و لن تستطيع الفكاك منه.

قلت: ((عليّ إذن أن أذهب هذا الصباح أيضا إلى العمل.لم أكن متأكّدا من أني أستطيع ان أقوم به على اكمل وجه، ككل مرّة، الشعور نفسه بأني أكذب، وبأني أساهم في المغالطة ذاتها. الإحساس ذاته بأن لا شيء تغيّر أو سيتغيّر.حالةٌ من الثبات المرّ.

لكني ساذهب بحكم العادة لا الواجب.لم يعد هناك من واجبات.كانت العاداة ما يملي الاستمرار في الحياة على هذا النمط. العادات التي تنقذنا من حتفنا وممّا كان يسميه البعض صمودا. من كان يسمّي قيامنا كلّ صباح صمودا أو واجبا كان يستمرّ في الصعود على أجداثنا التي كانت تسير دون أن تنتظر النعوت في الطرقات. إنّنا نحيّي لتجزية الوقت فقط. لا أحد يحتمل أن يبقى في بيته، لأن ما كان يجري كلّ ليلة كان فوق قدرة الانسان على اجترار وحده مع أهله منغلقا على نفسه. ان الوقوف يحتاج إلى طاقة مرعبة على الكلام. وعلينا ان نخرج إذن في كل صباح لكي نتنفس ومن ثمة علينا أن نعمل أو أن نتسوّق ثم أن نجلس في المقهى أو أن نصل هذه الأماكن جميعا وبالتالي كنا نحتاج إلى زملائنا في العمل كي نقص عليهم ما يقع لنا. وكانوا يحتاجون إلينا بدورهم كي يسردوا ليلتهم وهكذا لم يكن الوقوف أو الصمود سوى نوعا من العبث الذي يساعد على انوجاد الحجج.كانت المقاهي بهذا مفتوحة ومقرات العمل مشرعة والحوانيت عامرة على الرغم من الغلاء.وكان لابد من أن تستمر الأمور على حالها إلى بداية الليل حتى يستطيع الناس الحياة وحتى يجري لهم ما كان لا بد لهم أن يتحمّلوه، ليعاودا الخروج غدا لروايته. هذا ما يقع بالضبط أما أي كلام آخر فهراء كلّه.))

لم أنم البارحة أيضا، أكان ذلك من الخوف فقط أم من البرد الذي تحوّل إلى صقيع؟. لا شيء يعادل ما وقع البارحة. كان فظيعا إلى درجة أني أأجل الحديث عنه في كل مرّة ولا أريد أن أتذكره .يجب أن أحاول نسيانه وسأجتهد النهار كله في ذلك.

إني مستيقظ منذ الأمس. ولا تحملني رجلاي من التعب ومن الأرق. لا أحد كان يتصوّر أن الذي جرى كان ممكنا في المدينة. أعرف الآن كيف يعيش أهل القرى هذه الأيام. وأدرك اليوم ما يقع لهم. أتساءل كيف يتحملون.أي صبر أو أي عبثية في بقائهم هناك.

إن ما وقع البارحة جعل أبي يفكر جادا في مغادرة العبّاد إلى أي مكان. لكن إلى أين؟. قلت فالوطن كلّه يحترق. المطاردات والاغتيالات في كل مكان.و تلمسان أشبه بالمدينة المحاصرة التي لا خلاص لها من نفسها.

يريد أبي أن يهرب.

قلت:

((إلى أين ستهرب يا أبي من صنيعك. ممّا اقترفت يداك؟ النار نارك وانت تهرب؟.))

كنت متعبا وكان الوهن في الركبتين وأشياء كثيرة تختلج في الصدر، تخترقه كالمدي الحادة، تعبر من القلب إلى المعدة.

البارحة فقط جرّبت لأول مرّة وأكثر من أي وقت مضى كيف يكون المرء جبانا. لا أعلم إن كان ذلك هو الجبن حقّا أم أنّه نوع آخر من أنواع العجز.ذلك الشعور بأن الأرض تتحرّك وتتقوّض تحتك. رمال يغوص فيها التائهون الذين لم يعودوا قط إلى أهاليهم.رمالٌ يعرفون حرارتها الداخلية مرة واحدة في الأبد. يجرّبون كثافتها والاختناق بها، يتشمّمون رائحتها العتيقة هذه التي عندما يستنشقونها فإنهم لن يعودوا إلى ديارهم سوى جثثا هامدة.

لقد بقي في حلقي بعضٌ من مذاق ذلك الرمل طوال اليوم، أثناء العمل وحتى المساء.

في الغد من الغزو وجدت بنعمر عند باب المدرسة ملتفا في المونطو الأسود من الفلانير، بحذائه الخشن وذقنه الذي لم يحلقه منذ أيام. نظرة زائغة لرجل يعتذر على كونه بقي حيا فاضطرته واجبات الصداقة أن يطمئن على صديقه. أعلم انه كان يكره هذه الواجبات بالضبط..يكره ما يسرق منه الكلمات..كان واقفا وسيجارته في يده اليسرى. صافحني بيمناه وشدّ يدي بحرارة وقوّة كأننا لم نلتق منذ دهور. بدا المونطو اكبر منه قليلا وبدا شاذا أيضا بحضوره الغامر وسط الأطفال الذين يتسرّبون من تحته. لم أستطع أن أجد له أيّ مكان في هذا المشهد المبلّل البارد الذي لا يزال يحتفظ في قرارته بالأنفاس المرّة لليلة البارحة.

غادرنا إلى مقهانا وسط المدينة. كان كلّ الناس من حولنا منتفخي الأعين.صامتين، منخفظي الرؤوس أكثر من ذي قبل.قلقين ووحيدين، يمشون فرادى في الطرقات. لقد بدا الناس خائفون من بعضهم البعض.

نحن أيضا مشينا صامتين إلى مقهى باب وهران، عبرنا الأزقة التي راحت تخلو من الناس مع المغيب. وعبرنا المسافة الضرورية للقول. أنصتنا لوقع خطواتنا.وما كان علينا الكلام إذ الحال وحده كان يقول احتضارنا الطويل.

لما أردنا أن نطلب قهوتنا لم نجد كريمو.لم يكن في أي مكان .و لما سألنا عنه قال لنا صاحب المقهى أنه انتحر. سكتنا..

كدنا نقوم من مكاننا ونخرج للبحث عنه لكننا لم نكن نعرف أين يسكن. حارس صداقتنا لسنوات طويلة انتحر. لم أرد أن أعلق على هذا الموت. سكتنا. ما الذي كان يمكن أن نقوم به؟ ماذا كان علينا أن نقوله ؟ لا شيء. جلسنا وانتهى الأمر..

راح موت صاحبنا يتسرّب في مذاق القهوة المرّة التي أحضرها لنا عمي الميلود بنفسه.

قلت في نفسي:

((كلنا يحمل موته معه مثل جوهرة ثمينة. يخبؤها عن أعين الناس. من كان يشعر أن كريمو كان قادرا على الانتحار. كان هادئا ومسالما وشاردا. لا يتحدّث كثيرا، لعطب ما كان في روحه أم أن لثغته كانت تمنعه من الكلام. لا شارات للانتحار. إنه عمل في الأعماق فقط. في السكون. كان كريمو ساكنا وساهيا دوما. يحمل لوثة في اللسان وربما لوثة أخرى في القلب. لم يكن من الممكن أن نرى شارة موته لأنه لم يحملها معه أبدا بل كان يعتني بها وحده في صمته الغريب ذاك. ربما جاء انتحاره سهوا. في لحظة وهن))

قال لنا عمّي الميلود أن أخته أغتصبت ولم يزد. وقلت:

((مات سهوا وفي لحظة تعب. عندما كف عن المقاومة))..

استسلمنا للتعب نحن كذلك.وما عادت هذه الأخبار تفعل فينا شيئا. حاول بنعمر أن يبتسم كعادته كلّما أراد أن يقول شيئا ما فيه ذلك التهكّم الجارح.كأنما ليطرد شيئا ما. أشعل سيجارة أخرى وقال:

– ها أنت ترى يا السّي يوسف هذا هو الحال. لنعد إليك أنت. يبدو أنك الناجي الوحيد من الغزو البارحة .

سكتّ ورشفت من الفنجان جرعة، كنت أشرب نفسي، فيها بعض المرارة وبعض السخونة. ضحك بنعمر ببلاهة ثم قال:

– ها أنت لا تتكلّم..أصبحت مثلي أخرسا..هِهْ لقد أخرستك الكارثة أنت أيضا.

لم أرد على بلاهته. التفتّ إليه وقلت بجد :

– الكارثة..يا السّي بنعمر هي أنك تتكلّم مثلهم عن الكارثة. بالطريقة ذاتها. كأنما ليطردوها من أمام بيوتهم إلى بيوت الآخرين..وأنا ساكت لا أقول شيئا لأنها فيّ. بكل بساطة..هي هنا ولا أحتاج إلى الإفصاح عنها..

قال فجأة وهو غاضب، كأنما استفزه كلامي:

– خروج المئات من الناس من بيوتهم البارحة وهروبهم بأرواحهم من الموت وهم حفاة وشبه عرايا ليس على ظهورهم سوى قمصان النوم..النساء والأطفال والشيوخ الذين تيبسوا من البرد وهم يصرخون وينتحبون ويبكون..الأمهات والزوجات والأخوات والعازبات والفتيات الصغيرات والرضع الذين هبّوا من الكوابيس إلى الطرقات، يلتفتون في كل مكان، لا يدرون من أين تأتي الصيحات والنداءات اليائسة وهم يعتقدون أن موس الذبح التي تعمل في الخلائق تلاحقهم لتحصد أرواحهم من بودغن إلى الرياط إلى سيدي شاكر إلى القلعة والعبّاد..هجوم غزو تخلّعت له قلوب الناس فخرجوا لا يدرون إلى أين يهربون ..

هذا كله ليس كارثة؟..

هذه المرارة في الحلق وهذه الوجوه التي نراها لا تجرؤ على رفع سحناتها والتي لا تجرؤ على النظر في العيون..هذا كله ليس كارثة؟.

– أنا لم أقصد أن....

– اللذين ماتوا البارحة من الخوف ليس مصيبة؟ هاه ..أليست هذه مصيبة؟.

– أعلم ..لكني أريد أن أقول....

– ماذا تريد أن تقول؟..ماذا تريد أن تقول؟ ليس هناك ما يقال...

بدا بنعمر غاضبا وراح يشير بيديه وينتفض من مكانه بجسمه الضخم الشديد القوّة وصاح فيّ :

– أنت لا تقصد..هاه..أنت تريد أن تقول..هاه..ماذا تريد أن تقول؟.

نهضت من مكاني وصرخت فيه بقوّة:

– أقصد أنك أخرق وأنك أبله.. قلت لك دائما أن أخبارك وكلامك هذا.. لن يغيرا شيئا..ما وقع قد وقع..أقصد أن حنقك وغضبك لن يعيدا الموتى إلى أهلهم..فأغلق فمك وكفّ عن هذا الهراء.

سكت بنعمر فجأة وتغير لونه ونظر إلي بعينين حانقتين فيهما اتهام ما. ثم أدار وجهه صوب الحائط..لم يعد هناك من مكان ما بيننا للكلام أكثر لأنّنا كنا ضائعين وعاجزين..كلانا كان عاجزا عن فعل أي شيء لأي أحد.

صمتنا وصار كلّ منا يستل خيطا ويدور حوله..خيط حريري قوي نتَشرنَق فيه، حتى لا نسمع صدى مخاوفنا.سكتنا طويلا قبل أن نفترق.خرسنا كما قال بنعمر في البداية..
أخرستنا الكارثة.

عندما عدت إلى البيت في المساء كان أبي يتحدّث إلى أمينة عند الكانون. صينية القهوة بين أقدامهم لا تزال. لم تكن بايه معهما. لا بد أنها خرجت إلى الضريح أو أنها أغلقت على نفسها باب غرفتها.

تطلع أبي إلي دون اكتراث كعادته. دون تعرّف وواصل حديثه...

– يقولون إن ما حدث البارحة كان بسبب كذبة صدّقها اهل الرياط وبودغن..صدقها الكل..نحن أيضا صدقناها على الرغم من اننا لم نخرج من بيوتنا..آه لو خرجنا..لو هربنا نتيجة تلك الكذبة التي جرت كالنار في بيادر التبن..لقد هلع الناس وخرجوا من ديارهم تاركين بيوتهم حاملين أبناءهم ..لم يكن أحد يريد أن يصدق بأنها مجرد كذبة أطلقها

اللصوص كي يستولوا على أموال الناس. استغلوا الوضع..الفرصة سانحة والبلاد سايبة..و الناس قلوبها كيف الحطب اليابس ..متأهبة للاشتعال في أي لحظة. ألسنا دائما في حالة خوف. هذه المذابح اليومية التي لا يفرّقون فيها بين صغير وكبير وبين امرأة ورجل ألسنا نراها ونسمع عنها كل يوم..

كذب اللصوص على الناس فتركوا بيوتهم فاخذوا أموالهم..هذا ما كان خاصْنا..تصوّري أن هذا يقع في المدينة..ماذا نقول عن الأرياف حولنا..الله يحسن عونهم..راكي تشوفي وين وصلنا..البلاد سابت..أخلات و((البلاد إذا ما خْلات يصبح أذّانها يهودي)) .

قال أبي:

-بعض سكان العبّاد هربوا هم أيضا وباتوا تحت في أي مكان وجدوه. صحيح أننا نحن أيضا كنا على وشك أن نهرب..لكننا لم نفعل..لا اعلم لماذا لم نفعل..الناس مساكين باتوا في البلاص وفي الجوطية، في حديقة الصهريج الكبير وحتى في قباصة. انتشروا في كل مكان ملفين في كسوتهم وحدها مجتمعين عائلات عائلات متحلقين حول بعضهم متلاصقين من البرد.

ناس البلاد ساعدوهم..يعطيهم الصحة..جاءهم الناس المساكين مثلهم بالبطانيات والكل حتى أن بعضهم أدخلوهم إلى بيوتهم..الخصلة كاينة لكن الله غالب على الرجال.

بعض يحلف أنه لن يعود إلى السكن هنا..يحلفوا أن يبيعوا البيوت والبساتين التي ورثوها عن أجدادهم منذ قرون..يبيعون كل شيء ولا يعودون إلى هذا المكان بعد هذا لذي وقع. يحسن عونهم ما داموا خايفين..لكن إلى أين يذهبون..البلاد كلها شاعلة فيها النار.

اتجهت إلى غرفتي وألقيت بنفسي على السرير مفكرا في هذا الوضع.و في بابه التي انسحبت إلى غرفتها. إنها تكتشف يوما بعد يوم أنها تورطت في قرار خاطئ لا فكاك منه سوى أن تغادر إلى بجاية.وهذا قريب ، يجب أن أسرع في تدبر أمرها قبل انكشافها.

لا بد أنها شعرت أن الخطر يحوم حولها البارحة. كانت هي التي قرّرت أن نبقى على الرغم من أن أهل العبّاد كانوا يهربون..هكذا كنت أعتقد عندما سمعتهم يتصايحون في الخارج. كانوا قد صدقوا صرخاتهم وهم يحسبونها صرخات القتلى..حالة من الشلل انتابتهم هم الذين كانوا ينامون في أمان الله.

لقد صمّمت بايه البارحة على البقاء..قالت:

– سأموت هنا..أريد أن أموت هنا.

و كانت تصرخ في وجهي عندما رجوتها أن تخرج وسط الناس وأن تهرب..قالت غاضبة:

– اذهبوا ..أنتم ..أهربوا أما أنا فلن أتحرك...

كنّا مصدومين. نهبّ من نومنا على الصراخ ولا ندري ماذا نفعل. لا ندري ما الذي يقع. وكان يحي نصف يقظان من اثر الدواء، قد أيقظه أبي فصار يضحك ويترنح.يسقط على الجدار مبتسما. وأبي يقف ممسكا به عند الباب مترقّبا الأمور. فتحه قليلا ثم اخرج رأسه وهو يسال الهاربين عما يقع ولا يجرأ على اتّخاذ القرار المناسب. كنا في لحظات التردّد مليئين بالرعب لا نعرف ماذا نفعل.كنا نحتاج إلى قرار ما. إلى فهم ما .

تطلعت إليّ بايه بسرعة ولسان حالها يقول بيأس.

((تصرّف..قل له أن يبقى..أو ادفعه للشارع وأغلق الباب..هيا افعل شيئا))

كانت خالتي الزهرة معها أمام باب غرفتهما واقفة تحدق بي غير خائفة..وهادئة. نظرت إليها وأنا أترجاها في أعماقي أن تشير إليّ بأي شيء. أن توحي إلي بما أفعل.

كنت مثل بايه متعبا وأريد أبقى. ولم أكن أجرأ على الإفصاح عن رأيي..خانتني قواي .فشلت ورحت أرتجف. وكنت قد تيقنت في تلك اللّحظة وأمام هذا الاختبار القاسي أني شرعت أتعرّى أمامهما تماما. هل كانت رغبتي بالبقاء أنا أيضا كانت ناتجة عن الجبن لا عن الشجاعة؟ عن جبن الضحية أمام جلاديها وارتجافها أمام الهاوية؟أم هو الضيق والتبرم من لا تملك ما تدافع به عن نفسك سوى هلعك.

ربما كانت حالة من اليقين الكامل بأن الهواء قد نفذ وأن طبقات من الجليد على فمك تمنعك من الصراخ. وأن تنفسك صارا حادا كأنما السكاكين الحادة في رأتك. هذه العواطف تثير اشمئزازي الآن بعدما ذهب الخطر وولّ منذ البارحة إذ لم أكن متأكدا من أن هذا الذي أنا فيه جبن أم شجاعة. لا مجال لمعرفة ذلك اليوم. الظاهر أنها كانت الشجاعة الجبانة في أن نقف أمام الموت غير مبالين به. ننتظره بكل حياد، مجرّدين وعراة من أي عاطفة.

كان أبي يريد أن يخرج وكان يحيي مستسلما لقبضته. أراد أن يأخذه معه. أن ينقذ صنيعه، رائعته التي أحكم سبكها ونحتها لسنوات طويلة. لا يريد أن يتركها نهبا للغزاة الجدد.

فهمت خالتي الزهرة من تردّدي أني أفضل أن أبقى، وبايه فهمت ذلك أيضا فعدنا جميعا، أنا وأبي ويحيى ، عدنا كلّ إلى غرفته دون كلام.. دون صوت..و أغلقنا على أنفسنا بالمراتيج.

تركنا إذن الأمور على حالها واختبأنا في أنفسنا وفي غرفنا من الخوف. كنا نسمع النداءات والصيحات من حولنا في الخارج، فنصمت، ونصرّ على أسناننا وبكاء الأطفال يتناهى إلينا من بعيد مع وقع الأحذية وخبطها في الأرض من الجري والهرولة. كان الزعيق والصفير والبكاء والصراخ والهمهمات والنداءات كلّها تتردّد في غرفنا كأنها في الداخل، جنب أسرتنا التي انكمشنا فيها. كنا في البيت باقين ولا نريد أن نتركه إذ اقتنعنا أنه لا مكان لنا في الخارج.

أدركت ساعتها أن أي كلام سدى ولا معنى له. كما تيقنت أن بايه وأن خالتي قد قرّرتا أن تظلا في غرفتهما تنتظران مصيرهما، بكل ما في اليأس من بساطة وبداهة.لم أسمع منهما أي كلام، لم تقولا لي شيئا ولم تشيرا لي بشيء. ولم أسمع أي حركة في غرفة أبي أو في غرفة يحيي، كان الخوف أقوى حتى من الجنون.

بتّ ساهرا كالعادة. متوقعا أي شيء. بتّ متسائلا عن هذا الاستسلام. وحاولت أن أعرف أصله. وقلت أنه إذا ما كان لكلّ شيء أصل فما أصل ما انا فيه من عدم اليقين بشيء؟ ما أصل عدم إيماني بشيء؟ ما أصل هذه الكثافة فيّ التي تصل حدّ التخثّر والتحجّر؟.

عند الصباح خرجت للعمل دون أن أحاول معرفة مصائر الذين كانوا بالبيت. قلت. ما دمت أني لم أسمع شيئا طوال الليل فالجميع بخير. ثم ما جدوى أن أوقظهم وأدق عليهم الأبواب. لا بد أنهم لم يناموا البارحة. دعهم يستدركون بعض لحظات الراحة والدفء بعدما باتوا مستقظين ساهرين يتوقعون أي شيء في الظلمة. لا بد أنهم كانوا يصطنعون احداثا دامية ويتخيّلونها، يتصورونها ثم يجفلون منها، يكرّرونها وتلح عليهم، تحفر في ذاكرتهم مشاهد سرعان ما تصبح خبزهم اليومي المرّ.

كان الأطفال في المدرسة منشغلون عني هم أيضا بكوابيسهم وكوابيس أمهاتهم وآبائهم. وهذه الدروس التي أعطيها لهم يتلقونها بحكم العادة فقط. عادة الجلوس في الصف وعادة وجود المعلم يزبد ويرغي ببلاهة الذي يحسب انه يمتلك الحكمة المطلقة.

كنا نتظاهر أمام التلاميذ طوال اليوم أن شيئا لم يحدث البارحة. ونحن نحسب أنهم مجرد كائنات منفصلة عن سياقها. يلصقها النهار حتى يصنع لنا منها صفا نقيم له درسا وانتهى الأمر. وكنا كلما أمضينا ساعة، وخرج صف نحثّ أنفسنا على المرور إلى ساعة أخرى راجين من اليوم أن ينتهي بسرعة. لكنه كان ببرده وزمهريره وغباء التكرار الأبدي لمقولات الخضوع والقدر والهزيمة لا يريد أن يتزحزح.

وكان التلاميذ ينظرون إلى ساعاتهم الصغيرة، إلى أوقاتهم الصغير ة، عندما ينقض النهار وهم يقولون في نفوسهم الصغيرة أخيرا سيكست. وكنت لا أسكت إلا مع الإعلان الأخرق لتلك الصفارة الغبية التي لا تختلف في شيء عن صفارات الإنذار في المعتقلات والمعسكرات ومراكز التدريب.

كانت تعلن ببلاهة أن النهار قد مات وأننا نموت معه ألاف المرات.

أشعر في هذه الأيام بسطوة الزمن وأنا أقول عنه انه القدر. لا لشيء سوى لأني بدأت أحس به وأشعر أنه هو السبب في محنتنا. وهذا كله منذ أن جاءت بايه متخفية في صورة زلقوم.

لا أدري لما شعرت بكثافته في هذه الفترة بالضبط.

لقد أخبرتني بايه عن سرّ زلقوم في الليلة التالية.

تعشى أبي وصلى ثم انزوى في غرفته وأخذ يحي دواءه ونام مبكرا هذه المرّة. وعدت أسأل عن خالتي الزهرة وعن بايه فوجدتهما قد أشعلتا الحطب في الكانون ذي القاعدة الرخامية السوداء والجوانب الآجورية. وراحتا تتدفئان. فانضممت إليهما.

قلت:

– علّمنا هذا الشتاء العادات المنسية. عادات الحطب والنار.

قالت خالتي:

– وبايه ستحكي لنا حكاية زلقوم التي وعدتنا بها ..

قلت:

- إنها في كل مرّة تقول عن نفسها أنها زلقوم.

قالت لها خالتي:

- هذه المرة ما عندك وين تروحي. هيا أحك لنا..حاجينا ونحاجيك..حول النار.

قالت:

- هذا صحيح ما عندي وين نروح..ما علي سوى نحكي.

اعتدلت في جلستها ثم قالت مفتتحة الحلقة

- ما شاهو ..تلام شاهو...

قلت:

- ماذا يعني هذا الكلام؟.

قالت:

- لا أدري ..إنها صيغة غريبة نبدأ بها الحكاية عندنا..ربما كانت تعويذة لا يعرف سرها سوى القدماء.

قلت:

- ربما كانت خطيرة..وتحول صاحبها إلى حجر أو إلى طائر.

قالت خالتي ساخرة:

- إذا كنت لا تريد أن تتحوّل إلى حجر فلا تسمع .

قلت:

- ليست الحكاية ما يخيفني بل راويتها..

نظرت إليّ دون أن تعلّق ثم ابتسمت وقالت:

- هيا نبدأ أم لا؟.

قلنا:

- أحك يا بايه..احك...

وبدت فرحة عندما كنا نرجوها ونتوسل إليها.كان في صوتها مرح الطفلة التي تريد أن تبهر أصدقاءها بمواهبها المتعدّدة.ثم ها هي تريهم في الخير الهدايا التي أحضرها لها والدها من السفر.

اعتدلت جيدا. تنحنحت ساخرة فابتسمنا لها. ثم ضحكت وقالت:

– ما شاهو تَلامْ شاهُو..كان يا ماكان في سلف العصر والأوان..كان في بلاد بعيدة..بلاد فيها الأمان..كان هناك بنت أسمها زلقوم.

قلت في نفسي:

– شهرزاد البربرية تحكي.

– كانت جميلة، صهباء رائعة، شعرها ذهبي مسرسب على أكتافها يصل حتى رجليها. تعيش في بلاد جبال عالية ما فيها برد ولا جوع ولا حرب. وكانت تخرج في الصيف إلى الغابة كي تغسل شعرها في مياه الساقية التي يشرب منها جواد أخيها كل صباح عندما يخرج للصيد. وذات يوم سقطت منها شعرة من سالفها الطويل وبقيت في الماء.و لما جاء الجواد يشرب جفل وامتنع عن ذلك. فعرف الأخ أن في الماء شيئا فأجال سيفه في الساقية ولما أخرجه رفع الشعرة الذهبية التي لمعت في الشمس الغاربة. انبهر الفارس لطولها ولونها الذهبي وانشغل باله، فأقسم أنه لن يتزوّج سوى صاحبة هذا السالف الطويل.و كان عازفا عن الزواج منذ مدّة ولا يحب غير الصيد.

إنا شعرة واحدة في هذه الحياة كفيلة بتغيير قدر إنسان. شعرة واحدة ويتغير المصير كليا من جيد. فما أهونها إذا ما كانت شيئا تافها مثل هذا يكفي ليقلبها رأسا على عقب.

عاد الفارس إلى البيت وطلب من أمّه أن تبحث عن صاحبة الشعر الذهبي ليتزوجها. فرحت الأم وراحت تجوب القرية سائلة عن حلم ابنها. لكنها لم تجده.لم تجد من يكون مقاس شعرها على مقاس تلك العينة التي تحمل بين يديها.و لم يبق في القرية كلها بنتا لم

تزرها. ولم تبق أخريات في القرى المجاورة لم تقارن شعرها بما عندها..لم بنت في البلاد سوى أبنتها زلقوم.

ارتجفت الأم من بعض الخواطر التي راودتها وخافت من يقع المحظور، لأنها تعرف عناد ابنها..لكن الوالدان ابعدا هذه الوساوس عنهما وقررا أن ينتهيا من القصة بسرعة فاقترح الأب أن يقيسا الشعرة على ابنتهما.

نادت الأم زلقوم وطلبت منها أن ترسل سالفها الطويل على أكتافها ليصل إلى الأرض. قاست ثم عاودت والرعب يملأ عينيها. إنها هي..هي التي كانوا يبحثون عنها في كل مكان. لما عاد إلى البيت رأى الخوف في وجه أمه فأدرك أن في الأمر جديدا وأن أمه ستخبره عن النتيجة.

قالت الأم إنها لم تجد الفتاة التي وأضافت أن الجميلات هنا كثيرات. وأنه ما عليه سوى أن تختار واحدة وستخطبها له في الحين. ثم تلعثمت فشعر الابن أنها تخفي شيئا ولم تقل كل ما عندها. وأصر أن يعرف فقالت متردّدة:

– هذه الشعرة سقطت من راس أختك زلقوم وهي تستحم في الساقية.

قال الابن:

– لقد أقسمت أن أتتزوج صاحبة الشعر الذهبي حتى لو كانت أختي.

ارتعبت الأم وادركت ان ما كانت تخشاه قد وقع. فحاولت ان تثنيه وحاول الأب لكنهما كانا عاجزين. فشلا في ثنيه عن رأيه. كان الإبن جبارا وعنيدا وقاسيا. ولم عندهما غيره وخشيا ان يغادرهما وحدها وسط الغابة. كان ابنهما الوحيد وكان قد هدّدهما بالرّحيل عنهما فخشيا بطشه ورضخا له.

قالت بايه:

– أخبرت الأم ابنتها أن أخاها سيتزوّج ولم تعلمها من ستكون زوجته. وصارت كلما أرادت أن تشتري شيئا من جهاز العرس تصحبها معها فاذا أعجبها فستان مثلا قالت

– هاكي..قيسي..خطيبة أخيك في مثل قدك..قيسي هذا.

و كانت زلقوم تقيس

و الأحّذية

– خطيبة أخيك في مثل مقاسك..هاكي جربي الحذاء...

و الحلي

– خطيبة أخيك ذات الجِيد نفسه والمعصم ذاته. قيسي هذا وهذا وذاك.

وكانت البنت تقيس ولا تسأل عمّن تكون زوجة أخيها. كان ذلك لا يعنيها.كانوا يجرّونها إلى أمر لم تختره ولم تحرز به. وهذا ما يجري عادة قالت بايه. يجروننا إلى المصائر التي لم نخترها ولم تكن في حسباننا. في غفلة منا ويطلبون منا أن نتحملها. فنتحمّل على الرّغم منا ما لم يكن في الحسبان...

كنا ثلاثة. لما كانت بايه تروي قصتها. في بيتنا في العبّاد في زمن آخر لا ندري مدى واقعيته..كنا خالتي وأنا وبايه وكان المطر يهطل بغزارة في الخارج. وكانت نار الكانون متأجّجة. وبايه بجانبي. متجاورين لأول مرّة منذ مجيئها إلى البيت. كنا قريبين من بعضنا، نتدفأ. شعرها منسدل على الكتفين وذراعاها حول ركبتيها.

كنت أجلس قربها على الأرض.نفترش الزرابي التلمسانية الصنع، بصوفها الكثيف وخطوطها الهندسية العديدة.مربعات ومثلثات وأعمدة مكسرة متراتبة ن صفراء وحمراء وبيضاء وسوداء.

بايه دافئة ودفؤها يتسرب إليّ.كانت حيادية وانا جنبها. لا أعلم لماذا كانت غائبة في تلك اللحظات. امرأة بكامل بهائها، بكل دسامة جسدها وحرارته ووفرته، تغيب؟ كان هذا غير معقول وأخرق ربّما. لم أكن أشعر به فقط، بل أحسه مختلفا. كان دفؤها يتسرّب إليّ منها فيثير كلّ مشاعري غير أني كنتُ عاجزا عن الذهاب فيها.في جسدها. عاجز عن التسرّب إليه عبرها. من أين كان عليّ أن أدخل إليها. من أين كان يجب علي أن أقتحم

قلعتها؟ منها ؟ أم من حكايتها؟ من يديها؟ أم من ركبتيها القويّتين المكينتين كعمودين من الرخام؟.

كلا.. سأكتفي بعطر أنفاسها وحده.

لكن لماذا كانت قريبة بعيدة عني؟.لماذا كان جسدها متوفّرا، طالبا، مطلوبا، ولا تحقّق فيه إلاّ منه. لماذا كنّا لا نفكر بجسدينا قلت.هل هي الطهرانية الغامضة التي تلفُنا في هذا المكان؟. أم أنه كان علينا أن لا نفكر في الجسد. بل كان علينا أن نفكر به. لم أكن أومن بالطهرانية أبدا. ولم تكن بايه تؤمن بها. كنا متوفّرين ولكن مسجونين معا في اللحظة. جامدين في الزمن. متحجّرين في الشتاء البارد للوطن الذي سكننا. هل كنا نداري ؟ هل كنا نكذب؟ هل كنّا نتغافل على ما هو حقيقيّ فينا.

عندما وضعت كفي في كفها ابتسمت. كانت تعرف أني شرعت أتسرب إليها من يديها.فأحاطت بي فيها.وراحت تروي.

هنا تذكّرت المقانة. ساعة الحائط المعلقة في سماء العمر وفي الصالة..لقد تيقّنت الآن في هذه اللحظات أنها هي السبب. أنها هي ما يقف حاجزا بيني وبين بايه. لأنها كانت توحي إلينا دائما بالنسيان والغفلة. كانت تريدنا أن نتغاضى عن شرطنا كبشر. عرفت لحظتها أنني لست إلا ضحية لها.و أن بايه أسيرة لديها. وأني إن لم أحطّمها، إن لم أوقفها فإنها لن تترك لنا من الزمن ما نتخلص به من غفلة أجسادنا. لقد داخلني شعور حاد بهذا الأمر..عليّ إن أن أحطمها ..لقد رسوت على هذا القرار وسأنفّذه.

قالت بايه:

- عندما اكتمل الجهاز أمرت الأم ابنتها

- خذي الطين يا زلقوم وملّسي حيطان غرفة أخيك.

وشرعت البنت في العمل. وبدل من أن تخلق لنفسها طيرا تتسلّى به أو تصنع آنية، راحت ترطّب حيطان غرفة زوجها وهي لا تعلم.

فمرّت بها سنونوة وقالت لها:

- زلقوم يا زلقوم أعطني قليلا من الطين لأبني عشا لأفراخي وسأخبرك بمن سيتزوّج أخوك.

و هل يهم زلقوم أن تعرف إسم زوجة أخيها. إنه لا يهمّها.

-إليك عنيّ..ابتعدي لا يهمني أن أعرفه.المهمّ انه سيتزوّج.ابتعدي ..أش ..أش

ولما فرغت من الغرفة جاءتها أمها بالحبّ فقالت

-ذرّيه ثم أغسليه.فذرته وغسلته.و مرّت بها قبرّة قالت

- زلقوم يا زلقوم اعطني قليلا من الحبّ طعاما لأفراخي وسأخبرك بمن سيتزوّج أخوك .

و هل يهم البنت من تكون زوجة لأخيها..إنه لا يعنيها.

- ابتعدي قالت لها..أش..أش..لا يهمّني أن أعرف.

و لما فرغت البنت من الحب.طحنته وجاءت بالطبق والقصعة والماء وقالت افتلي لنا الطعام فراحت تفتل.

ومرّت بها بقرة قالت:

- زلقوم يا زلقوم اعطني قليلا من الطعام لعجلي الصغير وسأخبرك بمن سيتزوّج أخوك.

وتفطنت زلقوم أخيرا أن كل الكائنات تريد أن تخبرها باسم زوجة أخيها.فأعطت البقرة الكسكسي.

قالت:

-آه يا زلقوم يا زينة البنات..لقد اخترت جهاز عرسك بنفسك.و ملّست حيطان غرفتك وحضرت الكسكسي ليوم دخلتك..إن أخاك سيتزوّجك انت.

لما أيقنت البنت أن هذا الكلام صحيح من القبرة والسنونوة بكت.ثم قرّرت الهرب.فجمعت حوائج السفر في الحين وخرجت متخفية عن عيون الوالدين واهل القرية. اتجهت إلى الغابة. وتوغلت فيها.حتى لحق بها الليل.فخافت وعندما وجدت مغارة لجأت إليها وأغلقت منفذها بصخرة عظيمة.

بحث أهل القرية عن البنت فلم يجدوها. وخرج الأخ إلى الغابة وفتّش فلم يجد لها أثرا.فغضب وراح يسبّ ويلعن ويخبط على وجهه وفخذيه..غضب حتى سال الدم من منخريه.و فاضت دموع الغيظ من عينيه.

دام البحث أياما ولم تظهر الفتاة . وكان لأهل القرية راع يخرج بعنزاتهم إلى الغابة. ومرة صعدت إحداهن إلى المغارة وراحت تنطح الصخرة بقرنيها، تريد الدخول.

أسرع الراعي إليها كي يردّها إلى القطيع فسمع فجأة صوتا يقول.

-ابتعدي ..روحي من هنا

أو يأكلك الجرب

روحي قولي للأم والأب

أن زلقوم مازالها هنا

خاف الراعي وتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم وأسرع إلى سيّده يخبره.و عاد به في اليوم الموالي.وعادت العنزة إلى ضربها.فسمعا ذلك الصوت وذلك الكلام.فقال الأب

زلقوم ..يا بنتي أين أنت ؟

قالت:

- كنت بنتك يا أبي

وكنت أبي يا أبي

لكنك اليوم شيخي.

و حاول معها لكنها رفضت فقال لها

–اعطني يدك يا بنتي على الأقل كي أضع عليها قبلة.

وشاهد اليد البضة تخرج من الجحر فوضع عليها شفتين مرتجفتين.ثم ابتعد.

أخبرالأب زوجته فجاءت في اليوم التالي .

و صاحت:

ـــزلقوم يا زلقوم أخرجي من المغارة حتى أراك أنا أمك

قالت:

– آه يا أمي كنت بنتك

وكنت أمي لكنك اليوم عجوزتي

– أخرجي يا بنتي لنعود إلى البيت.

لن أخرج قالت زلقوم.

بكت الأم وترجّتها ولما يئست منها طلبت منها ان تعطيها أطراف أصابعها عل الأقل حتى تقبّلها.فقبلت.و اعطتها يدها.

قالت بايه ذلك وحركت أطراف يدها على ركبتها.

كنا نقترب من النار على الرغم من أن الغرفة صارت دافئة.خالتي صامتة على وجهها ابتسامة. وضعت يدها الضخمة على ركبة الراوية وقالت:

– احك يا بنتي أحك إننا نسمعك. .

قالت بايه:

– علم الأخ بمكان أخته فاصطحب الراعي والعنزات.و لما اقترب من المغارة قال:

– اخرجي من هنا .

– لن اخرج..

قال بخبث:

–ألا تريدين رؤية أخيك

-كنت أختك يا أخي

لكنك اليوم زوجي

قال:

- مادمت لا تريدين الخروج.اعطني يدك على الأقل لأقبلها.

أخرجت زلقوم يدها ومدّت أصابعها وفجأة.أُوبْ..طارت اليد في الهواء بضربة سيف.و سقطت على العشب بعيدا عن المغارة.

هنا مزّقت الصرخة العظيمة صمت الغابة.

طقطقت النار في هذه اللحظة. تناهى صهدها إلى وجوهنا.و حركت بايه يدها مرّة أخرى.ثم سكنت. أصابعها طويلة متدلية بيضاء أقرب إلى الشفافية بفعل اللهب.كانت كعيدان الحلوى الملوّنة بالأحمر والأبيض. لدنة وهشة ساكنة تلمع في أطرافها قطرات من الدم. كنت أراها تنز بذلك السائل الأحمر القاني الذي فغمتني رائحته.

راحت النار تتأجّج فينا ولا تخبو.وكان الصهد العالي هو الذي ينضج العناقيد في الأصياف. قلت:

((صهد وكرم وامراة ولغة غير مطواع، لغة لا تريد أن تواتيك. وفوق ذلك كلّه يد مقطوعة. هي الدهشة إذن، هي الرغبة في الرحيل عبر الحكاية، بعيدا، بعيدا جدا، إلى بلاد أكثر شمسا.النهار فيها واضح فقط وليس فاضحا. هي الرغبة في الخلاص من عذابات الانتماء إلى سلالتنا، إلى الذين نحبّهم ولا نحبّهم. لأنهم منا وفينا ولأننا منهم. نحبهم ونكرههم كما يكره ويحب الإنسان جسده. الوطن مليء بالخيام المنصوبة للضيافة الدموية، تسوقنا إليها الكلاب المسعورة إلى "واغزن" عجوز، أحلق له رأسه وأنظّفه وأغيّر له ثيابه وأنا أنتظر أبناءه كي يرضوا وكي لا يقرّروا قتلي.

كان "واغزن" هناك وهنا في تلمسان. وكانت كلّ "الواغزنات" في الخارج تنتظرنا، كي نلمع صورتها بموتنا.لم تكن لها ملامح محدّدة. شعورها طويلة وأظافرها وسخة قد تجمّد الدّم

البشري تحتها. لها أنياب حادة وألسنة ذلقة. وأصواتها تشلّ المسافرين. إنها تملك قصورا وقلاعا ضخمة وقصاعا ضخمة أيضا. يحرسها الظلام والبعد والمقانات الضخمة بعقارب تلسع وتميت.

مددتُ يدي إلى يد بايه وامسكتها بلطف.رفعتها من تحت تلك اليد، بهدوء محاذرا أن تنخلع بين أصابعي. فشعرت بحركتي وأسلمتها لي. سكنت، وهدأ روعها تحت الشمس الدافئة لزفراتي في رقبتها. كان وجهي ممتلئا بشعرها.و هي تحدّق بالنار.

نامت الزهرة جالسة كعادتها منذ زمن ودخلت في حلم ما. فبدت منحوتة إلى الحائط بكامل قوتها وسكينتها..

أرخت بايه اليد المقطوعة جنبي وتشابكت أصابعنا وضغطت على كفي. قلت:

((ها قد وجدتك أخيرا.. ها انت معي فيّ وبي))..

و كانت تقول:

((ها أنت وجدتني فيك بك. فلماذا كنت بعيدا هكذا في تلك الخيام.؟ ما الذي جعلك تذهب بعيدا في ذلك السفر الذي أصبحت فيه حجرا؟))..

وقلت: ((لأجلك سافرت.. لأجلك قطعت البراري ومن أجل الطائر الذهبي ذي الصوت الذي يجمد له القلب.كان عليّ أن أسدّ أذني عن ندائه ذاك.كان عليّ ان لا أصدّقه.و ها أنتِ وحدك من سيخلصني ..بك وحدك سأخرج من حال الحجر..))

قالت بايه:

-قطع الأخ يد أخته وأخذها معه .فلعنته ودعت عليه

- انت غدرتني ولكن الله سيعاقبك. سيغرز شوكة في ركبتك ولن تنزعها منك سوى اليد التي قطعتها.

و كان الذي دعت به زلقوم. إذ ان الفارس الهمام توغّل بجواده في الغابة عائدا وفي الطريق ترجّل عند الساقية كي يشرب الجواد.عندها وخزته شوكة.حاول ان ينتزعها فلم يفلح وفكّر ان امه ستقوم بذلك .

عاد إلى الدار ورمى اليد المقطوعة على السطح .و قال:

- ستبليها الثلوج وتجففها الشمس وتأخذها الرياح.

قلت:

((هذه العناصر يا بايه هي التي جاءت بك إلى هنا، فوجودك بالعبّاد عندي، وفي هذا الزمن الأرعن معجزة، نوع من المستحيل الذي لا يصدّقن أو هو ربما لعنة وغفوة من الأقدار.))

بايه هنا جنبي لكني لا أزال أشعر أنها لا تزال بعيدة عني. وعلى الرغم من ذلك أحاول ان أعيش لحظة حضورها هذا، معها ، اريد أن أبقى في بهاء قدرتنا على ان نتلامس، على مداعبة وجهها وشعرها على القرب من جسدها المتوفر غير البعيد.

كنا ننظر إلى بعضنا بصمت وقد كففنا عن الحروب وتواعدنا بالسلام، بالمسرات المؤجلة كنا نتبادل اللهفة فتخفق يدانا.. كنا نسرق من النار تأججها وصهدها .

قلت:

((هات أنا القيك يابايه وقد كنت قبلها كالطائر الوحيد في ليل الثلج الطويل هذا أقفز من رصيف إلى رصيف ولا سبيل للوصول إلى الشجر. ها التقيتك في وحدتي..كنت أنا الشجر وعندما جئت من الأقاصي البعيدة، في هذه السنة، بعثت الصفصافة من موتها. وها تخرج من يديّ البراعم ومن جنبي ومن شعري ومن صدري. النسغ يجري اليوم في جسدي. وهذا شتاؤك الذي أحيا برعده وزمهريره وثلجه الشجرة الميتة.

قالت بايه:

– عند المساء شعر الأخ بالحمى تصرعه، وبالألم ينخره وسبب ذلك الشوكة التي لم يستطع ان يخلّصه منها احد ن لا أمه لا ابوه ولا احد من اهل القرية. راحت الركبة تنتفخ والشوكة تنغرز في اللحم أكثر فأكثر على الرّغم من أنه استعان بكلّ الكهنة والسحرة والأطباء لكن احدا لم يفلح في تخليصه منها.

تورمت الركبة وانتفخت بشكل فظيع وراح الأخ يصرخ من الألم ولا يستطيع الحركة من الوهن.وكانت أهل القرية يسمعون صراخه ويتأسّفون ثم مع مرور الزمن راحوا يتأفّفون ثم تعوّدوا ونسوا أمره وجاء اليوم الذي رماه أبوه في زاوية من البيت وتركه لآهاته.

وكان أن سمع أحد الأمراء من الناس أن صوتا كالأنين يطلع من احدى المغارات في الغابة.فأرسل عجوزا حكيمة كي تتحرى الحكاية.فأخبرته أن فتاة جميلة تدعى زلقوم حبست نفسها في المغارة ولا تريد أن تخرج. فرغب في رؤيتها. فاحتالت العجوز في ذلك وطلبت منه أن يتبعها ويضل مختبئا وأن يمسك بزلقوم متى رآها.

وأضرمت النار أمام المغارة وشرعت في تحضير كسرة الخبز وزلقوم تراقبها من الفجوة. ثم قلبت عليها الطاجين وراحت تتحسّس بيديها يمينا وشمالا بحثا عن العجينة.قالت زلقوم:

– أمي يا أمي..اقلبي الطاجين لتضعي العجينة.

– إني لا أرى ..أنا عمياء يا بنتي..ساعديني .

تردّدت زلقوم أولا ثم أشفقت على العجوز وخرجت تلتفت حولها.و ساعدتها.

– والآن يا أمي راقبي خبزك .

ثم ..أُوبْ.. في هذه اللّحظة انقض عليها الأمير وأمسك بها.

لما علمت زوجات الأمير انه أحضر امرأة ليتزوّجها حسدنها ورغبن في رؤيتها. فانتظرن حتى خرج للصيد وصعدن إلى غرفتها واكتشفن صحة الخبر.كانت الفتاة

جميلة. ولا حظت إحداهن ان العروس تخفي يدها عنهن فعرفت انها مقطوعة فقرّرت فضحها. ولما عاد الأمير قلن له:

– هات لنا الحنة نتخضب بها الليلة ليلة الجمعة وعرضنها على زلقوم فقالت انها ستضعها وحدها عند المساء وقالت إنها لا تحتاج إلى مساعدة أحد.

نظرت إلى بايه التي كانت تذكي النار في الكانون الذي عاد منارتنا الوحيدة في الليل الطويل. كانت تحكي وعلى وجهها هدوء وغياب في آن.وكانت الريح تعوي في الخارج والنجوم غائبة والسكون يملأ العبّاد بكتل من الصخر الثقيل البارد. إنقطع الناس عن الحركة منذ المغيب ولم تعد هناك من مقاهي ساهرة أو حوانيت مفتوحة في هذا الوقت. الطرقات خالية إلا من بعض عواء القطط او نباح الكلاب المتشرّدة في المنحدرات الحادة إلى المدينة المحروسة. من يجرؤ على الخروج في هذا الليل؟ لا احد. إنها مغامرة نتيجتها غير مضمونة العواقب.

المغامرة؟. هذا النعت لا يليق سوى بامرأة واحدة :بايه.إذ أنها تغامر بحياتها وحياتنا. ما الذي تظن انها ستجني من الاختباء عندي في البيت؟ .ما الذي تريد من الخروج كل يوم متخفية في صورة امراة من تلمسان بالحايك؟.وماذا كانت تفعل النهار كله في مقام سيدي بومدين؟

قلت:

((ربما كانت مثل زلقوم مضطرة او حمقاء الاضطرار. فالحماقة والشجاعة امران متشابهان احيانا إذ أن كل هذا الذي يجري نوع من الحمق ونوع من الغباوة. كل ها الذي يجرى غباء..))

قالت بايه:

– فكرت النساء في طريقة أخرى لفضح العروس لما خرج الأمير للصيد لأسابيع معدودة. قلن له:

– عندما تعود انشاء الله ستجد ان كل واحدة منا قد صنعت لك برنوسا. وما عليك سوى ان تختار أحسنها لتدخل به على عروسك. وأحضرن الصوف.

بكت زلقوم في غرفتها بدموع حرى، تلك الليلة.كانت تذرف الدموع الغالية عندما مرّت بالقرب من نافذتها القبرة ورأتها حزينة.

– ماك تبكي يا زينة النسوان. قالت لها

فأخبرتها بما كان.

قالت:

– أعطني خيطان حرير لأصنع بها عشا لفراخي وسأساعدك فاهدتها زلقوم الحرير.

طارت القبرة يوما كاملا حتى حطّت على سطح بيتهم بالقرية. فتّشت عن اليد فوجدتها جافة ويابسة.. آه .. المسكينة..

كانت يد بايه في يدي لا تزال لم تحركها، تحسّستها فلم أجد فيها الحياة. جفّفتها الرّياح و تيبست من البرد.

كان اللحم اليابس في يدي وكنت احرك اصابعي ولا حياة. قلت:

– يدك بايه

قالت مالها:

قلت

– جفّت

قالت:

– أحيها

قلت:

– كيف .. كيف؟

قالت:

- طارت القبرة باليد المقطوعة عاليا ومرّت بالغابة وجمعت منها عشبة الشفاء وحملت معها خيوط الحرير الذهبية التي جمعتها من البحار القصية. وعند المساء شرعت في الرتق. وضعت البنت يدها على حافة النافذة وشرعت القبرة في رتقها إلى معصمها. ولم تشعر زلقوم بالألم.و مسحت القبرة على يدها ودلكتها بالعشبة السحرية. وماهي إلى دقائق حتى صارت اليد تصحو من موتها.عادت الدّماء إليها من جديد. وراحت الحياة تسري فيها. فاصبحت دافئة أعامرة، لدنة بلحمها الأبيض الشفاف المشوب بالحمرة. وراحت تحرك أصابعها الطويلة المكتنزة.كانت الدماء تخضها فترتجّ من ترابها كما النبتة النادرة..

شعرت لحظتها أن كف بايه تصحو في كفّي بعرقها ودفئها، بلدانة ورهافة ملمسها. وشعرت بقوّة وجودها من كفها، كانت البهجة التي تسري في عروقها من رعشة الدم ودفقه.. من لوعة العودة، وخضخضة التراب المنتفض بعد النثرات القطرات الأولى للماء الأول. شعرت بذلك الهدوء اللاهف في التراب العميق لعشبة الجسد.كانت بايه العشبة الغريبة الخطيرة التي جاءت من أقصى الأرض من جبال لالا خديجة.

قلت:

((كم التقيتك يابايه ولم اعرفك. كم كنت بين يدي ولم أشهدك.و كم كنت فيّ وانا أبحث عنك في الخارج بين البشر. بين النساء اللائي التقيتهن في حياتي ومررن.. طرن بعيدا عني، أنا الصفصافة المتوحدة. ها أنت هنا فهل أعرفك حقا ؟ وهل وجدتك حقا؟..))

استفاقت خالتي من إغفاءتها فجأة وبدت خارجة من سهو ما.فقالت لها:

- روحي لتنامي الزهرة إن كنت متعبة..

فقالت في نصف نومها:

- ما عليه يا زلقوم.. أحك أني أسمعك أحك .

ثم انغمست في بهاء الجمر وصهده لياخذها بعيدا عنا.

أما بايه فلم تقل شيئا . كأنما لم تكن تروي سوى ليقال لها في الأخيرهذا الكلام. كي نسميها زلقوم .

قالت:

– لما عاد الأمير والأمير هو الأمير دائما ويبقى اميرا مهما كان وفي أية حكاية.عرضت عليه زوجاته البرانس وانتظرن فضيحة زلقوم. لكنهن فوجئن بها تحمل إليه برنوسا رائعا اختاره لنفسه أول مارآه وأعلن لهن عن موعد زواجه بها.

عاشا في سعادة وهناء ورزقا بالبنات والأبناء حتى نسيا الهموم ومرّت السنوات حتى جاء اليوم الذي تذكرت فيه امها وأباها وأخاها وبلادها فبكت. واستأذنت الأمير في زيارة اهلها فاذن لها. وحملت معها المال في صرر واتجهت إلى الغابة تريد عبورها الى أهلها..

يَسَّن ربّي[48]

((... وفي الحقائق المقرية عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : يظهر في آخر الزمان رجل يسمى شعيبا، لا تُدرك له نهاية. وهو أبو مدين . وكان استوطن بجاية. وكان يفضّلها على كثير من المدن...و له بها مجلس وعظ يتكلّم فيه فتجتمع عليه الناس من كل جهة، وتمرّ به الطيور وهو يتكلّم فتقف لتسمع وربّما مات بعضها. وكثيرا ما يموت بمجلسه أهل الحب..))

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان
لابن مريم

[48] بمعنى علمه الله بالأمازيغية

اليوم السابع

ليس لهذه الساعات نظير وليس له نظير أيضا.

يقول يوسف:

عندما نعود سالمين من سفر يومي كالموت فاننا نعدّ أنفسنا محظوظين بالمقارنة مع بقية الناس الذين قتلوا. وعندما نكون محظوظيين نظن اننا مختارون بشكل ما لأمر مهم او أننا نوضع على حده في انتظار شيء أهم من القتل لا ندري ما هو.

كنا قد نجونا من الغزو من يومين وكان هذا لا يعني شيئا سوى أننا يمكن أن نكون موقوفين لشىء آخر وأن أجسادنا مهيئة لرجفات أخرى قد تكون ممدّدة.

منذ يومين كان ذلك الغزو الذي أعود منه الآن محظوظا شيئا ما.. لأننا يجب أن نخترع الحظ في مثل هذه الأشياء أيضا.. عدت سالما كما قال بنعمر . عدت صامتا قلتُ. أخرسا أكثر فأكثر.أخرسني كلّ هذا . أصعد إلى العبّاد قبل المغيب وأفكر مجدّدا في أولئك الذين باتوا منذ يوميم في الخلاء. متلاصقين بالحيطان. باتوا في الدروب المظلمة والحدائق العامة، تحت، بعيدا عن سكناهم التي تركوها نهبا للصوص..

فكّرت فيهم وقلت لنفسي. أرجو أن ينسوا قليلا. لا يملكون شيئا آخر سوى أن يتعلّموا النسيان كما تتعلّم الأحصنة السروج. لأنهم إن يفعلوا ذلك فإن شراسة الحياة ستزداد عليهم وحينها لن يتحمّلوا.

عدت ولم يكن أحد بالبيت. غرفة بابه مغلقة. لا بدّ انها لا تزال في الضريح.القريب من هنا. إذ يكفي منعطف واحد كي تصل إليه، غبر الدربة العالية السقوف المفتوحة على السماء. دربة تحوم حول المسجد من جهته الجنوبية، قد قدّت الطريق فيها من الصخر الصلد الأسود الذي تمج شقوقه الماء أيام الشتاء.تعبرها ثم تمرّ بالمدرسة

الخلدونية التي يقال إن ابن خلدون درس بها. وتمضي نازلة وحتى تدخل الضريح والمسجد معا على أن تمرّ عبر بوابته الخشبية الضيقة الواطئة ثم تسير على الرخام الأبيض المشترب بالسواد. تقف عند باب من الخشب المنقوش على حوافه الزليج الأخضر بسقيفته الصغيرة ذات القرميد الأخضر.ثم تنزل الدرجات يسارا وعلى يمينها مقبرة صغيرة فيها شواهد قبور المقدمين الذين خدموا الولي الصالح منذ سالف الأزمان.

ثم على يسارها البئر العتيقة التي ذات البكرة بالسلسلة الحديدية الرطبة الباردة والدلو الهادىء المنتظر هبوطا في الغياهب.و ها الضريح أخيرا قبالتها .

ستجد المقدم جالسا في الداخل وحده يسبح غارقا في المكان، جزءا منه. واحدا من اثاثه الأخضر المظلم السرّ المذهّب الحواشي بتلك الخطوط والرسوم الباهتة. والمكان يعبق برائحة سبع بخور من "الحرمل" و"الحنتيت" و"الجاوي" و"القصبر" و"ام الناس" و"الفاسوخ"[49].

إني متاكد انها تظل النهار كلّه كعادتها. تحب ذلك المكان إلى درجة مبهمة فيها بعض الخطورة واليأس. يمكن انها تجلس هناك لتتأمّل في شيء ما. تحاول فك الخطوط الأندلسية المعقدة.. تبحث عن شيء مبهم.مأخوذة بهاجس ما.

قبل قليل لقيني المقدّم. كان شيخا غارقا في العمر بجلابته الحمراء كالتراب تحتها جلابية بيضاء، قلمونتها ظاهرة واسعة متراتبة على قلمونة الوبر. كان طربوشه

الأحمر الصلب ملفوفا جيدا في عمامة ذهبية اللّون. وكان رجلا ضخما على الرغم من كبر سنه، بهيا كالشجر بوجهه الناصع البياض. في عينيه بقايا دمع لم يجف. قال:

– يا يوسف يا وليدي هذيك البنت التي تاتي كل يوم إلى الضريح من عندكم؟

قلت:

---

49 عطور للبخور

– نعم .. من العائلة ما لها؟

– إنها غريبة الأطوار..تسأل كثيرا ؟

قلت:

–لا بد أنها سألتك أنت أيضا عن الولي الصالح.

قال:

– نعم ذكرت لها كل ما اعرفه منذ ولادته في اشبيلية إلى دفنه بالعبّاد.لكنها لم تقنع وطلبت المزيد.

كان المقدمّ يحب ان يحكي في كل مرّة التفاصيل الصغيرة والكبيرة عن الولي، يشرح ويستشهد ويفيض بكل ما يتطيع من معرفة بمحبة ورفق وبهجة. كان هذا الرجل الطاعن في السن طاعنا في السرّ أيضا، يعيد القصة ذاتها ولا يمل.

كان في يدي الحاج الدقيقتين حركة مليئة بالتجاعيد، يدان تتحسّسانك.مثلما عينان تلامسان جسدك وتحسّان نبضكن عبر كتفك التي يمسكك بها عندما يحدّثك. هكذا يريد ان يعبر إليك عبر مرفقك، أن يخبرك عن شيء يتحسسه فيك، فكرة أو سر ما.كأنما يريد أن يفضي إليك بكل شيء يعرفه دفعة واحدة.

المسبحة الكبيرة في اليد اليسرى والوقفة المتأنية العميقة في سكونها الواثقة الركينة. في وثوقها وركونها جزء من هذا المكان الذي هو منه وله وفيه.

كانت هذه الشيخوخة تخيفني، وتزيدني في غربتي ، في عربي . لماذا كنت أخشاه؟ لا أعلم. إنه يعرفني منذ الطفولة شاهدني في الجامع عدّة مرات، لما كنت ارتاده أيام المراهقة. كنت أتحاشاه وأقنع نفسي أني لم أرتكب في حقّه أية حماقة. أما هو لم يكن يعير ما أفعله أي اهتمام ولم يسألني أبدا عن شيء. بل كان يتلقاني هكذا ، بدهشته الرتيبة وبحزن .

كنت أتحاشاه ليس لكونه إماما أو مقدّما. لم يكن يعني ذلك شيء، بل لأنه كان رجلا مختلفا في مكان مختلف. كنت أدرك ذلك منذ الطفولة. ولما كبرت عرفت أنه كان رجلا مخترَقا ومخترِقا. يدرك في تعامله مع الناس أسرارَهم الدفينة. احس بهذا دائما لهذا كنت أبتعد عنه كانما كنت أخفي سرّا ما ولا أحب ان يطّلع عليه أحد. وكان يدركك ما يجول بخاطري، يعرفه ويبتسم. ماذا كان يدرك بالضبط لا أعرف. لكني كنت اترفّق به عندما أريد مغادرته.أحاول ان أفلت منه دون أن أكسر شيئا من قلبه.و كان ينظر في عيني بعمق، عندما يشعر أني أريد أن أتركه، يقطع حديثه فجأة ثم يبتسم كانما يشعر أنه اثقل علي، ينظر إلى الأرض عميقا، يسبرها، ثم يحدّق خلف ظهري، بعيدا، لا يطيل ويده على كتفي، ثم يمرّ بهدوء السراب اللافح، يمرّ بجانبي دون صوت.

عندما كنت أعود إلى البيت وأغلق على نفسي باب غرفتي محاولا عدم التفكير فيه..محاولا طرده من ذهني ..كان يظل هناك برائحته المميزة الغريبة، رائحة سبع بخور.

هكذا لم أكن أستطيع التخلّص منه ومن حضوره الثقيل الرازح، الهادىء، إلا عندما كنت أفكّر في تحطيم المقانة. كانت صورته تنتقل إليها، وكانا يتبادلان الموقع. كانا متشابهين عندي. فالرجل في الضريح والمقانة في صالة البيت معلقة في الحائط يشتغلان بالطريقة نفسها، وفي الفضاءات ذاتها.

أفكر دائما في تلك المقانة عندما أضيع في صحراء الألم..في وحدتي. كانت تظل معلقة في الخاطر وفي الصالة وكانت بنية اللون تماما كما حبات مسبحة المقدّم. لها عقربان فقط، الأصغر منكسر ، لم يفكر أبي في يوم من الأيام أن يستبدله. كانت هناك ساكنة ،منذ أزمان، منذ خلقت وهي هناك، لا نكاد نسمع لها صوتا .منذ عهود والعقربان الكبيران ساكنان على الرغم من انتقالهما المفاجىء عندما تمر

الساعات وينقضي النهار.كانا يتحرّكان في غفلة منا، ويمرّان من وقت إلى وقت.من رقم إلى رقم.

تبدو ارقامها اللاتينية مبهمة..كانت منذ الصغر سرا مستغلقا معلقا على الحائط. وكانت أمي مثلي لا تعرف منها غير منتصف اللّيل ومنتصف النهار. عندما يتساوى العقربان. هذا ما استطاعت أن تحفظ عني حينما كنت أعلّمها الوقت لما كبرت قليلا..ماتت أمي وهاهي اليوم لا تزال في الصالة لا تتزحزح، تشتغل بطريقتها الخفية. لا تتخلف ولا تتعطّل أبدا.

يحيى أخي يظل طوال النهار واقفا، صامتا أمامها بلا حراك لساعات متوالية، يتابعها وهي ساكنة. كان يريد أن يقبض على حركتها. لكنها تفلت منه دوما. يقف هناك بالساعات، يشاهد ما لا نراه. عادة جديدة من عادات جنونه التي يخترعها من حين لحين.

كان هذا الوقوف الطويل يحيّرني. ما الذي يراه؟ ماذا كان يقول لنفسه أثناء تلك الفترات المرعبة من الصمت؟ وماذا كانت تقول له؟

هل كان يضبط كوابيسه على ايقاعها؟ هما التوأم المتشابه.

كانت المقانة صامتة وكان يحيى صامتا. وكانت تغافلنا بانتقالها من رقم إلى رقم وكان يغافلنا بانتقاله من حال إلى حال. مظاهر حركة الزمن فيه خفية، لا تظهر إلا عندما ننتبه فجأة إلى أنه قد اتّسخ وطال شعره وتلوى وراحت تندّ منه رائحة زنخة، نفاذة.

لما كانت أظافره تطول وتتقوس وتنكسر.كانت هذه علامات على أنّه لا يزال حيّا يشتغل، المؤشرات التي تدل على أن عصارة الحياة لا تزال فيه. لكنه يظل غائبا عنا دائما، ولا يحضر إلا عنوة عندما نقرّر أن عليه أن يذهب إلى الحمام (بالسّيف عليه)و ان عليه ان يقص شعره أو يحلق لحيته ويغير ملابسه.

كانت المقانة معلّقة في الجدار ويحيى معلقا في انتظار أن يصحو من جنونه.

المقانة ذات المخالب الهسهاسة المتنقلة في غفلة منا هي هاجسي منذ شهور، إذ أن أبي صار يراقبها أيضا ويقف أمامها مطولا. وكنت أتساءل: ألم تكن نظرة واحدة تكفي لمعرفة الوقت؟.

قالت باية عندما حدثتها عنها :

– هذه المقانة عندكم عجيبة فانا أراقبها مطوّلا واقف عندها كما تقول، مشدوهة. كلما مررت أمامها.إنها تسلبني. أبقى في حضرتها مشلولة لفترة حتى تتنمل رجلاي وتثقلان.كنت أقاومها في البداية لكني هذه الأيام أستسلم.لا أعرف لماذا. ما الذي يحدث لي؟. لا أعلم..

قلت:

– منذ زمن وانا أفكر في تحطيمها لكني لم أجرؤ. لا أدري لماذا؟. ربما لأني أخشى أني إذا حطمتها تحطّم معها يحي أخي.. ولما سألتني عن العلاقة قلت أنه لا يوجد وخفت أن أشغلها بها.

ولكني في كلّ يوم يمرّ أزداد خوفا منها وأقول لنفسي أنه يجب أن أحطمها،لأنها مع مرور الوقت ستصبح هاوية تأخذنا جميعا. منبهرين بها. لا اعلم كيف. لكن يجب مقاومة تلك الوقفات حتى لا نجن جميعا.كانت المقانة كالغولة تسكن الجدار وتحدّق فينا بعيون نهمة، محمّرة من السهر .فنجمد في اماكننا . ننشده، ونظل فاغرين أفواهنا ببلاهة كما الحملان الضعيفة أمام ذئبة الوقت..كان للزمن رائحة تشل وكنا نبقى قبالة الساعة المعلقة لا نجرؤ على التفكير في شيء.

يجب أن أحطمها كنت أقول لنفسي دائما ولكن الأيّام تمضي والشهور تنقضي وكنت أنسى . كنت البس خاتم النسيان وأغوص في جوف الأرض شيئا فشيئا أغيب فيها عندما كانت تجري هذه الحكاية. ادخل في جوفها وأغرق،و لا أستطيع شيئا..أغوص حتى الركب..يختفي الفخذان ثم الوسط والجذع والصدر ويدي مشلولة،

متيبسة.. أتنفس رائحة التراب.. يؤلمني صدغي..تؤلمني الرقبة.. أئن في صمت..فاقدا صوتي..فاقدا القدرة على الصراخ..على التنفس..و الحكاية لا تزال تقول نفسها.. وأنا ناس..الخاتم في يدي..ما عاد شيء يوجعني الآن..انتهى كل شيء..إني أرى فقط..أرى وأغيب..أرى..وأغيب..أرى وأغيب..أرى وأغيب.....

في آخر النهار، عندما غابت أنوار المساء الشتائي الباردة، وارتفع آذان المغرب من الجامع القريب، سمعت باب الحوش ينفتح. دخلت بايه ونزعت عنها الحايك عند العتبة، وأخرجت بعض الأوراق كانت معها. كان المساء الذاهب قد أعطاها هيئة لصة مطاردة وجدت فجوة في الحائط فجأة فدخلت لتجد لصا آخر قد دخل قبلها. كان قد سرق من النهار بقية من العمر. طارده الخوف من القتل حتى عتبة البيت ولما أفلته عاد على عقبيه ليبحث عن فريسة أخرى اكثر سهوا منه. كان كلّ نهار يحتاج أن نراوده عن نفسه. يوم يريد أن يختطف أعمارنا ونحن هاربون منه، نداري الجذوة بين أيدينا مخافة أن تنطفىء. كان هذا ما يجري لنا، لي ولبايه ولأبي وخالتي الزهرة وبنعمر و..للجميع هذه الأيام ..محاولات يائسة للحفاظ على جذوة الحياة حتى لا تطفئها الريح العاتية.

كنت قد أشعلت النار في الكانون وخضرت قهوتي وحدي عندما لم أجد أحدا في البيت. سألتها عن الجميع فقالت:

- راحوا ..كلّهم إلى بيت امينة فقد ولدت بنتا..

قلت:

- مبروك عليها ..لكن ما أتعس حظ هذه البنت..مسكينة..بعد سنوات..عندما ستكبر قليلا..أرجو أرجو أن نكون قد انتهينا من هذا كله ونسيناه..

قالت:

- لكنّنا لا ننسى دائما..نتحايل فقط..نحاول ان نجمل الأمور، ان نلطفها لكننا لا ننسى تماما. من الأفضل أن نقول اننا سنحاول أن نتناساها لأن ردود الأفعال ستبقى ذاتها هي هي وستتعذّب البنت لأنها ولدت في هذا الزمن بالضبط....

- ماذا يمكننا أن نفعل إذن حتى لا يرث أبناؤنا هذه الفضائع؟.

- لا أدري ..الآن لا أدري .. وأنت ماذا تظن أننا يجب أن نفعل؟.

قلت مازحا:

- لا يجب أن نبقى وسط الحوش هكذا كالشجر في البرد، سنجلس إلى النار ونشرب القهوة..هذا أفضل ما نستطيعه اليوم..

لملمت الحايك وهي تبتسم ورحنا لنجلس أمام الكانون.

كنت متعبا فاقدا للقدرة على الكلام، فشربت قهوتي صامتا. قالت:

- ها نحن أخيرا وحدنا. كنت أنتظر هذه اللّحظة لأنني أريد أن أسألك عن بعض الأمور.

- وأنا أريد أيضا أن أسألك عن أشياء كثيرة..

- نبدأ مساءنا بالأسئلة إذن...

- كلا بالاكتشاف...

- ماذا تعني ؟.

- أولا ماذا وجدت في الضريح؟ ما هذه الوراق التي تحملين معك؟ماذا فيها؟.

– أوف..هذه الأوراق ..لا شيء ..ليس هناك ما هو مهم فيها؟.

– غريب أمرك يا بايه..أنت محيّرة فعلا..كيف ان بقاءك في الضريح طوال النهار لا شيء من ورائه. أنا لا أفهم ...

– قلت ليس هناك ما يستحق الذكر لن أعود إلى الضريح بعد اليوم.

– حدثّني المقدّم اليوم عنك..لقد لاحظك..انت تسألينه كثيرا عن سيدي بومدين..

–......

– عن أي شيء تبحثين؟ ماذا تريدين بكل تلك الأسئلة؟.

– عدني أنك لن تسخر مني؟.

– يبدو الامر جادا؟.

– طبعا.

– ما الذي تخفين عني؟.

– لا شيء سوى اني مقتنعة بان هناك صلة قرابة بيني وبينه.

– من هو ؟.

– لا تتغابى..بيني وبين سيدي بومدين.

– كيف ؟..لست أفهم.

– قرابة عائلية...أقول لك..أريد ان أتأكّد انه لم يترك عائلة في تلمسان بعد موته .

– هذا ماكان؟. وضحكت.

– أنت تبحثين في الخرافات عن الحقيقة. الآن فهمت. كنت طوال هذا الوقت تريدين ان تجدي في الخطوط والزخرفات وعلى شواهد القبور ما يدلّك على قرابة ما

بالولي الصالح؟ أنت غريبة فعلا. ألم يخطر ببالك انها محاولة لا طائل من ورائها و أنها غير مجدية؟.

- ولماذا؟.

- قلت لك كم مرّة أن سيدي بومدين وصل من بجاية وحده هنا..

- وما أدراك؟.

- حسب علمي لم يذكر أحدهم أن الرجل جاء بعائلته هنا..هذه المحاولة فيها شيء من الجنون..بل انا أتساءل أهذا ما دفعك إلى المغامرة بحياتك هنا؟ أهذا ما جعلك تهربين من البيت..خبريني..كيف وصلت إلى هذه الفكرة؟ كيف عشّشت في رأسك ومنذ متى؟..

- هل تذكر يا يوسف ذلك اليوم الذي انحدرنا فيه لنزور سيدي الحلوي؟.

قلت:

- أذكر. كنت يومها أقوم بدور المرشد السياحي لامرأة مخبولة وانا لا أعلم . كان ذلك في الأيّام الأولى لعلاقتنا. وكنت أحدثك كثيرا عن رجالات التصوف في المدينة. في ذلك اليوم طلبت مني ان نضع شمعة في جامع سيدي الحلوي، وقلت لك ان هذا ليس هو العرف ولما كنت مصرّة وضعتها لأجلك هناك .

ذلك اليوم لن أنسه لأني لم أجدك عندما خرجت من الجامع. كنت قد ذهبت. ومنذ ذلك الحين لم تعودي كما عهدتك..يومها فقدتك..تغيرت طباعك وافكارك.كنت أقول لنفسي أني أنا السبب فيما جرى لك. انا الذي لم يستطع أن يتخلص من كل تلك الأجداث التي تسكنني..أنا من أدخلك إل هذه العوالم من الوهم ..

- صحيح ..حدثتني يومها عن سيدي الحلوي ذاك..كيف انه تخلي عن القضاء في الأندلس وجاء تلمسان ليعيش متخفيا بين الناس، يشتغل بالحلفاء والدوم فيبيعها ويشتري الحلوى للأطفال ويوزعها عليهم فيصفقون له ويغنون وهو يرقص لهم.

– نعم كان ذلك حقيقيا..التقينا فيه بشيخ غريب كان يبتسم لنا طوال الوقت دون أن نعرفه.. لقد كان يوما ممطرا ..

– بالفعل..

– وبعدها بأيام عندما التقيتك وسألتك سرّ ذلك الاختفاء..سكت..ولم تذكريه بعد ذلك .. كنت تقولين لا داعي لذلك .فيما بعد ساخبرك فيما بعد..

– ذلك اليوم كان ممطرا صحيح.. وكنت أنت قد دخلت الجامع لتشعل الشموع وبقيت أنا وحدي في الخارج أنتظرك.. انتابني لحظتها شعور قاس بالوحدة عندما تركتني في ذلك المكان ..كان الباب مواربا قليلا وكان قد ابتلعك. رحت أنظر إلى البوابة الضخمة وأفكر بذلك الشيخ الذي مرّ بنا لما كنت تضمني إليك..

– أذكره ..قلت لنفسي يومها أنه يمكن ان تكون روح سيدي الحلوي قد ضبطتنا متلبسين..لأن الطريق كان خاليا ولأنه ظهر فجأة ثم أختفى في المنعطف.

– أعرف.. شعرت بذلك .. شاهدت ذلك في عينيك.

– ولكن ما الذي جرى في ذلك اليوم أين ذهبت؟ أين اختفيت؟.

– لن تصدّقني إذا ما قلت لك..انا نفسي لست متيقنة مما جرى..كنت واقفة هناك أنتظرك وحيدة في الرّيح فإذا بيد صغيرة دافئة في يدي..إلتفت فوجدت طفلة صهباء في العاشرة من العمر.تلبس الأزرق كاملا من الكنزة إلى القبعة إلى السترة. تبتسم لي ولا تتكلم ..أخذتني من يدي..جذبتني..طالبة مني أن أتبعها. راحت تلح..و انا أسألها إلى أين؟ لم ترد.. قلت ربما تريدني في أمر ما..و تبعتها..لا أدري ما الذي جعلني غير خائفة منها. كانت تنط امامي فرحة..و هي تتفحصني بعينين خضراوين كبيرتين..انحدرنا أكثر بين الدروب وتوغلنا داخلها، حتى اني ضيعت المعالم ولم أعد أدري من أين جئت. وسألتها فلم تجب.كانت تبتسم فقط ولا تريد أن

اتخلّص من يدها..وقفت فجأة عند باب عتيق من الخشب.كان واطئا. دقت بحلقة النحاس ففتح. دخلت ثم جذبتني معها.

أوصلنا شاب جميل فارع الطول إلى وسط الحوش. وقفت أنتظر وألتفتّ حولي. كان هناك جمع من الناس ينتظرون في الغرف. النساء على حدة والرجال على حدة. كان الشباب صامتين اما النساء فكن يتحدّثن بصخب والأطفال يقفزون. ويلعبون هنا وهناك.و قفت مشدوهة لا أدري ماذا أفعل. ولما رآني الشاب حائرة قال:

– تفضلي..سيدي ينتظرك في الداخل..اصبري قليلا حتى أخبره بقدومك. وأشار إلى إحدى الغرف التي كانت تتناهى إليّ منها قراءة للقرآن. كانت التلاوة سريعة بصوت جميل ..حاد ومخيف في آن. قلت من هذا الرجل وماذا يريد مني؟.

دخل الشاب تلك الغرفة فتوقفت القراءة فجأة ثم خرجت امرأة مسرعة من عنده وهي ترفع نقابها. وخرج الشاب وناداني.

– تعالي..أدخلي إنه هنا..هيا أدخلي.

لا أدري ما الذي جعلني لا أعود..التفت حولي وبحثت عن البنت فلم أجدها. فقال لي:

– أسماء البكماء راحت إلى دارهم ..أدخلي أنت..لا تخافي فسيدي ينتظرك منذ مدّة.

كان في صوته توسل وكان عاديا ومؤنسا كأنما يعرفني.

تشجعت وتحاملت على نفسي وتوجّهت إلى تلك الغرفة ودخلت.

كانت مضاءة جيدا وخالية من الأثاث. إلا من سرير على اليمين والشيخ جالس على الكرسي الصغير. شعرت أني رأيت هذا الوجه من قبل. كان شيخا جميلا بجسمة الصغير في جلابته الوبر الحمراء وعلى رأسه عمامة بيضاء محكمة اللف. ظل يبتسم بعينيه الصغيرتين ووجهه الأحمر ولحيته الصهباء.

- تعالي اجلسي يا يايه يا بنتي..لا تخافي.قال.

شعرت بالخوف فجأة وراح المونطو الفلانير يثقل على أكتافي وأنفاسي تتصاعد.

قال:

- أنت بايه صنهاجي ..أليس كذلك ..اجلسي.

قلت بسرعة:

- ومن أعلمك بان اسمي صنهاجي وليس بن بوستة.

قال:

- لا تسألي كثيرا.. اجلسي فقط هنا على السرير وسأخبرك بكل شيء..

كان الشاب خلفي يبتسم وكان بعض الأطفال يتلصّصون عليّ من خلف ستار الباب المسدل. وصوت النساء مسموع. هدأت قليلا وجلست ونظرت إليه أطلب تفسيرا لكل هذا.

قال:

- أنا من مرّ بك قبل قليل وأنت مع ذلك الشاب. شاهدتكما وأنتما منحدرين إلى الجامع فأرسلت لك الطفلة لتحضرك.أنا بحاجة إليك.

- وأنا التي أقول أين رأيتك؟.

- أنا أعرفك..هذه هي صورتك ..أليس كذلك؟.

أعطاني الصورة. نظرت فاذا أنا حقّا. ضاحكة. ووالدي معي قبل أن يموت بشهور. كان البحر خلفنا والدنيا حرّ ونحن متعانقين، فرحين.أخذنا تلك الصورة في يوم ميلاده. كان ذلك قبل المرض بقليل.

– أكيد أنك لا تعرفين أن أخاك هو من أعطاني هذه الصورة..نعم هو من أعطاني الصورة وطلب مني ان أكتب لك حرزا حتى تقبلي بالزواج بمنصور بويعقوب. وقال إنه سيكافؤني لو استطعت أن أغيّر لك رأيك...

– هكذا المسألة إذن.. أووف... ورحت أهدؤ من روعي وراح الشيخ يضحك . قال:

– لا تستغربي كثيرا فجميع الناس يلجأون إلي عندما تستعصي عليهم الأمور. الحكام الأقوياء والضعفاء البسطاء.كلّهم يأتي أملا في قضاء حاجته عندي..لم اطلب منهم ذلك أبدا..هم يأتون..يؤمنون بالكْتِيبَة. بالحْرُوز، وأنا ألبّي لهم هذه الرغبة. عندما يشعرون بالغبن..يجدونني لأخفّف عنهم..لكن يعلم الله أني أمارسها كما يقول الشرع..أنا لا أستغل أحدا..هذه وهبة من عند الله..أعطاها لنا..تعلّمتها عن أبي الذي ورثها عن أبيه وسأورثها لابني هذا..نحن هنا يا بنتي من الجد إلى الجد في زاوية سيدي الحلوي.ولسنا ممّن يقوم بمثل تلك الأشياء التي طلبها أخوك..قلت له إني سأرى في الأمر. لقد وضعني في موقف محرج هو الكوميسار القويّ الذي يحسب الناس له ألف حساب. طلب مني أن أحتفظ بهذه الصورة عندي قال إني أحتاجها..أعلم ان الناس غلطوه وقالوا له إن الشيخ بن رمضان يستحضر أرواح الناس من صورهم وانه يتعامل من الجن.. لكن الله يعلم أنه مجرّد كذب..لست ممن يمارس هذه الأشياء والعياذ بالله .. انا أرقّي الناس..افسخ الكتب..أطلع على المصائر لي طرقي الخاصة..استعين فيها بالذكر والتسبيح..أمّا ممارسة تلك الأمور والعياذ بالله فأنا بعيد عن ذلك...

قلت:

– ها قد جئت بي إلى هنا وأخبرتني بكل هذا فماذا تريد مني ؟.

قام من مكانه وجلس على طرف السرير..بجانبي ونظر في عيني مليا. ثم طلب مني أن أتمدّد قال

- لا تخافي..سأرقّيك..و أبعد الشرّ عنك..عليك أن تثقي بي..ليس لك من خيار..بنت مثلك ما تستاهل العذاب..ثم وضع يده على جبهتي ومدّدني بلطف. كانت يده دافئة وخفيفة بأصابعها الصغيرة.و شرع يقرأ القرآن وهو مغمض العينين .. راح يكلّمني بهدوء ويطلب مني أن أغمض عيني وأن لا أفكر في شيء

قال:

- اسكني يا بايه..اسكني وهدئي من روعك..تمدّدي يا بنتي..أرخي يديك..ولا تتكلمي..مدي رجليك..و لا تفكّري في شيء الآن...

و راح يقرأ بصوت جميل ورحت أستسلم له..كنت أغيب..أرتاح..أسكن..

سمعته يقول:

- أغمضي عينيك وإذا ما شعرت بشيء فحرّكي الشاهد وإن كنت لا تشعرين بشيء فحرّكي الخنصر..و لا تفتحي عينيك حتى أقول لك.

ورحت استمع إلى قراءته .لم أتمالك نفسي..كانت قواي خائرة ورحت لا أشعر بشيء حولي..لا أحس بكفه على جبيني.كنت أسمع إلى قراءته في البداية ثم لم اعد أسمع شيئا.كنت أغيب..رحت أتيه في دروب لا أدري لها نهاية..دروب مشمسة مليئة بالشجر المزهر. والسماء زرقاء قريبة.. والدفء في كل مكان. كنت أجري في الحواري والطفلة أسماء تجري أمامي وتضحك وأنا أجري خلفها في الشمس الدافئة. كانت تتكلّم وتنادي عاليا باسمي.بايه..بايه..بايه شعرها يتلألأ في الضوء الباهر الذي يلفنا ويتطاير على كتفيها وهي تنادي باسمي وأنا اجري خلفها..إلى أن وصلنا إلى بستان بأشجار البلاطان العالية. رأيت بناء وسطها على شكل قبّة مفتوحة الحيطان بركائز ضخمة وأقواس مسننة. مبنية بالآجر الأحمر.

جرينا إلى المقعد خشبي تحت الشجر العالي وجلسنا نلهج من التعب ونحن نضحك.

قالت أسماء:

- هل تعرفين .. ما هذا المكان.وأشارت إلى البناء

قلت:

-لا أعرف.

قالت:

-هذا ضريح الأميرات.

قلت:

- صحيح؟.

ضحكت منها ثم قمت إليه لأتفقّده فإذا به قبر.

صاحت أسماء من بعيد وهي تبتسم

- ألم تقرئي شيئا.. انظري..انظري ..اقرئي الشاهدة.

لما نظرت وجدت شاهدة من الرخام بيضاء مكتوب عليها

((يا واقفا على قبرنا أدع لنا بالرحمة فاننا أحباب وبالشوق قتلنا..

هذا قبر بايه صنهاجي البجاوية..ازدادت عام ....))

هنا وفي هذه الأثناء سمعت الشيخ بن رمضان يناديني:

- بايه ..بايه صنهاجي هل تشعرين بشيء ؟ حرّكي الشاهد إن كنت تشعرين بشيء..

كنت هادئة ابتسم في ذلك المكان. لا أعلم إن كان يراني أبتسم.لكني قرّرت ألا أخبره . وحركت الخنصر.

كنت أخرج من الشمس وأعود إلى وعيي ووجهي مبلّل بالماء .شعرت أخيرا بالرش ورحت أستفيق.كان الطالب يغمس أصابعه في طاس من النحاس ويرشني.

لما عدت صاحية طلب مني أن أعتدل. اخذ دواته وبعض الورق وغمّس القلم في الحبر. سمعت حركته عليها. كانت هناك رائحة احتراق في ما يكتب في طريقته السريعة الحاذقة بالقصبة ذات البشرة الصفراء.

توقّف لحظة ثم نظر إليّ بعمق وكآبة. قال:

– أنت يا بنتي منذورة لشيء عجيب..رجال البلاد راهم راضيين عليك..سيدي بومدين وسيدي الحلوي..وحتى لالة ستي راهي راضية عليك..أنت بنت ناس. لكن الخطر يحوم حولك..عليك أن لا تبقي عند أخيك من أمّك موسي بن بوستة. إنه يريد بك شرّا .. وهناك ناس آخرين يريدون بك شرّا عن طريقه. انت وسط قوم لا يخافون الله..أخرجي من تلمسان في أسرع وقت..لا يمكنك البقاء هنا.. ساكتب لك حجابا..لا أحد سيقربك..لن يمسك أحد بسوء فسلالتك ناس فيهم الخير لذا جاؤا معك..راهم حاضرين وأنا مسلّم بهم ..خذي..هاكي هذا الحرز احمليه معك وما يصير غير الخير..

لفّ الورقة أربع مرات ثم أعطاها لي.و نادى ابنه:

– روحي معه يا بنتي الله يحفظك من البشر. وصّلها ولدي وأنتِ تهالاَّيْ في روحك..ربّي يسترك.

لما خرجت من عنده كان الرذاذ يتناثر على وجهي الدافىء من الانفعال.تبعت ذلك الشاب حتى آخر المتاهة. وقفت قليلا أمام الجامع أنتظرك لكنّك لم تخرج. خرج الناس من الصلاة لكنك لم تظهر فصعدت وحدي وانا أفكر فيك..تُرى ماذا فعل في غيابي.. فعرفت أنك بحثت عنّي ولما يئست ذهبت.

عدتُ حائرة إلى البيت ومنذ ذلك الحين وأنا في الحيرة لا أخرج منها إلا لأدخل في أخرى..

تهدّج صوتها وراحت تغالب البكاء. أمسكتها من يدها ونظرت إليها وقلت:

– لهذا قرّرت الهرب من بيت أخيك والاختباء هنا بالعبّاد لهذا صدّقت ما قاله ذلك الرجل. ووضعتني في موقف غريب لم يقع فيه احد أبدا.. وها أنا أتحمل من أجلك كل شيء..سخط أبي وخوفي من أخيك ومن القتلة الذين يتربّصون به وبك.فلو لا خالتي الزهرة ما كنت أستطيع أن أخبئك عندي.و ها أنا الآن أخاف عليك من هذه الاعتقادات الجديدة، من هذه الأفكار التي لا تناسبك..أنا نفسي لا تناسبني.. لم أسع إليها في يوم من الأيام أنا فيها فقط، ولدت هنا وتكويني هنا. ربما أخطأت عندما شرعت في البحث التاريخي في هذه الأمور..إنها نوع من اللعنة..علينا تجنبها..هذه الأماكن أكبرمنا..تحمل من الأسرار ما لا طاقة لنا به. أما الغافلون عنها أما اللاهون في القتل فلن يفكروا كما تفكرين الآن. الذين لم يقتربوا من هذه العوالم لن يدركوا شيئا عن النسغ الذي يجري في عروقنا. إنها المناطق السرّية التي لا يعرفها إلا من دخلها. ممالك غامضة لا قبل لنا بها. تعيش جنبنا في الجهة الأخرى منا، لكنّنا لا نعرف كيف تشتغل..

قالت:

– كنت لا أصدّق هذه المسائل ولما جرت معي..بهرتني..أنت من منحني هذا الاستعداد...

– أنا ؟ ما كنت أقصد ذلك ..عمري ما كنت أقصد أن أعلّم أحدا شيئا من هذا..أنت التي كنت تسألين وأنا أجيب.أنا شاهد فقط، أبحث في تاريخ المكان عن بعض الخلاص..لكن أن أجعل الناس يصدّقون ما أقول فلم يكن قصدي أبدا..

– هذا شأنك لكن سيدي بومدين جعلني أعيد النظر في كثير من الأمور.

– ولكنك أصبحت مثله متّهمة ومطاردة.

– أنا ؟كلا لا يمكنني أن أشبهه في شيء ..

– فما الذي يشغلك. ماذا وراء هذا البحث؟.

-هل تعرف ماذا يوجد منقوشا في الرخامتين المعلقتين على الساريتين الأماميتين للمسجد..

- لا أعلم لم أفكر يوما في قراءة تلك النقوش.

- منقوش فيهما الحبوس والأراضي والبساتين الموقوفة للجامع..هذا ما كان.هذا ما وجدت مجرّد جرد للحبوس..

- وماذا كنت تنتظرين ان تجدي؟.

- كنت اتمنى ان أجد من بين أسماء العائلات المذكور إسما لعائلتي..كنت أبحث عن نسب يقرّبني من هذا المكان..

- لكنك من بجاية.. نسبك هناك. لماذا تريدينه أن يكون هنا؟..

-ربما بقايا من العائلة التي هاجرت معه.

- آه..يا بايه الجينيالوجيا.. النسب..العائلة. ألم نتخلص بعد من كلّ هذا الهراء.. ألا يمكن أن نكون نحن فقط نحن. أبناء لهذا الزمن الذي أنتجنا. بعيدا عن مقولات نقاء الجنس والأولية في الوجود التي أنتجت كل الخراب.نحن أبناء هذا الوطن وكفى ...

- لم أكن أقصد هذا ؟.

- وماذا كنت تريدين إذن؟.

- لا أعلم..

أخذتها من يدها وقلت :

- آه ..أيتها المخبولة..أنت تبحثين في الحجر عن شجرة نسب وأنا أبحث عنك وأنت بجانبي...

Il neige encore. l’étoile
Qui tue le jour sur son corps.
Est en cendre,tout en cendre

إنها لا تزال تثلج. النجمة
التي تغتال النهار على جسدها
أضحت رمادا ، رمادا كلّها.

محمد ديب

ظل حارس

كانت الشفة في الشفة ونحن على شفا النار التي تلتمع فيهما عندما تألّقت الشعاليل وتطاولت في بحثها المتصاعد وسط جسد حطب التوت المقتطع من بساتين الحرطون الميتة، أما الأيدي فمترعة الآن بالوفرة وهي تجوس باحثة في لبدة الشعر الأسود الهفهاف، تتحرك، تلتّف، تفتش بين الأحراش الدبقة من الحرارة والعرق الخفيف واللهاث الصاعد في دكة الكانون المحروق الجوانب المسود من كثرة الدخان أيام الشتاء هذه التي لا تريد أن تنزاح من على شرفات المدينة المحروسة.

هبات الأنفاس وهبات الصهد في اللهب وفي أطراف الأصابع عند اللمس الرهيف للمخمل البشرة. إنها إلى الصدغ المليء العامر تهفو حالمة عند اللمس المشوق ليديّ..

الشموس الصغيرة تلمع الآن في زغب الذراعين وعلى الجبين تصهدنا عندما طقطقت الحطبات في الاشتعال .و انفجر الشعر بين أصابعي كما الدّغل الذي تتخلّله الريح الحامية. لقد انحسر التردّد وراح في الهالة المنتظرة وفي اللفتة المتغنّجة وفي ملمس لدانة الأصابع المكتنزة. ولم تكن الأصابع أقل رهافة عند الالتفاف المندغم على وجهي في الحفيف الندي للأصول على البشرة ذات الرائحة العرقانة بين يديّ اللتان تعملان دون أن أراهما تحت في أسفل الكثيب المترجرج. هذا الرمل ..نعم هو الرمل الذي لا يمكن أن ينساب أو يذهب لأنه متماسك، صلب، متكاثف، رطب ناعم، مكومّ، ليس فيه انزلاق او انفلات، جديدُ غير فاغم بل متوهّج الرائحة بلون الجمر في لسعته التي لا يمكن ان يركبها الرماد أبدا.

ماذا يريد مني،قلت، هذا الصيف القائظ المشية الآن في أنفاسي ؟. ماذا يريد ذلك المتنضّح عنبا عند القضمة الخفيفة لشحمة الأذن؟ وماذا تشتمّ يا الذاهل في تربة العنق هذه عندما تغمض عينيك مقتربا من نكهة الطين المبلول في الظهيرة الحارة العالية؟. إنك لن

تعبأ بالبرد المتسرّب من تحت الباب ولن تنهض إليه كي ما تضع تحته غطاء أو زربية بل تحب لسعته اللذيذة الأثيرة في ذلك الاشتعال الكاسح.

تحرّرت يداي الآن من ثقل الكفل وانبعاجه وراحتا تتبعان العتمة القوية الصلبة في الظهر الذي فقد يبوسة الخوف. ثم ها الصدر قد اندلق في الكفين اللتان ترنحتا متوجستان من ذلك الانهراق المفاجيء للحضور الذي كان مخبوءا دائما ولا يبين.

عندما وجدت الحرز الذي تخبؤه. كان بجلده الأسود كالوحمة برائحة العرق الذي عبأه من بشرتها. فكّكته..فسختته ورميته في النار..و لما احترق تزبّد فجأة وتوهّج وعبق لحظة برائحة كالبخور و تبدّد مع الدخان.

أما الآن فعلى اليدين ان تكونا أكثر حذرا في دهشتهما وهما تتلقيان العناقيد المثقلة بالماء، وهما تسعيان بليونة وخيفة في أن تحفظا اندفاعهما وهما تتلقيان ذلك الصب الباهر. عندما انحسرت الزرقة عن الشد القوي. كانت الفجاءة هي ما التمع في النار لا غير.

قلت:

– أنا..أْ.أْ.أْ. أنتِ...

وسكت لأن اليد المقطوعة التي كانت تنزّ دما انوضَعت على شفتي مخضلة بالحمرة كالحناء. وكاد أن يتوقف الشرود إلى أناي عندما نطقتُ، كدتُ أن لا أحضر، أن لا أنزل إلى هذه الوفرة بين يدي.

وما قلنا شيئا. تركنا الهواء الساخن في النفس يقول. وما كان لساني ليتحدث بل كان يكرع في الشفة الثخينة حدّ السواد الذي يسوّرها..ولم تسأل هي عمّا نريد ولا عما يريد العالم منا. بل قالت إننا يمكن أن نذهب أبعد في هذا كله دون أن نحتاج أحدا كي يتفتّق الجسد عن نفسه. يمكن ينتفض من نومته تماما كما يتدفّق النبع الحار من جوف الأرض. فها..تركنا الريح للشوارع والحواري والطرقات وللجبل الذي يلفّه الضباب الآن. لم أكن

أتوقع هذه الهجمة الخفيفة عندما لمسنا القاع في أنفسنا. عندماكنا نغرق فيها تاركين كل كلام حتى لا نتحوّل إلى حجر.

قالت:

-كنت أحبّك دائما...

ولم تكمل لأني وضعت يدي على فمها وقبّلت الترقوة الهشة عند مكان الذبح تماما حتى أنه فاجأتني صورته الرهيبة وأنا ألمح العرق خفيفا في لفة البشرة على أختها. كان هناك خط حاز ملتئم من أثر المرور البارد للشفرة تاركة أثرا لا يبين. أغمضت عيني بقوّة ثم ما كانت معي سوى الجذبة من الخصر إلى الجنب المطعون منذ سنين، خصري النازف بالحب.

بعدها سكتنا للحظات. وهل كان يجدر بنا الكلام فالشجر استيقظ فينا عندما كانت المدينة نائمة في الحنجرة. وصوتنا المرعب ما عاد يخيفنا ما دمنا كففنا عن سماعه في الداخل..كنا قد تعطّلنا قليلا.و استرحنا من بعض الحروب الخاسرة لنربح انفسنا قليلا

قالت:

– ألا يمكن أن يعود أحد إلى الدار في هذه الساعة المتأخرة من الليل.إنها الثانية عشر..

أنصت فلم أسمع شيئا. ثم خرجت فإذا بالسحاب يغشى القمر المكتمل وظل الرمانة يرفرف في بقايا المطر. هو الرذاذ إذن ينث خفيفا دافئا كلما جاءت النذر بهطول الثلج.

دخلت الصالة وتوجهت صوب المقانة وأنزلتها من على الحائط ووضعتها في الأرض و تأملتها مليا ثم رفعت رجلي عاليا وحطمتها دفعة واحدة.

لا شيء، لم يجر شيء..كانت ضربة واحدة بحذائي الجلدي الخشن في وجه العقربين كافية حتى أسمع الطقطقة المكتومة للخشب الذي بدا خاويا هشا، فيصلني منه الصدى متردّدا حولي لطنين الزنبرك وهو ينفلت من مكانه ويتشظى متشرذما إلى لوالب كثيرة

مسنّنة..ما كنت أظن أن المسألة بهذه السهولة. إذ كانت تكفيني بعض الجسارة حتى تتحطّم المقانة الغولة.

......

قالت:

– ماذا كان ذلك الصوت..كأنما شيئ ما تحطّم..

قلت:

– لا شيء سوى أن باب الحوش كان مفتوحا وكان يحتاج إلى الخبط لكي يغلق فخبطته حتى أغلقته جيّدا.

– هذا ما كان؟.

– هذا ما كان. .

– لكنك أبطأت..

قلت وأنا أجلس إليها:

– لا يمكن ان تخافي وانا معك.

– لأنك معي أخاف أكثر.

– تخافين مني بايه؟.

–......

وأخذتها من يدها وقلت:

- حَمْلَخْكَمْ يا بايه.. حَمْلَخْكَمْ[50].

---

[50] أحبك ..أحبك .بالأمازيغية

لكن شجرة السرو كانت عالية أبدا وظلّها يضيء من الشرّر الذي يتخلّله. وبغتتني البداهة فيها، لسعتني الحقيقة ولم يكن هناك من يقين أتكىء عليه.

– لست مستعدا لأخسرك بعدما وجدتك. قلت.

– هذا محال ..كلٌّ إلى ذهاب.. لا يمكنني البقاء أكثر.

– لا أمل؟.

– لا أمل. واختبأت في فتنة النار.

قلت:

– اخبريني عن معنى هذا كلّه.

قالت:

- الحب كلّه مقام إبادة يا يوسف..فلا تسأل.

جلست عندها مدهوشا كمن تفلّق لتوّه من الحجر. جديدا وغير قادر على الكلام. وحالي يقول انك قد احترقت وانتهى الأمر. إنك لم تصل بعدُ. وانه لا يكفيك المحو أو المحق لأن المقام كلّه جسد.

((ثم قال لي:

- ارفع الستور واحدا فواحدا

فرفعت الحرف(بـ) فرأيت الوجود..

ثم رفعت الـ (ا) فرأيت العدم..

ثم (يه) السِّجن..

قال العبد فلما انتهيت قال لي:

- ما رأيتَ .

قلت:

- عظيما .

ثم قال لي:

- و عزّتي ما أخفيت عنك شيئا ، ولا أظهرت لك شيئا...))[51]

[51] من كتاب مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الالاهية لابن عربي بتصرف.

كنا غارقين في بهاء اللحظة عندما تغير وجه بايه فجأة وظهر الفزع في عينيها وغير كل ملامحها فقالت:

- أشْ...اسمع هذا صوت سقطة في الحوش.

- هل أنت متأكدّة؟...

- نعم هناك مشية..

أمرتها أن تختبىء كما علّمتها وعدت إلى الباب أتنصت. كانت هناك مشية فعلا بصرير مكتوم. لابد أن الثلج غطى الحوش والعبّاد والمدينة الآن..توقف الخطو لحظة ثم سقطة أخرى، وقوع آخر مصحوب بقرقعة السلاح هذه المرّة.ثم همس سريع تلاه هدوء.

لم أكن خائفا بل انتابتني حالة من الترقب الساكن فوقت خلف الباب أنتظر.. عرفتُهما...

لقد اكتشفا مكان اختباء بايه وجاءا ليبحثا عنها. ها قد وجدا مغارتها وها الأخ يريد أن يقطع يدها ويرميها على السطوح..خطواتهما تتّجه الآن إلى الصالة. انتظرت قليلا ثم فتحت الباب..و تنفّست الهواء المثلج دفعة واحدة. تراءت لي الرمانة واقفة وسط الدار مزدهية بالندف وهي تتلألأ تحت نور مصباح الشارع.و سمعت صوت محرك السيارة الواقفة بالخارج لا يزال يشتغل. أغلقت الباب من خلفي ووقفت عند العتبة.

قلت الحمد لله أن أبي ويحيى وخالتي ليسا بالبيت وخطوت في الحوش.

- حبَّسْ ..شْكون أنت[52].. ارفع يدِّيك...

كانا وسط الظلمة وسلاحاهما وحده في النور.

---

[52] من انت

توقّفت ورفعت يديّ دون فزع. كنت مكشوفا واضحا، ضوء الشارع على وجهي وظلّي منطرح جنبي على الثلج.

- اقتربْ...

اقتربت واقتربا منّي بحذر..لم يكن لخطواتهنا صوت..أحاطا بي..وقف أطولهما قبالتي والمسدّس في وجهي. وخرج وجهه من الظلمة دفعة واحدة.لم يكن وجها..بل كتلة من الظلام، عينان فقط فيهما غضب وقساوة...نظر إليّ من فوق بقامته الفارعة وفتّش سترتي الجلدية بسرعة. أما الرجل الثاني فانتقل بخفة خلفي وضع المسدّس في ظهري وتلمّس رجلي وجنبي بسرعة. قال الأطول

- أنت هو يوسف؟...

سكت..كان ينظر إلي والبخار يخرج من تقب في أسفل الكاغول الذي يلبسه على وجهه ورائحة الشراب تند منه قويّة نفاذة.

هزّني بقوّة وحقد وصرخ:

- أنت هو الخرا المسمى يوسف ولاّ..لا...

قلت:

- أنا هو..

دفعني الرجل الأصغر حجما بشدّة إلى داخل السيارة البيجوال 505 الفامليال البيضاء المنعدمة الزجاج.عندما دخلت فغمتني رائحة الشراب والسجائر وشعرت بالدفء الغريب. جلست في المقعد الخلفي وهو عبارة عن قفص مصفّد بشباك حديدي لا يمكن الانفلات منه إلى المقعد الأمامي. اهتزّت السيارة لما أغلق بقوّة ثم عاد ليجلس في المقعد الأمامي جنب السائق.

انتظرنا مدّة..كنت ابتسم في داخلي وأنا أسمع صوت باب الغرفة ينكسر والأشياء تنقلب والصراخ يتناهى إلي من البيت.التفت إليّ الرجل وهو يضحك.قال:

– درتها يا ولد الـ... على بالنا بلّي تديرها.

–......

و فتح الباب فجأة

– وين راهي ..هرّبتها .. ضرك نشوفوا .. تجيبها بلا أمك يا الـ...

و أغلق بسرعة وركب ثم أقلع بالسيارة.

– يا خويا.. أسبوع وهي هنا في العبّاد وحنا قالبين عليها الأرض..حاسب روحك قافز ..نوصلوا ثم نهدروا...

كانت السيارة تنزلق وتميل ونحن ننحدر من العبّاد في الثلج. ماسح الزجاج يضرب بقوّة، مثقلا بالندف التي تهطل بغزارة حولنا. أخذ السائق يطاوع المركبة ليصل إلى الطريق المستوية تحت وهي تميل من حين لحين. راح يسب ويلعن هذا النهار بينما صاحبه يكرع صامتا من قنينة الخمر..

تمهّل قليلا عندما وصل عند بقايا مسجد أبي إسحاق الطيّار الذي طمر الثلج القبران وسطه. وحدها الأقواس والأعمدة باقية مندّاة وبيضاء الجنبات، هادئة وساكنة. أما المدينة فخالية تحت السجف. مررنا بالمقبرة وبشجر السرو العالي ومرّت شواهد القبور فوقنا، على مستوى رؤوسنا. أما هناك خلف السياج العالي، وسط العتمة فضريح سيدي السنوسي..

لقد تيقنت الآن فقط أن المدينة بكاملها تخترقني دفعة واحدة وهي ترزح تحت السجف. لكني خالي البال، غير مكترث بما سيحدث لي. كنت فانٍ عن نفسي وذاهل عنها وتلمسان تنام كلها في داخلي.

لا أدري لماذا حضرتني في تلك اللحظات حكاية الجارية التي جاءت إلى أبي مدين شعيب بطاس الماء كي يتوضأ ولما جثت أمامه لتقدم له الماعون تدلّت ثمار نهديها واندلقا فبان الخط الفاصل بين الرغبة والرهبة. فما شعر بنفسه إلاّ وهو يضع إصبعه في الهاوية بين

الرمانتين. غاب عن نفسه وشعر باللدانة والليونة والدفء فيهما. حار الرجل في تلك الهاوية ولما أخرج إصبعه وجده فحمًا..كان قد احترق.

قلت ((أما أنا فقد احترق كلّي وتفحّمت..و لا يهمّني إلى أين يأخذونني))

شرب بنعمر كأسه دفعة واحدة ثم وضع المذكرات والرسائل جانبا. تمدّد على السرير وراح ينظر إلى السقف. لقد تعب من قراءتها وقرف من البحث عن أي معنى قد يختفي وراءها. قال:

– في تلك الليلة التقى يوسف ولد المهدي الخرّاز بموسى بن بوستة لأوّل مرّة. حاول أن يأخذ أي اعتراف منه فلم يستطع. ولما تعب أوكله لبوخطفة ووحيد وكانا سكرانين فأعطوه الضرب حتى شبع. رفسوه ومرّغوه على الأرض وهدّدوه بالقتل وهو صامت. كان قد قرّر أن لا يتكلّم. فعاد الرجلان إلى البيت وقلباه سافيه على عافيه ولما يئسا وخشيا الصباح. أرجعاه إلى الكوميسارية وأدخلاه الزنزانة وجلسا ينتظران الأوامر.

قال حسان:

– والبنت.. هل وجدوها؟.

قال بنعمر وهو يجتهد في أن يبتسم من السكر.

– هل نسيت يا السِّي حسان أنه في كل بيت قديم من بيوت العبّاد..بئر..كانت في البئر..

–صحيح..و من بعد..ماذا جرى؟.

– في اليوم الثامن جاءني عمّي المهدي ورحنا نبحث عنه في مخافر الشرطة والدرك وأعلنا عن اختفائه وسألنا عنه كلّ من يعرفه فلم يعطنا أحد أي خبر..

وفي التاسع جاءت السيارة البيجو**505** البيضاء إلى العبّاد وقالوا لأبيه أنهم وجدوه وهو في السجن وهو متّهم بخطف بايه بن بوستة.

اتصلنا بالمحامي وطلب مقابلته فتمكّن من ذلك وطمأننا في المساء على حاله. وفي الغد رحنا، أنا وأبوه وخالتي الزهرة لنراه.

كنّا بمكتب بوخطفة ووحيد عندما دخل علينا يوسف وهو يبتسم. عينه اليسرى منتفخة وأثر الكدمات على وجهه.و في الشفة السفلى جرح بدأ يلتئم. وقف عمّي المهدي ونظر إليه ولم يتكلّم.بدا متعبا. شعره الأكرت العسلي مهمل ووجهه الأصهب غير حليق اللحية فأجلسناه.

عانقته خالته التي ظلّت واقفة مندهشة طوال الوقت ثم خرجت من هيئتها لتضع على المكتب طبقا صغيرا لم ألحظه معها من البداية. قالت

– هذه التَقْنتَّة[53].. جَبْنا لك حقّك..

نظر إليها يوسف وابتسم مرّة أخرى فانفلقت الشفة المنتفخة وسال منها الدّم..فأخرجت من جيبي منديلا وقدّمته له..راح يهزّ رأسه وهو يبتسم والدّم ينز منه.

كان عمي المهدي يضع يده على كتفه وهو يحدّق في الحائط المليء بصور المطلوبين في قوائم طويلة بالأسود والأبيض معظمهم من الشباب بلحى كثّة وآخرون بدون لحى.

[53] حلوى شعبية مصنوعة من السميد والعسل تقدم للضيوف أيام زيارتهم للنفساء فيكرموا المولود بالمال

أسماؤهم مكتوبة بخطوط واضحة وتحتها المبالغ الضخمة الممنوحة للقبض عليهم. وكان هناك في الجانب الآخر صورة لرئيس المجلس الأعلى للدولة.و العلم بجانبه منسدل هامد وخلفهما السواد الذي يجلّل كل شيء.

قلت:

- الحمد لله أننا وجدناك.و لا يهمّ الصفة التي أنت عليها الآن..المهم هو أنك حيّ..هذا هو المهم..

قال:

- أتعبتك كثيرا يا صديقي..سامحني يا بنعمر.

و مسح الدّم الذي لم يتوقّف لحظة.

-لا عليك .قلت. سيأتي المحامي بعد قليل وتنتهي هذه المسألة بسرعة.

قال عمّي المهدي كأنّما يتحدّث وحده:

- أعطيناه بعض المال وأفهمناه المسألة ولم نذكر له شيئا عن تلك البنت فليس هناك من شهود أننا أختطفنا بنتا.. عمرنا ما عرفناها.

قال يوسف وهو يمدّ يده للتقنتة ليأكل:

- ليس معي كرامة للبنت قولي لأمينة أنني سأكرم ابنتها عندما أخرج.

- السلامة في الرأس أما الكرامة من بعد.

قال وهو يلتفت حوله:

- ويحي كيف راه؟.

-واش خصّه شبع طعام وحلوى التقنتة.

- أعطوه الدواء لا تنسوا .

ثم أطرق إلى الأرض وسرح بعيدا..عندها دخل بوخطفة وطلب منا أن نخرج

- شفتوا السبّع ديالكم أيّا تبقاو على خير هيا برّا علينا.

قال حسان:

– أخذ طريحة إذن..أخذ حقّه من السوط..

– أكيد ما في ذلك شك..

–و بايه؟.

– أوصلتُها في اليوم التالي إلى مطار وهران لتأخذ الطائرة إلى العاصمة ومن ثمة إلى بجاية.

حرّك حسان النار في الكانون وفكر أن الفجر قريب. وأن الشرب لم يعد يؤثر فيه على الرّغم من كبر سنّه. والتفت إلى بنعمر فوجده غارقا في تأمل صورة.

– ماهذه الصورة التي بين يديك ..و ما هذه الورقة معها؟ .. أهي رسالة؟.

تأمل بنعمر الصورة طويلا وسكت.كان هادئا وغير مبال، ومتعبا أيضا ذلك التعب الذي لازمه منذ موت ليلى.شرد قليلا ثم اتكأ على السرير. قلَب ما كان في يديه ثم قال:

– هذه يا السّي حسان آخر ما وصلني من يوسف..

– وماذا هناك؟

قال:

– بطاقة بريدية فقط ؟

وماذا يقول فيها يوسف .

قال:

–يقول يوسف ولد المهدي الخراز:

((التحية لك أيّها الصديق.. أرجو أن تكون بخير وارجو ان يومياتي معك دائما. أما عني فهذه ساحة النجمة في بجاية..و ذاك هو البحر.. وهذا أنا.))

انتهى